مورستان

ريهام غُرَيِّب

رواية

اسم الكتاب : مورستان

اسم الكاتب : ريهام غُريِّب

رقم الإيداع : 2017/10681

الترقيم الدولي 9789776527966

الطبعة الأولى : 2017

إخراج داخلي : هيام فهيم

صادر عن : مؤسسة زَحمَة كُتَّاب للثقافة والنشر

15 ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة

www.za7ma-kotab.com

دار زحمة كتاب للنشر

za7ma-kotab@hotmail.com

01205100596

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة زَحمَة كُتَّاب للثقافة والنشر

المشهرة قانونًا بسجل تجاريّ رقم /84486

إهداء

بكِ بدأت، لأن بكِ أنت فقط، قد بدأ كل شيء ..

العقل البشري هو بمثابة عالم مستقل داخل العالم، وكون آخر موازي لكوننا الحسي. لكن أن تتعمق في أسرار هذا الكون المخبأ بداخلك أنت، بدون حواس، كما تعودت رؤية الكون الخارجي بعينيك، فستشعر أخيراً، ولأول مرة، أنك على قيد الحياة .. حاول أن تدع الفضول يقودك كما كنت طفلاً صغيراً، لأنه عندما تنتهي فطرة الفضول عند الإنسان، يتوقف عقله عن العمل، وتموت كل أشكال المعرفة، وإن طل يظن في نفسه أنه أعرف العارفين بكل شيء! هذا العقل هو الآلة الوحيدة المتطورة التي لا تقدر بثمن، ورغم ذلك مجانية، فاستخدمها!

تنويه

إذا كنت لم تفكر يومًا، فهذا الكتاب ليس لك ..

إذا كنت ممن يفسرون الكلام بمعاني موجودة فقط في معجمهم الخاص ثم يلصقها بالمؤلف فلا تقرأ هذا الكتاب ...

(٢٠٦٥)

جلست "حياة " على الكرسي الخشبي، في قاعة ضخمة، داخل الغرفة المصرية، بمتحف ذا مِت، الأشهر والأعرق، في سنترال بارك، بنيويورك، والذي سيحتفل بعيده المائتين بعد خمس سنوات من الآن. بدأ الحضور بالجلوس للانتباه، بعد أن كان الجميع يتجول في أنحاء الغرفة ذات السقف العالي والمليئة بالكتابات المصرية القديمة على أعمدة كبيرة تشبه المعابد القديمة في الأقصر على اليمين واليسار . تتحدث كل مجموعة صغيرة فيما بينها، هنا، بجانب التابوت الذي يحوي مومياء لأحد الفراعنة، وهناك بجانب حوض الماء الضخم، يمر بينهم الندّل الأنيقين، بصواني مليئة بالمقبلات والمشروبات على الطريقة الأمريكية، وتمر بينهم "حياة" لتلقي التحية وبعض المجاملات على كل من جاءوا خصيصاً من أجل حفل قراءة كتابها . كان هذا الحدث مليئًا بالإعلاميين

والسياسيين والصحفيين. فحياة ذات الخمسين ربيعًا، تعد من أشهر علماء عصرها، ورغم ذلك، لم تفكر من قبل في نشر كتب باسمها، فقد كرست حياتها لمساعدة هؤلاء الذين تستطيع مساعدتهم؛ مما يؤدي إلى جعلهم يساعدون أكثر فأكثر، بتطبيق منهج في علم النفس قد وضعته في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا، ثم طبقته على أطفال عدة من ثقافات مختلفة، كانوا يعانون من طفولة وظروف قاسية.

بدأ مقدِّم الحفل بكلمات عن حياة، وتاريخها، في مكبر الصوت وسط القاعة، قبل أن يستدعيها بنطق اسمها الكامل . تقدمت حياة وجلست على كرسيها، بعد أن جلس الجميع للاستماع لتلك الكلمات، ثم أخذت تقرأ من كتابها، بصوت منخفض نوعًا ما، وكأنها تهمس بكلمات روحانية مقدسة:

"لماذا أشعر بأن الزمن عليه أن يتوقف لهذا الحد ! لا أتوقع له الاستمرار، فربما حان موعد توقفه مع زمن ولادتي .. ولكنه يعاندني ويستمر، لا يتوقف، يرعبني!! أحيانًا أتعجب كيف وصلت إلى هنا، فأنا لم أعد الطفلة التي عرفتها، حتى ولو كنت أرغب في ذلك، فإنه يستمر في المضيِّ، تاركني خلفه، غير مبالٍ بما أريد. كيف وصلت إلى نفس السن الذي أصبحت فيه أمي أمًّا لي؟! كيف لي أن أشعر بأني أريد طفلًا وأنا ما زلت طفلة؟ !

كيف سأكبر وأصبح قديمة، غير مواكبة لحياة أبنائي، ولا أستطيع فهمهم، بعد أن عشت طيلة هذه السنين أنا المتمردة التي يصعب فهمها؟! كيف يجرؤ الزمن على تجاهلي إلى هذا الحد؟! لقد كبرت بالفعل، وإن كنت أحارب أن أصبح أمًّا، فأنا أصبحت خالة لطفلين، لقد وضِعت في خانة الجيل القديم ونفذ الأمر؛ فأمي ليست أمًّا فقط بل جدة.. إن العمر يمر بسرعة فائقة، وهذا ما يقلقني منه. أعلم منذ طفولتي أنّي قد ولدت لهدف ما. ولكني كبرت ولا أعرف حتى الآن ما هو! واقفة مكاني، لا أضيف أي شيء إلى البشرية، فلماذا خُلقت، ولماذا لا أعرف السبب حتى هذا السن؟! هكذا قلت لحبيبي في لحظة يأس ومناجاة مع الله في الباطن، ولكن ردَّه المنطقي أسكتني عن الكلام، ولكن لم يكن بإمكانه أن يُسكت عقلي الثرثار عن طرح الأسئلة.

"لماذا تقولين مثل هذا الكلام؟ أنتِ ما زلت في بداية عمرك، استمتعي به، وإذا خلقك الله لهدف ستعرفينه في حينه. تجعليني أشعر وكأنني أتحدث مع عجوز!" ربما كان على حق، ولكن شيئًا ما بداخلي رفض أن يخلق لتلك الكلمات معنى حقيقيًّا؛ بحيث يمكنني استيعابه. كيف لي أن أشعر بأني ما زلت

طفلة، وكيف لي أن أصدق أن العقدين اللذين عايشتهما على الأرض، هما في الواقع ستون عاماً؟!

عندما أتخيل أنني أنجب أطفالًا لهذا العالم، ينتابني شعورٌ وكأنني لا أقوى على أن أبدأ من جديد، و كأن الأمر ليس مجرد وهب حياة جديدة لقطعة منّي، بل كأنني سأعيد حياتي كلها من جديد، ولكن في دور الأم بدلًا من دور الطفلة، التي لا تزال بداخلي، ولا تريد النضوج أبداً، لخوفها من مواجهة العالم رغم جرأتها.. أشعر كأنني عشت ومت، واكتفيت من الدنيا كرجل عمره مئة وعشرون عامًا، رجل رأى و جرب كل شيء، حتى أنه أصبح تواقًا للعالم الآخر، كطفل سيذهب للألعاب لأول مرة! لا أقدر على بدء كل شيء من جديد، فأنا عشت حياتي وحياة أمي وحياة جدتي، ورأيت كل شيء من عيونهم، حتى أنني لست متحمسة لأي يوم آخر، لماذا من الصعب عليّ أن أقتنع بأنني ما زلت في بداية العشرين من عمري، لماذا أشعر وكأن هذه الحياة التي أعيشها، قد عشتها قبل ذلك بالفعل، وأنهيتها ألف مرة حتى مللت منها تمامًا؟ جربت كل شيء و لم يعد لأي شيء معنى!!

سأظل أكتب وأكتب حتى أعلم من أكون، فأنا لا زلت تائهة في هذا العالم الكبير. منذ صغر سني وأنا أتساءل : من هو الله؟ حتى أيقنت أنه يكمن بداخلي، فلا زلت أبحث عنه بالبحث عن نفسي.. كل ما أعرفه حتى الآن، أنني لست سوى تساؤلات كثيرة، لا يميزني عمن حولي سوى تساؤلاتي التي لا أعلم من أين تأتي ولا أتقن الإجابة عنها. أدرك أنني لا زلت في بدايات شبابي، ولكني أدرك أن العمر يمر سريعًا ولا أريد أن أموت قبل أن أفهم. رغم أني أتساءل الآن عن فائدة المعرفة . إذا كان مقدّر لي أن أرحل عنها في يوم من الأيام، فأنا لست سوى عنصر واحد في دائرة كونية كبيرة لا تتوقف عند أحد، فإذا قررت أن أسلك مسلك باقي البشر وأعيش في دائرتي الصغيرة، ما بين تكوين أسرة أحافظ عليها وإثبات ذاتي في عمل أحبه، من دون أن أعبأ بأي شيء آخر سوى سعادتي، ماذا سيُحدِث هذا من اختلاف؟ لا أعلم ! ولكني لا أستطيع مقاومة طبيعتي الحمقاء....".

أغلَقَت الكتاب، الذي كان بيد أغلب الحاضرين بحذر شديد . ثم رفعت رأسها، وعيناها مثبتتان على غلافه، ثم رفعتهما فجأة ونظرت إلى الحضور، وأهمهم الصحفيون الذين اعتبروا هذا

الحدث موضوعًا هامًّا للنشر. نظرت حياة للجمع بابتسامة ثم سألت:

- هل لديكم أسئلة؟

وقف أحد الصحفيين من على مقعده وقال لها:

- أنتِ شخصية ذات مكانة في مجال التعليم والسياسة أيضًا؛ حيث أنشأتِ علمًا كاملًا، سُمِّي على اسمك، في أسلوب تعليم الأطفال وبناء شخصياتهم، ومعالجتها، وقد ساعدتِ في مشوارك أطفالًا كُثر من ثقافات مختلفة، كان لديهم مشكلات في نموهم العقلي أو النفسي أو الاثنين معًا، وها هم الآن يهدون نجاحاتهم إليك، لأنها على حد تعبيرهم، كانت بفضلك . والآن، الموضوع المثار في الدولة، هو إضافة هذا المنهج إلى المدارس ودور الرعاية بالأطفال وتعميمه بشكل رسمي . كل هذا، وعندما تقدمين على نشر كتاب، إذا به رواية بعيدة كل البعد عن مجالك وأبحاثك، فهل يمكننا أن نفهم السبب؟

فقالت له:

- علومي في يد المسؤولين، وذوي الخبرة، من أساتذة علم النفس. ليست موضوعًا يكتب عنه للعامة، بل يجب دراستها مع دراسة أبحاث أخرى كثيرة لكي تُفهم. أما عن كتابي هذا فهو واجب عليَّ و موروث، كان يجب أن يُقدم للناس.

- ولكنكِ في هذا الكتاب تنتقدين الملحدين، والذين هم الأغلبية العامة في معظم بلادنا. الآن، ألا تخافين أن يأخذ منك الناس موقفًا بعد أن أشادوا باسمك في مجالات أخرى؟ سألها آخر.

- المرأة التي ألهمتني هذا الكتاب، خافت في زمنها أن تنشر ما ينتقد المتدينين، عندما كانوا الأغلبية، لكي لا تتعرض للانتقاد والهجوم . والآن تطلب مني أن أخاف أنا بدوري أن أنتقد الملحدين باسمها، لأنهم الأغلبية أيضًا؟

- إذن، الشخصية التي تحدثتِ عنها في الكتاب حقيقية؟

- نعم، حقيقية جدًّا.

- هل هي شخص أثر فيك، فاستخدمتِها في خلق رواية من وحي خيالك، أم أنك اقتبستِ حياتها ومذكراتها كما هي؟

- الخيال والواقع أمران يشتبهان عليَّ بشدة، عندما يتعلق الأمر بتلك المرأة.

- هل يمكنك ذكر هويتها إذن؟

- إنها أمي. سكتت لوهلة قصيرة، وهي تتابع نظرات الحضور، ثم استطردت حديثها، دون أن يقاطعها أحد، قائلة:

- تعتقدون أنني قد وضعت اسمي مجازفة، على كتاب يحتوي أفكارًا وفي مجال لا يلائم وضعي الذي حاربت للوصول إليه . لكن الحقيقة أنه كل ما أنا عليه، ويجاوب عن سؤال أكثر أهمية

من كل ما فيه، وهو لماذا أنا الآن في موضعي هذا؟! أعلم أن أغلب الأسر الأمريكية والأوروبية الآن، تربي أبناءها على حقيقة مطلقة، أنه لا يوجد إله لهذا الكون، ولأنني أرى كم أن هذا الواقع يتشارك أو يشبه تمامًا الواقع الذي نشأت فيه أمي، وهو عدم الاكتراث للتاريخ ووضع كتب الذين يمتلكون أسئلة لا يمكن للعلم وحده أن يجاوب عليها، على أرفف مليئة بالأتربة، يجب مواجهته، ولربما يتأثر بها في جيل جديد شخصان فقط . ولكن هذا سيكون كافيًا لخلق مستقبل أكثر ثقافة، وأقرب لأعمال القلب، الذي هو محبوس الآن في زنازين عليها حراسة مشددة. ربما أعلن الآن، أنني لست راضية بشكل كامل عن هذا المجتمع المادي الذي نعيش فيه، لست راضية عن الأطفال الذين يكبرون ليجحدوا فطرتهم ويجحدوا آباءهم، ولا يفهمون سوى صوت النقود في حصالاتهم، و اتباع كل ما هو غريزي حيواني فقط، متناسين أنهم بشر. نحن نعيش حقبة لم يتوقعها أحد من المتنبئين، ولم يعرف عنها من نادوا بحرية العقل المطبقة، فأنشأوا أجيالًا تجهل كيف يعمل العقل البشري أصلًا، بحجة إعمال العقل، وما هم إلا تابعون لما يتلقونه في صغرهم، مثلهم تمامًا مثل المؤمنين الذين عانوا كثيرًا من الاستهزاء لنفس السبب.

ربما يعارضني الأغلبية، فليكن. أنا فعلت ما هو واجب عليَّ، ولا أرى أن منهجي الإصلاحي، لنشأة أطفال أصحاء نفسيًّا، سينجح إذا كان أساس حياتهم هو السمع والطاعة لأي فكرة بلهاء يحقنونهم بها في المجتمع الذي لا رادع له سوى القانون الصارم. وكأن الإنسان لا يمكن أن يكون رقيب ومصلح نفسه . عندما نفتقد كل هذا، لن ينجح أي منهج في المدارس والجامعات، وستتخلص من مشاكل ونخلق أخرى كثيرة، فالتبعية واحدة، والجهل واحد، والبعد عن التفكير الفلسفي في أي مجتمع ينهيه من جذوره، سواء أكان متدينًا أو ملحدًا!

قام أحدهم وسألها:

- إذن، أنتِ مع تعليم التفكير الفلسفي في المدارس؟

- لطالما ناديت بعدم تلقين الأطفال، وتعليمهم أهمية استخراج النتائج على أسئلتهم الشخصية بأنفسهم . لكن أنا لست فيلسوفة، فهي ملكة لا تتنمّىٰ في أحد، بل عرَض يولد به الشخص، ويعي اختلافه عن كل من حوله من سن صغير، ثم يمضي في الحياة يعاني من اختلافه هذا. وأنا ممتنة لأنني لم أولد كذلك، وأنني ولدت لأحدهم، لكي أصبح على ما أنا عليه اليوم، بدون شقاء نفسي وعقلي واجتماعي. أتمنى أن تصبح ابنتي مثلي يومًا ما!

قالت تلك الكلمات الأخيرة، وهي تشير إلى ابنتها "إيما "، ذات الثمانية عشر عاماً، والجالسة بين الحضور، فقالت إيما بصوت عالٍ ومرح كعادتها:

- لكنك تعرفين أنني أحب الرقص، ولا أهتم للعلوم أو الفلسفة!

فضحكت حياة بصوت عالٍ، ثم بدأ الصحفيون بالتقاط الصور لها ولابنتها في هذا المشهد، ليتكلم عن الحدث في اليوم التالي، الإعلام الأمريكي، وأهمّه الإلكتروني، بعد وضع لمساتهم وآرائهم الشخصية في ذات حياة وحياتها . ولأنها شخصية مرموقة ومعروفة مسبقاً، وضع كتابها هذا على أرفف الأكثر مبيعاً. وفي أولى الصفحات الإلكترونية المخصصة لبيع الكتب على الإنترنت، فما أن عرف العالم أنها لم تكتب سوى مذكراتها، ذاع صيته؛ لأن الناس بطبعهم يعشقون التدخل في حياة الآخرين الشخصية، ليتمكنوا من معرفتهم أكثر، ورؤيتهم من زاوية مختلفة عن التي تبث لهم في الشاشات عمداً.

وصلت إيما وحياة إلى بيتهما بعد انتهاء اليوم الطويل . كانت حياة تمسك نسخة واحدة من كتابها بيدها، وفيما هي تضع حقيبتها على الطاولة المرتفعة، بجانب باب المنزل الضخم الذي

يعيشان فيه بمفرديهما؛ بسبب سفر الأب للعمل طوال الوقت، كانت إيما قد بدأت بالصعود على الدَّرج دون التحدث مطلقًا، فنادت عليها حياة:

- تعالي إلى هنا.

- ماذا؟ سألتها إيما وهي تنزل الدرجتين التي صعدتهما لتوها.

- أريدك أنت تنهي قراءة هذا الكتاب الليلة، أرجوك..

- لماذا يا حياة؟ أنا أعرف كل ما جاء به، أكيد!

- لا، أتدّعين أنك تعرفينني عن ظهر قلب؟ فقط أريحيني واقرئيه من أجلي ومن أجل جدتك التي تريد هذا أكثر مني.

- حسنًا. قالتها وهي تمد يدها لتأخذه من يد حياة . صعدتا السلم سويًّا، ثم عندما وصلتا إلى بابي غرفتيهما قالت حياة:

- تصبحين على خير يا حبيبتي. شكرًا لأنك كنت بجانبي طوال اليوم. سأدخل غرفة جدتك لأحكي لها عن يومنا و أقبّلها.

- همم.. تصبحين على خير يا حياة. قالت إيما وهي تتأفف، ثم استطردت قائلة:

- ألقي عليها السلام من أجلي وسأتحدث معها أنا لاحقًا.

- حسنًا يا عزيزتي.

دخلت إيما إلى غرفتها، وهي تعرف تماماً ما سيحدث في الغرفة الثالثة في الدور . جلست على كرسيها المريح، الذي عادة ما تجلس عليه لتستريح، بعد أن أنهكها التعب من كثرة التدرب على روتين رقصة، تعد لها للعرض لاحقًا في مسرح مدرستها. فهي تنوي الالتحاق بمدرسة الرقص، بعد الانتهاء من المدرسة الثانوية، ويجب أن تكون ذات خبرة مسبقة في هذا المجال؛ لتنجح في اختبارات اللحاق بها . أو تجلس على هذا الكرسي لتتحدث على الهاتف مع إحدى صديقاتها قبل نومها مباشرةً. ولكن هذه المرة جلست عليه، لتقرأ مذكرات حياة، التي لا تعطيها ابنتها حق قدرها كما يفعل معظم الناس من الغرباء والعامة، الذين تصادفهم أثناء التنزه والتسوق مع أمها . حتى أن مدرّسين وزملاء إيما دائمًا ما يذكرون أمها العالمة الأمريكية الشهيرة ذات الأصول المصرية العريقة، إلى أن أزعجها في فترة ما من مراهقتها، كونها تبدو للناس كظل لأمها فقط طوال الوقت . ربما لذلك لا تتحدث عنها، ولذلك أيضًا أفقدت نفسها عن عمد، أي اهتمام بالعلوم والثقافة، وأرادت أن تنجح في مجال بعيد كل البعد عن كونها ابنة حياة الرغد، كما لقبت نفسها بعد أن جائت الى أمريكا بفترة بسيطة، و عرفت أن بإمكانها تسجيل أي إسم تريد رسميًا.

فتحت إيما الكتاب، وبدأت بالقراءة، لأنها رغم كل شيء، لا تستطيع كسر وعد أخذته منها حياة، ثم أنها كانت في إجازة الصيف على أي حال، وليس لديها الكثير لتفعل، أو ما تحتاج لأن تنام مبكرًا من أجله.

❁❁

رغد الحياة

Affluence of life

(١)

دخلت على أمي وأبي ذات يوم وهما يتشاجران، كان يحدث ذلك كثيرًا لأن أمي كثيرة التعصب، وأبي لا يمتص غضبها، بل يشعله أكثر. لكن هذه المرة كانت مختلفة تمامًا، فلأول مرة في حياتي رأيتها تبكي في مناقشة حادة معه. لم أستطع إلا أن أسمع جملة واحدة، يقولها أبي بصوت حاد قبل أن يتنبها لوجودي، فعلى غير عادته، رفع صوته قائلًا:

- هي لا تصلّي لأنكِ لا تصلِّين، ليس لأي سبب آخر!

لمحت في عينيها نظرة قد عهدتها من قبل، فعيناها تتحدث لغة كاملة أستطيع فهمها وحدي دون غيري، فقد أرهقت نفسها من البكاء؛ لأنه الملجأ الوحيد الذي تملك، بينما يقف أمامها شخص تعرفه منذ أكثر من سبعة عشر عامًا، ولم يكن يشعرها بالأمان، بل الوحدة . نظرت إليه طويلًا وعيناها الخضراوان المليئتان بماء وردي كانا ينطقان..

" لماذا تضع على عاتقي أنا أعباء كل شيء؟ ألا يكفيني أنني أعاني وقد ابتُليت بما تتهمني به؟ هي لا تصلّي لأنها في الثانية عشرة من عمرها، وأنا لا أريد أن أغصبها على فعل مثل ذلك الأمر وإلا كرهته كما حدث معي. أنت نفسك لم تصلِّ حتى كنت قد وصلت لعامك الخامس والعشرين، أيعني هذا أن أمك السبب في ذلك لأنها لم تكن تصلي حينها؟".

كانت تنظر له نظرات مستضعفة، خائفة، بل بائسة أيضًا، فأنا لم أعهد أمي إلا منتظرة شخصًا استثنائيًّا بمثابة مخلّص كما يسوع، يراها من الداخل، يفهمها عندما تتحدث وعندما تصمت، فقد ملّت من كثرة الكلام طوال حياتها دون أن يسمعها أحد.

نظر أبي خلفه، فوجدني عند عتبة الباب، فسكت عن الكلام وخرج من الغرفة مسرعًا إلى الشرفة كي يدخن سيجارته، التي يهدئ نفسه بها كأنه طفل يهدأ إذا وضع ثدي أمه في فمه، هل هذا ما يجعلها مهمة للغاية؛ إذ تشعر صاحبها بمشاعر طفولته البريئة؟! أخذت بضع خطوات تجاه أمي التي كانت تجلس على السرير، محتضنة ركبتيها كي تشعراها بالأمان على ما يبدو . لم أستطع إلا أن أفكر في كم هي جميلة، وتكون أكثر جمالًا عندما تبكي؛ فيضاف لعينيها رونق، ويزداد لونهما اخضرارًا، وتحمرّ

وجنتاها أكثر، وتتكمش شفتاها، فتصبح أشبه بطفل رضيع في شهره العاشر؛ فتزداد طفولة ملامحها! لا أعلم كيف نظر لهاتين العينين واستطاع أن يبكيهما!

جلست بجانبها في هدوء، فخبأت نفسها في صدري، وكأنها كانت تنتظرني من البداية، ثم بكت بصوت عالٍ، فاحتضنتها أكثر حتى سكت ذلك الصوت. رَفَعت وجهها، ووضَعَت يدها اليمنى على جانب وجهي، ونَظَرت لي بنظرة تتملكها الدفء، أكثر من دفئها المعتاد، وقد عَقَدت حاجبيها بلطف ممزوج بالألم. لم أكن أفهم أي شيء حتى ذلك الحين، ووجدت نفسي أسألها دون تفكير، وعيناها العطوفتان في عينيَّ:

- لماذا لا تصلين يا أمي؟

- لأنني لا أعرف! أجابتني.

- إذن سأعلمك.

فارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيها وقالت بعطف:

- ها عزيزتي قد حان الوقت!

لم أفهم حان وقت أي شيء بالضبط! لكنني فهمت فيما بعد.

دخل أبي من الباب مرتديًا ذلك الوجه الغاضب كذبًا، فلطالما كانت تقول له أمي إنها لا تستطيع إلا أن تضحك عندما يفتعله .

جلس على طرف السرير وقال لي:

- تعرفين كم أحب أمك، أليس كذلك؟

- نعم أعرف.

- لكنها هي لم تعرف أبدًا!

لم أفهم مقصده تمامًا، فهي دائمًا ما كانت تحدّثني عن قصة حبهما، التي لم ترها في أحد من قبل..

تركتهما وحدهما، ولم ألبث كثيرًا، حتى سمعت صوت ضحكاتها التي ملأت روحي بهجة منذ يوم ولادتي، ولم أتعجب لذلك، فهما دائمًا ما يتشاجران بصوت عالٍ جدًّا، ثم يضحكان بصوت أعلى!

كان هذا اليوم بمثابة فَيصل في علاقتي بأمي، لقد تغير كل شيء منذ ذلك اليوم بالتحديد ولا أعرف لماذا!

..

مر شهر ويزيد بعد هذا الموقف. ها قد أتى يوم عيد ميلادي الثالث عشر. فتحت عينيَّ صباحًا، ولمحت على اللوحة المعلقة على حائط غرفة نومي، والتي كانت مخصصة لأن تشرح لي أمي عليها دروسي المدرسية، جملة في آخرها علامة استفهام، لم تكن موجودة مساءً عندما خلدت إلى النوم، على صوتها الجميل، وهي تقصّ عليَّ قصة سيدنا يوسف، بآيات من القرآن بطريقة لم تكن مألوفة في المدرسة ولا القصص المصورة التقليدية. فهي كانت تركز على علاقة النبي بربه، وولعه بحب الله، أكثر من القصة نفسها، ثم تناقشني فيما فهمت وتعلمت مما رَوت.

فركت عينيَّ بيدي كي يزول الضباب من كثرة النوم، ولكنّي لم أستطع قراءة السؤال بعد. فنهضت من على سريري مسرعة نحو الستار الحاجب لأشعة الشمس، رفعته إلى الأعلى ليظهر زجاج نافذتي الشفاف، فأضاءت الغرفة كلها. كم عشقت نور الشمس أكثر من أي نور صنعه الإنسان!

كان السؤال على اللوحة يقول: "لماذا تعتقدين أنك خُلقتِ في هذا العالم؟". خرجت من الغرفة، وتوجهت لغرفة نوم أمي فلم أجدها، ثم فتحت باب غرفة فارغة، جعلتها مخصصة لأدوات الرسم الخاصة بها، فوجدتها تجلس على كرسيها العالي

ووجهها ناحية الشرفة المطلة على الحديقة العامة الضخمة التي أمام مبنى سكننا، ترسم لوحة فنية كما تفعل بين كل حين و آخر لتضعها مثل سابقيها، أسفل الحائط الفارغ موجهة وجهها له، بينما لا يرى أحد سوى لوحة بيضاء فارغة ...

لماذا لم تعتد أن ترينا ما أبدعت يداها ونقشت روحها؟ لماذا لا تفتخر بفنّها كما يفعل أي ذي ملكة؟ لماذا دائماً تفضّل الاختباء و الوحدة؟

كل هذه الأسئلة دارت في مخيلتي، بينما كنت أنظر لظهرها الأبيض الجميل للحظات، وقد رفعت يدها اليمنى فوق اللوحة، قبل أن تلتفت لي على يسارها، فيدور شعرها الذهبي الطويل حول كتفها وينسدل بجانب وجهها. نظرت لي بابتسامة مشرقة و قالت:

- كل عام وأنتِ الشيء الوحيد الذي يضيء كوني، كما تضيء الشموس العوالم كلها. ماذا تتمنين اليوم لأحققه لك؟

فذهبت إليها لأحتضنها وأقبلها ثم قلت:

- أنتِ هديتي، وكل ما أتمنى يا أمي.

ثم استطردت:

- ولكن ما سر هذا السؤال الغريب الذي تركته لي على لوحة الدراسة؟

- ستعرفين عندما تجيبين عليه.

- أنتِ قلت لي من قبل إنني خُلقت كي أضيف شيئًا قيّمًا لهذا العالم، ولكي أساعد الآخرين. وقالوا لي في المدرسة إنني خُلقت كي أعبد الله، وأعمر الأرض، وأكون جزءًا من خطة كونية أكبر منّي. أليست تلك هي الإجابة؟

- بالطبع لا. أنتِ الآن قلتِ لي ما يعتقده الآخرون في سر خلقك. لكن سؤالي هو ماذا تعتقدين أنت؟! إذا كنت تظنين أن الإجابة بسيطة، فذلك خطأ عظيم. إن الإجابات التي تعطىٰ لنا قبل أن نسأل السؤال لأنفسنا، دائمًا ما تكون سهلة ومريحة، ولكن عندما نبدأ نحن بالبحث عن الإجابات، تكون الورطة!

- هل تريديني أن أتورط؟

فضحكت وقبّلت خدّي ثم قالت:

- لا أريد لك إلا أن تحيي . أنتِ كبرتِ بما يكفي لكي تكوني ابنتي.

- ألم أكن ابنتك من قبل؟

- لتكوني خليفتي إذن. أنتِ أخذتِ شكلي وروحي وقلبي دون إذن، الآن سأهديك ما هو أثمن، ولتفعلي به ما تشائين بعد ذلك.

- تقصدين عقلك؟

- جزءٌ منه فقط. فصدقيني، أنا لا أتمنى لك أن تأخذيه كله، عندها ستكون أسوأ هدية على الإطلاق!

- لا أفهم!

- ستفهمين. ولكن الآن كل المطلوب منك، هو أن تأتيني بإجابة على هذا السؤال مكتوبًا في ورقة منمقة . معك أسبوع من الآن.

هل يحتاج حقًّا لكل هذا الوقت؟ سألت نفسي سرًّا، لكنني فضَّلت أن أثق في حكمتها، واكتفيت بإيماء رأسي موافقةً!

مضى يومي بسلاسة كالعادة. ذهبت للاحتفال بعيد مولدي مع أصدقائي، وأمي التي لا تحب أن تتركني أبدًا. على عكس جميع صديقاتي، لم أستنكر يومًا وجودها الدائم معي حيث كنت، فهي كانت بالنسبة لي أألف صحبة وأمتعها، لم تشعرني يومًا بأنها أكبر مني سنًّا، بل كانت صديقتي المقربة والتي أفضّل أن أحكي لها عن كل ما أعاني منه ويشغلني، ودائمًا ما تمدني بالنصائح المفيدة التي تعتبر مثالية نوعًا ما في عالمي هذا، ولكنها أيضًا ما تجعلني مختلفة عن كل من حولي، فصداقتي لها جعلتني أشعر بأن كل من هم في مثل سنّي سطحيون وساذجون للغاية، وصداقتي لهم لمجرد الاستمتاع بالوقت، ولكي لا أكون منبوذة اجتماعيًّا.

فبالرغم من شعوري وسطهم بأنني لست منهم ولا أنتمي إليهم، إلا أنني أيضًا أحب الضحك واللعب، وأن يكون لدّي أصدقاء أساعدهم في أي وقت يريدون. جاء أبي في الساعة الحادية عشرة ليقلنا إلى البيت، كنت أستمتع كثيرًا بمشاهدة يديهما المتشابكتين أمامي من الكرسي الخلفي للسيارة. ألاحظ نظراتهما الرومانسية لبعضهما البعض، وكأنهما ما زالا في طور الحب الأول، الذي يمحو من عيون البشر أي عيب قد يجده في الآخر، ويجعله يستمتع بأقل شيء معه، مثل ملامسة اليد، أو حتى استنشاق رحيق الزفير الذي يخرج منه.

دخلنا البيت، قبّلت كليهما ودخلت فورًا إلى غرفتي . لا يتبقى سوى ست ساعات على موعد استيقاظي للمدرسة . وضعت رأسي على وسادتي وأغمضت عيني. لكنني اليوم، ولأول مرة، لم أستطع النوم!

لماذا خُلقت في هذا العالم، لماذا أنا هنا حقًّا؟ ! ألست مثل مليارات البشر الذين وجدوا صدفة، فقط لأن شخصين مختلفين قد قررا ذلك عوضًا عنّي؟! يا إلهي، هذه أول مرة أفكر بشكل متشائم في أي شيء! فقد علمتني أمي أن أنظر لكل شيء بعين جيدة، وكانت دائمًا تردد لي: "درّبي عقلك أن يرى الجميل في كل قبيح". كانت تشرح لي أنني يجب أن أدرب عقلي لا

عيني، لأن العقل هو ما يستطيع الرؤية وليس العين المخدوعة بصور وهمية يخيلها لها العقل دائماً . فالعقل القبيح سيجعل عين صاحبه لا ترى إلا القبح في كل ما يدور حوله، وفي كل الناس الذين يقابلهم. والعقل الكاذب سيهيئ لصاحبه أن كل ما حوله كاذب، وكل الناس يكذبون عليه أيضًا. أما العقل الطفولي فسيُري صاحبه كل الأشياء ممتعة وشيقة. وأفضل أنواع العقل بالنسبة لها كان العقل الواعي بكل شيء.

العقل الواعي سيجعل صاحبه يرى كل شيء كما هو تماماً، سيجعل الرؤية أكثر وضوحًا، حتى أنه سيرى من الداخل قبل الظاهر، ويجعل صاحبه يعرف نفسه جيداً، فيقي الناس شرور نفسه إن وجدت، لا أن يحاسبهم عليها كما يفعل أغلب البشر . العقل الواعي يعاني كثيراً لأنه نادر، وكل نادر يتألم لكي يستطيع البقاء!

لا أعلم لماذا تفضّل أمي معاناة الاختلاف عن هناء العيش في الوهم! فأنا أرى أن أصحاب العقول غير الواعية يعيشون في ترف ذهني ليس له مثيل، لا يتألمون مثلها، بل ويعتقدون في أنفسهم أعظم مما هم عليه بكثير، ويصدّقون كل ما يريده لهم العالم من حولهم، بدون مواجهة وصراع لاكتشاف الحقائق المخبأة بحرفية متقنة!

سأحاول أن أفكر بوعي مثلها بعيداً عن التفاؤل والتشاؤم .. لماذا أنا هنا؟ ربما لأتّبع ما قُدّر لي من قبل ولادتي. فأعتقد أنه قد قُدّر لي أن أصبح شيئًا عظيمًا في يوم من الأيام . ربما سأكتشف اكتشافًا يساهم في تطوير العلم. أليس هذا ما فعله قبلي الكثير وماتوا وقد حققوا شيئًا قيمًا، ولهذا السبب قد وجدوا على الأرض؟ كل واحد منهم أضاف إضافة صغيرة جدًّا، ثم أتى بعده من أضاف عليها. وهكذا حتى وصلنا للتطور الذي نحن عليه اليوم. فقط يجب عليَّ أن أتبع روحي، فقد قالت لي أمي كثيرًا إن الروح ليست هي ما تجعلنا أحياء بالمعنى الذي يحيا به الحيوان أيضًا، بل هي ما تجعلنا نريد، ونحتاج، ونمضي وراء حلم خاص بنا نحن فقط، حتى نصل لمعرفة الذات، وبها نستطيع أن نرضي روحنا، بأن نملأ السبب الذي جعلها تسكننا نحن دون غيرنا.. إذن، ماذا تحب روحي أنا؟

أستمتع كثيرًا بقراءة كتب علم النفس التي اخترتها في سن السابعة. سألتني أمي حينها عن ما المجال الذي أريد أن أقرأ فيه بعيدًا عن الكتب المدرسية؟ وقد شَرحت لي خمسة مجالات مختلفة بالتفصيل الذي يستوعبه عقلي الصغير . وعندما قالت لي إن علم النفس يجعلنا نفهم الناس من حولنا، وما يكمن بداخلهم دون أن يحكوه لنا، شعرت وكأن هذا المجال

سيعطيني قوة خارقة، كالتي أشاهدها في الأفلام الأمريكية الخيالية التي يحبها أبي كثيرًا و لا تحبها أمي؛ لأنها تقول دائمًا إنها لا تحب ما لا يمكن تحقيقه على أرض الواقع، وأنه مجرد إهدار للوقت ولخلايا المخ أيضًا . فقلت في نفسي إنني إذا تعمقت في مجال كهذا سأكون قد حققت شيئًا خياليًّا في الواقع، وسأستطيع قراءة أفكار من حولي.

وافقت أمي حين اخترت علم النفس، وابتسمت، وقالت لي إنها متحمسة جدًّا لأن أكبر، وكأنها سترى نفسها ثانية. وقالت إنها قد وضعت لي من ضمن الاختيارات، مجال القصص المصورة، وسط التكنولوجيا والعلوم والفلسفة والأديان وعلم النفس، لأنني إذا كنت اخترت القصص، كانت ستعرف أنني لم أولد لأكون أكبر من سنّي، وأن أي محاولة معي ستبوء بالفشل على أية حال. حالما أخبرتها بقراري، ابتاعت لي كتابًا بشرح مبسط للأطفال، ومنذ ذلك الحين وهي تجعلني أختار من بين عناوين الكتب في ذلك المجال واحدًا فواحدًا، وتناقشني في كل منها بعد أن أنهيه. شجعتني دومًا على طرح الكثير من الأسئلة لكي أفهم أكثر . لا أتذكر أنها قالت لي يومًا "لا أعرف" على أي سؤال. اعتقدت دائمًا أنها موسوعة من العلوم والمراجع لا يوجد ما ليس مذكورًا فيها. وعندما سألتها يومًا عن اسم عالم

لأنني أردت أن أعرف أكثر عن حياته، وكانت هي لم تسمع به من قبل، فقالت لي:

"لماذا لا تبحثين عنه بواسطة الإنترنت ثم تحدثيني عنه وعن حياته المشوقة!" لا أتذكر أنني قرأت معلومة من قبل ولم تتعلق بذاكرتي كما يتعلق الرضيع بحضن أمه بسبب أسلوبها في تعليمي الأشياء!

عرفت لماذا خُلقت، لكي أكون أمًّا عظيمة مثلها، ولكي أكون عالمة في مجال علم النفس، الذي اختارني قبل أن أختاره، وأضيف له، وأعلمه للآخرين. كما قالت لي أمي دائمًا إن رسولنا قال: "خيركم من تعلم العلم وعلّمه ". الساعة أصبحت الثالثة بعد منتصف الليل، يجب أن أنام الآن وإلا لن أستطيع التركيز في الصف بعد عدة ساعات!

عادت أمي ككل يوم لتأخذني من المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي بسيارتها، فودّعت أصدقائي وذهبت إليها لأجلس في الكرسي المجاور لها. قبلتني وسألتني عن يومي كالمعتاد:

- ماذا درستِ اليوم؟

- لا شيء مهم، أنت تعرفين، ولكنني عرفت إجابة سؤال عيد ميلادي.

ثم حدثتها عما توصلت له بالأمس، وظلت صامتة تنصت لي جيداً حتى وصلنا إلى شارع منزلنا.

أوقفت السيارة في الاتجاه الآخر لمبنانا، أمام الحديقة العامة، ولم يكن هذا من المعتاد، فهي تملك مكاناً مخصصاً لسيارتها أسفل البناية. ثم قالت لي:

- هيا انزلي.

- ولكن لماذا هنا؟

- ستعرفين.

أدخلتنا إلى الحديقة العامة المكتظة بالأشجار الضخمة . أخذنا في المشي قليلًا، ثم توقفت عند أكبر شجرة في الحديقة، والتي معروف عنها أن عمرها أكثر من مئتي سنة، ثم قالت:

- هل فكرتِ قبل ذلك عما هو الفرق بينك وبين تلك الشجرة؟

- أنا إنسان بينما هي نبات!! جاوبتها بسرعة. فردت عليَّ بصوت هادئ وهي تنظر إلى الشجرة كأنها تحدثها، وخائفة من أن يلاحظ الغرباء ذلك.

- كلاكما موجدتان في نفس المكان، تتشاركان اللحظة وتحييان بأنفاس بعضكما. ما هو الفرق بينك وبينها إذن؟ ثم أكملت كلامها قائلة:

- انظري لها بعمق وعين مختلفة، اسرحي في تجاعيدها وتركيبتها، تخيلي معي نشأتها ونهايتها، ثم اسألي: لماذا أنا من يستطيع فعل ذلك وهي لا؟ لماذا أنا من يملك حرية الحركة، الاختيار، التفكير، بينما هي ثابتة لن تعترض، حتى إن قررت أنت الآن تقطيعها واستخدامها في أي شيء تريدين؟ أنت حدثتني عن روحك بينما كنا في طريقنا إلى هنا، إذن، ما هي الروح؟ هل موجودة بالفعل؟ هل فكرت قبل ذلك لماذا تتحركين وهناك ما هو حي مثلك ولكن لا يستطيع؟ ماذا يحدث عند الموت يجعلنا جماداً كما طاولة بلاستيكية مهترئة؟ يعتقد العلماء أنه لا وجود للروح أبداً، إنما هي خلايا دماغ الإنسان، عندما تتلف أو تتوقف، لا يعد هنالك ذلك الجهاز الذي كان يتحكم بالجسد، فيموت ويتحلل ككل العناصر الطبيعية. وهنالك كان فيلسوف اسمه أفلاطون، في زمن قديم، اقترح أن الروح ليست سوى عدة ذرات، عند الموت تخرج من الجسد وتنتشر، ثم تكون روحاً لشخص آخر، حيث إنها طاقة لا تفنى مثل الجسد. ولا زال هناك الكثير من البشر حتى الآن يؤمنون بإعادة الروح بعد الموت في جسد آخر !! بينما يعتقد المؤمنون أن الروح هي كلمة الله في الإنسان، وأنها نفخة من روحه هو، جعل بها الإنسان أفضل من جميع خلقه، وعند الموت تعود له

الروح لينعمها أو يعذبها، حتى قيامة الجسد مرة أخرى.. ما هو ذلك الفرق بين النبات والإنسان والحيوان والجماد، وما هي الروح والعقل البشري؟

حولت نظري عن وجهها ونظرت مثلها للشجرة طويلًا، ثم قلت لها:

- الجماد شيء موجود، لا يشعر ولا يفكر ولا نعمل حسابًا لاستخدامه بأي شكل من الأشكال، مثل الصخر، والماء والنار، والتلفاز. أما النبات فهو عبارة عن جماد حي، يتنفس ويشعر، ولكن بدون وعي أو إدراك أو مشاعر حقيقية وعلاقات . أما الحيوان فهو حي مدرك، والإنسان حي مدرك عاقل، والفرق بين آخر اثنين ليس كبيرًا، فقد سمعت معلمي يقول ذات مرة : إن الإنسان، ليس سوى حيوان ناطق!

فقالت لي:

- آه، ربما يكون حيوانًا ناطقًا، عندما نعتقد تمامًا في صحة نظرية مثل نظرية التطور بشكل قطعي وليس نسبيًّا!

- لأننا نكون قرودًا حينها؟

- هههه، لا يا عزيزتي، تلك النظرية لا تقول بأننا قرود . بل إن بيننا وبين القرود سلفًا مشتركًا، عبر ملايين السنين أدى لتطورنا بهذا الشكل وبتطورها إلى شكل آخر.

- ولكن بينما تطورت كل الحيوانات والطيور من أشكال لأخرى، هل استطاعت فعليًّا أن تتحول إلى جنس مختلف تمامًا؟

- لا يا عزيزتي، بل تطورت في عدة أشكال لنفس نوعها، لكي تتأقلم مع الحياة في عصور مختلفة، لما تأتي به من تحديات جديدة لهذه الكائنات للبقاء على قيد الحياة.

- ولكننا نحن الجنس الوحيد الذي يمتلك عقلًا يستطيع به أن يفكر ويبحث ويخترع ويتأمل ويطور ويلائم الحياة لطبيعته وليس العكس، فكيف حدث هذا إذن؟

- أنت الآن قد وضعتِ يدك على سبب مجيئي بك إلى هنا ! إذن الفرق بينك وبين تلك الشجرة هو أنك كائن عاقل، أليس كذلك؟

- بالطبع.

- والفرق بينك وبين القرود أيضًا؟

- أكيد.

- ولكن أتظنين أنها جميعًا مثلنا تمتلك روحًا لتتنفس وتصبح أحياء؟

سكت طويلًا في هذا السؤال، ولم تتعجلني أمي لكي أعطيها إجابتي كما يفعلون معنا في الصف، ثم قلت:

- إذا كانت الروح هي بوصفي لك في السيارة، فلا، هي لا تمتلك أرواحًا مثلنا. وإذا كانت بالتعريف التقليدي لدى العوام،

فالبطبع لابد لها من روح خاصة بكيانها كي تتحرك، بالنسبة للحيوانات وتتنفس وتشعر بالنسبة للنباتات.

- ولكن إن كانت الروح بتعريفك أنت أيضًا صحيحًا، فلماذا نجد كثيرًا من البشر يفتقدون لهذا النوع الخاص الذي يميزهم؟ لماذا يعيشون للمأكل والمشرب والتناسل دون أحلام واضحة، أو أهداف يعتقدون أنهم سيموتون إن لم يحققوها لأن من أجلها فقط قد خلقوا؟ ما الذي يفرق بين شخص خُلق ليسأل عن كل شيء حوله، وشخص آخر يتلقى الإجابات من يوم ولادته، ولا يجرؤ على مجرد التفكير فيما إذا كانت صحيحة حتى؟ ولماذا تجدين في تاريخ البشر الأزلي، أن الأغلبية تكون من هذا النوع الأخير، بينما المنبوذون فقط أو كبار العلماء الاستثنائيون فقط، هم مِن النوع الأول؟

- منذ جئنا إلى هنا سألتني أكثر من عشرين سؤالًا . ستعطيني وقتًا للتفكير بهم، أليس كذلك؟

- أنتِ لا يلزمك سوى الوقت للتفكير لتتعلمي، وليس إيجاد إجابات صارمة لهم...

- إذن، سأفكر.

- ولهذا فقط خُلق الانسان إنسانًا يا صغيرتي...

الشيء الذي دعاني للتعجب فيما بعد، أنها لم تتحدث معي عما دار بيننا مرة أخرى، ولم تسألني عن إجابة، تلك الإجابة التي استغرقت عمري كله لإيجادها واستسلمت لأنني لن أستطيع أبدًا!!

في يوم من أيام الدراسة، قرر أستاذ اللغة العربية السلفي، على غير عادته، أن يحدثنا عن الدين. بدأ بالتحدث عن أهمية الحجاب للبنات، وغض البصر للصبية، وأن هذا العالم مليء بالفتن، وأولها الجنسية، ثم تندرج تحتها الكثير، ومنها الفن، مثل الرسم والغناء والرقص والتمثيل. فعلى حد قوله، كلها أشياء تبث الفجور في النفوس، وتضعفها، وتقربها أكثر إلى الشيطان، ثم سألنا:

-هل من أحد هنا يهتم بأي شيء من أنواع الفنون الكافرة تلك؟

لم يجب أحد، رغم أن هناك في الصف من زملائي من يغنون ويعزفون، وهو يعرف ذلك؛ لأنهم يخرجون مواهبهم تلك في الحفلات المدرسية. ثم إن صديقتي التي تجلس بجانبي ترقص الباليه في دار الأوبرا، وأنا أتعلم العزف على آلة البيانو منذ نعومة أظافري، والذي يجلس خلفي يرسم بالفحم. لماذا خاف الجميع أن يجيب عن سؤال أبله، هو يعرف جيدًا إجابته...

- من يحب الغناء يستطيع أن ينشد أناشيد بدون موسيقى. ومن أراد العزف فعليه بالدف، ولكن الرسم والنحت والرقص، غير مقبولين أبدًا في ديننا. قال ذلك واعيًا لمن يوجه تلك الكلمات تحديدا.

لم أفهم معنى لأي شيء قد قال، وأنا لم أستطع يومًا أن أصدق أي شيء لا أفهمه جيدًا ! وقفت فجأة مقاطعة حديثه وقلت له:

- أنا أحب الفنون، وقد علمتني أمي أن أتواصل مع روحي الفنية، لكي أستطيع النجاة والعيش كبشر حر، ليس تابعًا أو مستعبدًا!

- هل أمك مسلمة؟ سألني بعد أن سكت فترة، وعيناه متيقظتان بشكل عنيف..

- لا أعرف!

- كيف لا تعرفين أمرًا كهذا؟!

- هي لا تقول إنها كذلك ولا تنكره أيضًا!

- لا أفهم! ولكن يبدو أنها في طريق مظلم مليء بالضلال، ويجب أن نساعدها كي تعود للحق قبل فوات الأوان!

- كيف ذلك؟

- ألا تعرفين أن عند الموت تتعذب بأعمالنا في القبر، وعند البعث نذهب حسب أعمالنا إلى النار أو الجنة إلى الأبد؟ هل ستتحمل أمك عذابًا كهذا؟ هل تستطيعين أن تريها أنتِ وهي في تلك الحالة دون أن تتعذبي وأنت في الجنة؟

- إذا كنت أنا ابنتها لن أستطيع أن أراها تتعذب، فكيف سيستطيع خالقها ذلك؟ أليس هو من أعطاني كل هذا الحب والعطف؟ بالتأكيد، ومن البديهي هو يملك منه أكثر بكثير!!

- ولكنه أيضًا شديد العذاب!!

- لمن؟

- لمن يكفر به!

- ولكن أنا لم أقل إنها كافرة، بل ربما هي تحب الله أكثر منك!

- لا يشم رائحة الجنة من ليس مسلمًا!!

سكتُّ مذهولة من الرد وأنا أنظر خلفي! كان في آخر الصف زميلنا مراد عادل ناجي، المسيحي، الذي يأتي من أسرة علمانية، حيث لا يفضّلون كثيرًا لبس الصلبان، والدق، وحتى لا يذهبون إلى الكنيسة، إلا في المناسبات فقط . لكنهم مؤمنون جدًّا، رغم ذلك، لم يخرجهم أحد من الدين؛ لأنهم لا يتظاهرون بظواهره المعتادة، بل يأخذون لبَّه على محمل الجد، فيما بينهم وبين خالقهم . لم يكن يعرف أستاذ عبد الرحمن أن مراد

مسيحي؛ لأن هذا الاسم شائع في جيلي في كلا الديانتين .
نظرنا جميعًا إليه عندما نطق المدرس آخر جملة، فوجدناه مبتسمًا وكأنه سمع نكتة، وليس إهانة. فأحس الأستاذ بالتوتر الذي عمَّ الصف.

- هل يوجد مسيحي هنا؟ سأل الأستاذ.

- أنا... رد مراد و هو يرفع يده اليسرى وينزل رقبته قليلًا نحو الأرض، ولا تزال الابتسامة على وجهه، ثم أكمل قبل أن يتيح فرصة للمدرس ليشرح نفسه قائلًا:

- أعرف بماذا تعتقدون، فقد كنت أواسي أمي من فترة عندما قالت لها صديقتها المسلمة بعفوية كم هي شخص جيد، ولكن للأسف، رغم ذلك ستدخل جهنم ! لا بأس بذلك، نحن أيضًا متأكدون من أنكم في النار لا محالة، بينما نحن، ستخلد أرواحنا بجانب الرب يسوع إلى الأبد!

لم أفهم كيف رد بكل تلك الجرأة، على شخص سيمات البأس في وجهه. ولكن ما لم أستطع التوقف عن التفكير فيه حقًّا، هو لماذا يعتقد المسلمون أنهم وحدهم أحباء الله والخالدون في جنات ونعيم، ويعتقد المسيحيون أنهم وحدهم أبناء الله والمخلدون في الملكوت، ويعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار

والمصطفى إلى الأبد عن العالمين!!! كيف أتأكد بنفسي من منهم على حق ومن على باطل؟!

خرجت من المدرسة بحماسة شديدة كي أحدّثها عما حدث في يومي، ولم أستطع التفكير في أي شيء، ولا الاكتراث بجوعي المعتاد عند العودة من المدرسة مباشرة ولا في واجباتي الكثيرة التي عليَّ تسليمها صباح غد ... ركبت السيارة بجانبها، فسألتني كعادتها:

- كيف كان يومك يا عزيزتي؟

- حدث شيء مهم أريد وقتاً للحديث معك فيه باستفاضة!

- ألا يستطيع التأجيل؟ فنحن يجب أن نذهب الآن إلى بيت جدتك لأنهم جائعون وينتظروننا!

- إذن سنتحدث إلى أن نصل..

- ماذا حدث؟ لا تقلقيني!

شرحت لها كل ما حدث بالتفصيل، ووجدت ملامحها ثابتة لا تتغير ولا تستاء من كلام أستاذي عنها. وكان ردها على أسئلتي أسرع مما توقعت بكثير وكأنها لم تحتج لحظة للتفكير!

- إن الإنسان خُلق بوعي مبدع لكي يستمتع به، بينما يجد أستاذك أن ذروة اللذة تكون في الجنس، أجدها أنا على الورق في رسمي، وفي صوتي بغنائي، وأنا أعد الطعام . ربما سأل

الصحابة الرسول عن الجنس في الجنة، لأن تلك هي لذتهم الدنيوية، أما أنا فلن أنتظر الجنة كي أستمتع بما آتاني الله، فيبدو هناك أن الإبداع الذهني للإنسان سيتوقف تماماً...

- لماذا إذن؟

- الإبداع كفر لأن أصله بدعة. عظماء الأدب والفن لم يكونوا متدينين، فهما أمران لا يجتمعان . ربما يتعبدون بطريقتهم، ولكن ليس كالجميع. فلكي يكون المرء متدينًا، أول ما عليه فعله هو إغلاق مواطن الإبداع لديه؛ تجنبًا للتفكير أو خلق شيء محرم؛ لأن مهمة الخلق حصرية لله فقط. وكأن الله لم يبدع بما يكفي بخلق الإنسان وخلق عقله، كي يترك هذا العقل يبدع أكثر وأكثر، تحت رعاية الخالق الأعظم.. يُعد من يترك تلك الملكة على سجيتها ليبدع فيصنع من حواسه كل ما في طبقات عقله العليا والسفلى دون حدود ولا موانع نفسية وعقلية، كافراً بالنسبة للمجتمع في الغالب، فقط لأنه مبدع، وكل البدع ضلالة، وكل ضلالة في النار!

- لكن لا يمكن لذلك أن يكون قاعدة. قد كان لي في الصف الابتدائي مدرس رسم سنّي المظهر والحديث ولم يكفّر الإبداع!

- أنتِ درستِ علم النفس والعقل الباطن بما يكفي، لتستوعبي الفرق بين التقليد والإبداع الحقيقي. هنالك شيئان لا يجتمعان

أبدًا، الاتِّباع والإبداع... ربما يستطيعون الجلوس أمام لوحة ما وتقليدها بشكل مبهر، لأنهم يعرفون اللعب بالخطوط، لكنهم لا يقدرون أبدًا على خلق البذرة الأولى لفكرة لوحة عميقة وعبقرية . فببساطة هم أغلقوا هذا الجزء من الدماغ، إما باختيارهم، أو منذ الطفولة، أو لم يولدوا به أصلًا. العقل يملك القدرة على إعطاء اللذة، وهو ما يختار أين يكون الإنسان من مراحل النمو. فبينما يقف البعض عند اللذة الحسية في المأكل والمشرب والجنس، يجد من هم مثلي لذتهم في فنهم . تمامًا كما يعتقد البعض أن الشرف يكمن في أعضائهم التناسلة، بينما نجد من هم يؤكّدون على أن شرفهم في طريقة تفكيرهم وأخلاقهم ومعاملتهم للآخرين، والطريقان لا يمكنك أن تلقاهما في مفترق طرق واحد، فببساطة، عندما يسمع الأول كلام الثاني لا يملك إلا أن يتهمه بالعهر!

- ولكن كيف يكون الإبداع ملكًا لصاحبه فقط؟ ألا تنتهي الأفكار من العالم أبدًا؟

- الأفكار كلها تسبح في سماء واحدة منذ نشأة الخليقة، فكل ما أفكر به وأعلّمه لك، من المؤكد أنه قد وصل إليه قبلي الكثير، حتى وإن كنت أجهلهم. كذلك كل فكرة بداخل لوحة واحدة، هي موجودة أيضًا في آلاف اللوحات، ولكن الفرق هو أن تتبع

طريقة التعبير عن تلك الفكرة من نفس الفنان وروحه هو، فتخرج بشكل مختلف عن التي سبقتها أو التي تليها، لتحمل معها طابعه الخاص، وبهذا تكون استثنائية، يكفي فقط أن يكون إلهامه الوحيد هو العالم والنفس البشرية وليس لوحة شخص آخر!

- هل ستسمحين لي يومًا برؤية ما بداخل لوحاتك؟

- بل سأسمح لكِ برؤية ما بداخلي أيضًا يا ملاكي!

- متى؟

- عندما نعود، قبل نومك، سأريك لوحاتي، وعند بلوغك السادسة عشرة سأريكِ نفسي!

- سأنتظر بكل صبر وحماس!

- هل ستفعلين أي ردة فعل تجاه أستاذ عبد الرحمن؟ سألتها.

- لا أعرف بعد، ولكنني أعرف أنه يصعب عليَّ تجاهل الوقاحة إن كانت إزائي أو إزاء صديقك مراد!

- أردت أن أسأل فعلًا، من منهم كان على حق بوصف الآخر بصاحب النار؟

- أهذا سؤال أم تساؤل؟

- وما الفرق؟

- الفرق بين أن يتساءل المرء وأن يسأل، هو أنه عندما يتساءل يكون البحث عن الإجابة دائمًا ومستمرًّا، ولا يأخذ ممن حوله إلا آراء يعتقد في احتمالية صدقها وكذبها في آن واحد، لكي يكوّن فكرة أوسع عما يحيره، ثم يفكر في كل ما أوتي حتى يأخذ من هنا وهناك ليخرج بإجابة عاقلة مرضية نسبيًّا لحجم تساؤله. وأما أن يسأل، فهو يتجه مباشرة لمن يعتقد أنه يملك الإجابة الحقيقية، ويأخذها منه، ثم يغلق تمامًا هذا الباب إلى الأبد. فمثلًا عندما يملك شخص فطري، غير متعلم، سؤالًا في دينه عن مدى حرمة شيء ما من عدمه، فيذهب مباشرة للمسجد الصغير الموجود في زاوية شارع بيته، ليسأل الإمام، دون تردد الإجابة ستكون قطعية لا جدال فيها. أما أن يتساءل فهو ألا يثق سوى بقواه العقلية وحدها ليجد إجابته الخاصة . فيجب أن تقرري إن كنتِ تريدين أن تسألي في هذا، فتتجهين إلى من تثقين في أنه يحمل الإجابة مطلقة الدقة والصحة، وتأخذين بها، أم أنك تريدين أن تتساءلي فتعملي عقلك وقلبك معًا، مع تأمل كل ما حولك بمن فيه، لكي تجدي الإجابة التي ترضاها نفسك أنت!

- أعتقد أنني في هذا الأمر لا يمكنني إلا أن أتساءل، أليس كذلك؟

- تعلّمي ألا تحتاجي لأن تسأليني عما إذا كنتِ تحتاجين إلى التفكير أم لا، فهو أمر لا يحدده إلا إياك!

- ولكنني أريد أن أستمع إلى ما تعتقدينه أنتِ، ثم سأفعل أنا ما يريد عقلي أن يفعل..

سكتت لوهلة وهي تنظر في المرآة الجانبية للسيارة، لكي تستطيع ضبط زواياها بين سيارتين من أمامها ومن خلفها، دون أن تلمس أي منها وتوازي سيارتها برصيف منزل جدتي . وبينما هي منهكة في النظر إلى اليمين والخلف، أخذت تقول بصوت منخفض وكأنها تحدث نفسها ليلًا بجانب شخص نائم:

- قد ذهبت إلى النار أتفقدها لعلها تكون لي سكنًا ذات يوم . ظننتني سأجد أشر الناس وأظلمهم، لكنني وجدتها مليئة بأمثالي، ممن تراقصوا عقودًا على سلالم ليس لها نهاية، ولم يقدروا على تحديد في أي اتجاه يريدون أن يسيروا . فإن صعدوا حتمًا سيفقدون توازنهم ويسقطون من القمة، وإن نزلوا سيجدون زحامًا يخنقهم حتى الموت . ثم إن الطريقين طويلان، ولا نعرف في أي اتجاه نضيع العمر! وإن كنت في كلا الحالين ميتة، فلمَ لا أقضي ما تبقى لي في الرقص على تلك الخطوات، أمام من يصعد وينزل، حتى أسلّي رحلتهم الطويلة!..

أنا لا شيء، ولكني لم أتوقع أن أجد كل هذا العدد من اللا

شيء في مكان واحد . جمعتهم جهنم ولن يفرقهم شيء بعدها أبدًا، ولكنني لم أشعر بأنني منهم... فزرت الجنة، حتى أعلم كيف ستكون حياتي بعد خلاص تلك التي أنا محبوسة فيها، وتوقعت أن أجد هناك كل المصلّين الغارقين في الأعمال الدينية، من مأكل ومشرب وملبس وسمع وقراءة فلم أجدهم، وجدت نوعين، من أحبوه بصدق دون شروط بعد أن اجتهدوا في إيجاده، ومن كانوا على الفطرة لا يفقهون شيئًا ولكنهم لم يؤذوا أحدًا أبدًا...

- ذهبتِ إلى الجنة والنار؟! أصبحتُ أشعر مؤخرًا أنك على شفى السقوط في حفرة صُنعت خصيصًا للمجانين!

- انزلي الآن. قالت وهي تضحك على ما قلت لتوِّي، دون أي انزعاج وكأنها توافقني الرأي!

عند عودتنا إلى منزلنا مباشرة، اتجهت بي إلى غرفة الرسم الخاصة بها. دون أن تقول أي شيء. فتحت الباب، ووقفت جانبًا حتى أسبقها الى الدخول. فتحت يدها، وأشارت إلى الحائط الذي ينام عليه سحرها بالمقلوب. فدخلت، وأخذت لوحة منها بشكل عشوائي، ووضعتها على الحامل الخاص بها لأراها. كم كانت مبدعة، تخطف الروح ! كانت مزيجًا من الألوان الأحمر والأزرق والأبيض فقط، ورأيت ثمة صراع بين الأرض الترابية

والسماء، وشخصًا غير واضح يتعلق فيما بينهما. شعرت بقوتين هائلتين تحاولان جذبه إليهما دون أي قدرة منه على المقاومة .

لم أستطع تحمل مشاهدتها كثيرًا؛ لأنها جعلتني أشعر وكأنني مكبلة بقيود تخنق روحي، رغم ألوانها التي تبعث احتياج الحرية بشكل مبالغ فيه!

نظرت إليها بينما أغوص بأفكاري، فلاحت لي أن أختار أخرى . فوجدتها لمنظر طبيعي بداخل غابة، ولكن الألوان بها ممتزجة بعضها ببعض، وليس لأي شيء وضوح كامل، سوى عين البومة التي تجلس فوق غصن شجرة بعيدة، ولكنها وكأنها حية تراقبني بحدة، تثير الرغبة في الخوف بداخلي، رغم شدة جمالها ووضوحها، كأنها قد صوّرت بعدسات فائقة الجودة. لم أفهم لماذا كل شيء حولها عشوائي ومبعثر، بينما هي فقط في غاية الدقة و الجمال!

وبينما كنت أنظر إليها، كانت هي قد قلبت جميع اللوحات على وجهها الآخر المفعم بالحياة . تأملتها جميعًا بنظرة واحدة سريعة، وجسدي يلتف معها حول الثلاث حوائط المسندة إليها .

رأيت عالمًا آخر لم أذهب إليه من قبل، ولم أتخيل أنه يسكن الناحية الأخرى من حائط غرفة نومي التافهة السطحية...

- لوحاتك إذا خرجت إلى العالم ستغيره! قلت لها دون تردد..

- هذه نظرة جيدة، ولكن دعيني أسألك...

إذا كان هناك شخصان الآن يتنازعان حول طفليهما في خضم إجراءات الطلاق، وطفلاهما يبكيان دمًا لئلا يفقد أحدهما أبويهما وهما على قيد الحياة لأنهما بحاجة ماسة لهما، ولكنهما لا يسمعان صرخاتهما؛ لأن صوت الكره دائمًا أعلى من صوت الحب، بينما في نفس الوقت قد تم نشر رسم كاريكاتوري يوضح مدى التأثير النفسي على الطفل، وكيف يتمزق بينهما . وكان مطلب راسمها هو أن من المفترض ألا تكون كلمة عداء وكلمة حرب مرادفتين لكلمة طلاق، فهل سيغير هذا أي شيء في هذا المشهد المؤلم السابق؟ هل عندما ينظر إلى ذلك الرسم شخص في بيته، ثم بعد شهر من رؤية الرسم أراد تطليق زوجته وأخذ أطفاله، هل سيتذكره أم سيسير وفق المسلمات التي تشبعها منذ صغره؟

- بالتأكيد لن يتأثر، ولن يتذكر الرسم أصلًا! جاوبتها.

- الآن نحن على الحدود الفاصلة بين الأراضي الفلسطينية والأراضي الإسرائيلية. فوقف بجانبنا شخص يلقي شعرًا عبقريًّا ومؤثرًا، يتحدث فيه عن الإنسانية والحب والسلام . وتجاوز الأرض والخلاف. وتفهّم أن كل البشر واحد. ولا عربي أفضل، ولا يهودي أفضل. بل يجب أن يعيش كلاهما جنبًا إلى جنب .

يلقيان السلام والابتسامة على بعضهما البعض، وهما يغلقان بابي بيتيهما ليذهبا إلى أعمالهما في الصباح...

- كم يبدو هذا خياليًّا! قلت باندفاع.

- نعم إنه خيالي؛ لأننا جعلناه كذلك . الآن، هل تتخيلين أن الإسرائيلي سيلقي بندقيته ويجري نحو الفلسطيني، الذي بدوره ألقى حجارته ليحتضنه بقوة، ويتأسف منه عن كل ما مضى، ويعرض عليه أن يدخل معه وأسرته إلى داخل الحدود والأسوار العالية، ليعيش معه بسلام ومساواة، أم أنه سيقدم على قتل الشاعر فقط لأنه مزعج، ثم لن يتلقى الفلسطيني جثته ليدفنها، لأنه رأى أنه خائن ولا يملك نخوة العرب المحبة للعداء و الدم؟

- السيناريو الثاني هو الأقرب إلى الواقع! قلت في دهشة.

- لا يغيّر الفن الناس يا صغيرتي. ما يغيّرهم هو تربية سليمة، يتعلم فيها الطفل أن روحًا بداخله هي هو، مثلها مثل كل الأرواح في العالم. لا يميز تلك الروح لون جسد تسكنه، أو عرق أو دين أو حساب بنكي، كل ما يميزها هو معرفتها لقيمة الإنسان والسعي وراء تقديم الأفضل لجيل يليها، وفهم الفن القابع بها غصباً، والذي لم تؤته بالصدفة دون جميع الكائنات ،وهو ليس بغريزة حيوانية ليتم تحريمها لأنها تقلل من قيمة

رقي الإنسان، بل هي التي بدونها لا يكون الإنسان مختلفاً كثيراً عن الحيوانات؛ حيث لا يجد لذته إلا في غرائزها ولا يرى أحلامه إلا في نفس الغرائز، ولكن في الآخرة بنظر البعض . أريني شيئًا يقلل من قيمة الإنسان أكثر من إلغاء الفن، والذي بدوره يقوم على إلغاء الروح المخصصة له ليس إلا!

- أريدك أن تأتي معي إلى المدرسة صباح غد، وتقولي هذا للأستاذ عبد الرحمن!

- فقط إذا أقنعتِ مراد أن يأتي بوالدته معه، ربما أستطيع تقليل حدة ما سيحدّثها به، وخاصةً أنها يبدو عليها طيبة القلب، والتأثر السلبي بالأفكار المتعصبة التي ملأتنا جميعًا!

- سأفعل!

دخلت أمي معي إلى المدرسة صباح اليوم التالي، وسألتني عن والدة مراد، إلا أنني جاوبتها بأنه وعدني أن تأتي معه، ولا أعرف لماذا تأخرا . طلبت من عاملة الاستقبال أن تستدعي الأستاذ عبد الرحمن، مدرس اللغة العربية للصف الثاني الإعدادي. انتظرناه سويًّا، حيث طلبت مني ألا أحضر دروس اليوم مع زملائي، وأن أجلس معها. رأيته من بعيد قادمًا علينا، بذقنه المدببة، وشعره المحلوق، وبنطاله القصير. وقف أمامنا، فمدت أمي يدها لتصافحه، ولكنه رفض، بحجة أنه لا يصافح

النساء. ضحكت بصوت عالٍ أثار تعجبه، هي بالتأكيد كانت تعرف أنه سيفعل ذلك.

- ستدخل النار إذا صافحتني، لكنك ستدخل الجنة لتكفير الآخرين بالتأكيد ! قالت بتهكم وسخرية مليئين بالغيظ الذي حاولت إخفاءه.

- إنه ديني يا سيدتي، لست أنا من وضع قوانينه، بل رب العباد من فوق سبع سماوات.

- ألا يمكن أن نجلس في مكانٍ آخر لنتحدث؟ إذا لم أكن سأعطلك عن عملك. قالت هذا ثم استطردت قائلة:

- ستجلس حياة معنا، لكي لا يكون ثالثنا الشيطان بالطبع. فأنا أعرف أن الفتن تحيط بك من كل اتجاه!

نظر إليها بنظرة لم تعجبني . أردت أن أطلب منها أن ترحل، وأعتقد أنه أيضًا أراد ذلك . لكن رغمًا عنه، كان يجب عليه احترام أولياء الأمور؛ لأن الموضوع إذا وصل إلى مديرة المدرسة، لن يكون بشيء جيد له تمامًا ! طلب منّا أن نذهب معه إلى مكتبه، الذي يضم معه مدرسَين اثنين آخرين، كانا قد بدآ يومهما الدراسي، ومنشغلين بالحصة الأولى في جدولهما . جلسنا أمامه، على كرسيين من الجلد الأسود، أمام المكتب الخشبي، بينما جلس هو على كرسيه في الناحية الأخرى منه .

قصّت عليه أمي بعضًا مما دار بيني وبينها بالأمس، كما أردت منها. كان ينصت محدقًا في يديه المتشابكتين على المكتب، الشيء الذي دل على عدم ارتياحه ألبتة للموقف . عندما أنهت حديثها عن الفن والروح، وخلق الله لها كي تميز الإنسان عن كل ما في الكون، سكتت لوهلة، ثم سألته وهي تنظر في عينيَّ أنا مباشرة، وعلى وجهها ابتسامة هادئة خفيفة:

- هل تعتقد أنني سأذهب إلى النار؟

- لا يمكنني أن أقول ذلك، لكنني أردت فقط أن أعلم تلاميذي دينهم الحق. لم أجرم كي تأتي لي بكل هذا الخطاب. قال لها وقد نظر إلى عينيها أخيرًا.

- لكنك قلت لابنتي إنني كافرة. وأن أصدقاءها المسيحيين أيضًا كافرون. أهذا هو الدين الذي يجب أن يتلقوه في هذه السن؟!

- أريد أن أسألك دون أن أبدو وقحًا، هل أنتِ مسلمة؟

فسكتت أمي ولم تجبه حتى استكمل حديثه.

- أرى أنك ترتدين الحجاب. فإذا كانت إجابتك بنعم، فأنتِ لديك طريق طويل من الدراسة والعلم حتى تصبحي مسلمة حقيقية. وإن كانت لا، فأنتِ بالتالي مرتدة عن الدين، وهنا يكون كلام آخر!

- أعرف أن المرتد يجب أن يُقتل. لكنني لا أفهم من هو المرتد. إذ إن كل شخص يعرّف الدين على طريقته الخاصة! فإذا قلت إن المسيحي الطيب سيدخل الجنة، بجانب المسلم الطيب أكون كافرة ويجب قتلي؟ إذن، لماذا الفكر فقط هو ما يقتل ويكفّر؟ لا يستطيع شيخ أن يأمر بقتل عاهرة لأنها تفسد في الأرض، أو أن يقول إنها في النار لا محالة، بل من السهل جدًّا قول إنها لو تابت قبل موتها بلحظات، لتاب الله عليها وأدخلها في رحمته ورضوانه، لكنه يستطيع تكفير عالمة أحياء مسلمة، تناقش مدى صحة نظرية التطور لداروين. ليس من السهل تحريض أحد الشباب المتشدد على قتل مخرجة أفلام سينيمائية تتسم بالجرأة الجنسية، التي لا تلائم مجتمعاتنا، ويهابها أهل الشرق، لكن من السهل جدًّا أن يحرضه على قتل المفكرة التي تدعو لتحرير العقول من استعبادها!

إذن لماذا كل هذا الخوف من العلم والفكر؟ ! لماذا يقرأون آيات التفكر والتدبر ويكفِّرون ويقتلون كل من فعل ذلك، ولماذا تبدو التوبة أسهل للعاهرة بعد أن تسقي كلبًا مشردًا، بينما مستحيلة لمن رفضت أن يصفوها بلفظ ناقصة؟ لأنها وبالرغم من محاولات تفنيد الكلمة لأكثر من معنى ليست كذلك، في أي شكل من أشكال تفاسيرها!

- ما الذي أدخلنا في ناقصات عقلٍ الآن؟ نعم إذا كنتِ مسلمة حقًّا، يجب أن تؤمني بكل ما جاء في دينك، وقراءة جميع كتب الأئمة، لفهم أفضل . فيقول ابن تيميه في كتاب مجموع الفتاوى : "وليعلم أن المؤمن يجب موالاته، حتى إن ظلمك واعتدى عليك .. والكافر يجب معاداته، حتى إن أعطاك وأحسن إليك". بناءًا على قوله تعالى: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ).

- ولكن القرآن يقول: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) ويقول أيضًا : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) والاعتداء هنا يمكن أن نأخذ به بعين الاعتبار الاعتداء الفكري واللفظي. وفيه أيضًا: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) أي أنك باتخاذك آية وترك أخرى، قد تكون من المعذبين !! فالإرهاب مستند تمامًا إلى بعض الكتاب، والصوفية التي هي ليست إلا نشر الحب والرحمة تستند أيضًا

إلى بعض الكتاب، والناس الذين يكفِّرون بعضهم البعض ويكرهون الآخر بعنصرية ودون سبب لاختلاف مذاهبهم المستندة إلى الكتاب، مستندون إلى بعض الكتاب، والناس الذين لا يقولون إلا معروفًا، ولا يرجمون أحدًا، مستندون إلى بعض الكتاب. وفي النهاية كلهم يكفِّرون بعضهم البعض، وإن كان سرًّا، ولكن الكتاب لا يستطيع الإنسان العادي تفسيره كله بموضع كل آية، ولماذا، ولمن أنزلت، وفي أي ظروف، بل فعل ذلك أناس آخرون عوضًا عنا وتفسيراتهم مليئة بما أملته عليهم نفوسهم وثقافتهم ومعرفتهم بالأمور في وقتها..

حتى في أكثر المؤسسات وسطية بيننا، يقولون بأن تارك الصلاة عقابه الموت، والمرتد عقابه الموت، وذلك أيضًا استنادًا إلى الكتاب. قد ولّوا أنفسهم أربابًا، يحاكمون الناس قبل أن يحاكمهم ربهم .. من الطبيعي في زمن كهذا، لا يستطيع الإنسان العادي الذي يفكر بمنطقية ويريد الوصول إلى إجابات، يبدو الوصول إليها مستحيلًا، لأنه لا يملك أحد القدرة على الإجابة عنها، إلا أن يتبع ما يمليه عليه ضميره. بدون مصطلحات ضخمة، أسهل شيء عندنا هو تكفير بعضنا البعض، وكلنا نستند في ذلك إلى نفس الكتاب!!... أنا لم أفعل سوى أنني رأيت الله يريد من الناس أن يفعلوا خيرًا، وأن يقولوا خيرًا فاتبعته، بدلًا

من أن أتبع مذهب تكفير الآخر والاستهانة بآدمية أي شخص لا يتماشى معي فكريًّا .. كيف تعرف بذلك أنك على صواب؟ فالدين إما أن يؤخذ كله أو يترك كله، وأنت بكرهك وتكفيرك تركت جزءًا مهمًّا وكبيرًا في دينك.. والحرام الذي لا تأبه به هو الدين الذي تنتمي إليه، وتتنصل منه في نفس الوقت ! إن كان الكره حرامًا وأنت جعلته فرضًا واجبًا، فستفعل الحرام وتقول هذا ديني، وكذلك تمامًا من حلل لنفسه الخمر .. أي أنك بذلك خرجت عن الدين وانتميت لآخر! فلمَ كل هذا الكره إن كانت الفطرة السليمة للإنسان لا تطلب منه ذلك؟ ! بل إنك بذلك تنافيها تمامًا. يمكنك في أي صلاة جمعة أن تؤمِّنَ وراء شيخ يدعو بدعاء مثل: "اللهم اشفِ كل مرضى المسلمين ..". هل تعتقد حقًّا أن العالم ونظام الكون سيتغير ولا يصبح بين المسلمين مريض لأنهم دعوا هذا الدعاء؟! ثم إن هل أوجاع المسلمين أغلى من أوجاع أي إنسان آخر، بحيث إنه حين يدعون دعاءً كهذا يكون للمسلم فقط، وكأنه إن كانت هناك استجابة فلا يستحقها أي صاحب ديانة أخرى وليذهب إلى الجحيم في الدنيا والآخرة؟!

سكتت طويلًا وانتظرت رده محدقة به، وهي تعلم أنها لن تربح هذا النقاش أبدًا.

- أنتِ جاهلة جدًّا. رد عليها.

فابتسمت وقالت:

- نعم، أنا كذلك، ولكن الفرق بيني وبينك أنني أعترف بذلك! لا يوجد شخص ليس بجاهل على وجه الأرض. ولكن هناك من يعرف ذلك، وهناك من يجهل حتى أنه جاهل! فكيف لمثل هذا الأخير أن يستمع لمن يحدثه قبل أن يهاجم، وكيف لمن هم مثلي، أن يقدروا على تحمل محادثة كهذه؟ ! فقط توقف عن ملء عقول أطفالنا بالكره . فليس لخالق هذا الكون العظيم أن يطلب من أي أحد أن يُكره الناس وينصب نفسه في منزلة أعلى من الجميع، حيث يحتقر كل من ليس في نفس صفه. أنت لا تملك مفاتيح الجنة، ولا تعرف إذا كنت ستشم رائحتها أم لا!

خرجت من المكتب بكل هدوء فتبعتها، ولكنني رأيت في عينيها غضباً تحاول كبته . وضعت يدي على كتفها محاولة تهدئتها فقالت لي:

- خلق الإنسان من روح الله، ليظن أنه إله في ذاته. يحكم على الناس ويحاسبهم، قبل أن يحاسبهم ربهم، يعرف من سيذهب إلى أين بعد إلقائه في القبر مباشرة. تمسكوا بالترهات وتوافه الأمور في الدين، وقررت أنا اتباع دين مختلف تماماً، فيه الله

هو الأول والآخِر. أراه في خلقه، وعبادتي له، وفي تعاملاتي معهم، لن أسمح يوماً لأي أحد، مهما كانت دلائله، أن يحرم عليَّ شيئًا تتقبله إنسانيتي.. اذهبي الآن لتلحقي بدرسك، أقابلك بعد انتهاء يومك.

قبلتني على شفتي وأخذت في الرحيل . لم أملك إلا أن أنظر إليها، حتى تختفي عن أنظاري وعقلي يضج بالأفكار. لماذا لم تحدثني يوماً عن كل هذا، ولماذا جعلتني الآن فجأة جزءاً منه؟ ولم يقطع تفكيري إلا صوت الجرس، الذي يشير إلى انتهاء الحصة الأولى التي لم أحضرها. فذهبت مسرعة لكي ألحق بالتالية، قبل أن تلاحظ مدرسة العلوم الكيميائية، أنني لم أكن موجودة قبل دخولها!

..

ذهبت مع أمي، في ليلة من ليالي الشتاء للتسوق لاحتياجات المنزل. كنت معتادة أن أذهب معها لأبتاع ما يروق لي من مأكل ومشرب. رغم اعتراضها على معظمه، لم تكن ترفض لي طلبًا أبدًا؛ لأنها كانت تعرف أنني سأفعل ما أريد على أي حال، في وجودها أو عدمه. فكانت في كل مناحي الحياة، تفضّل تقديم النصيحة، وتوفير المعلومات حول الضرر الذي سألحقه بنفسي عند فعل الشيء الذي تعترض عليه، ثم تترك لي حرية الاختيار، لتشعرني بالمسؤولية عن أفعالي، التي لن يتألم أو ينعم بتبعاتها إلا أنا . وبينما نحن عائدتان إلى المنزل، وفي منعطف طريق، لفت انتباهي بشدة وجود رجل ينام على الأرض، محتضنًا الرصيف، بحيث إن عجلات السيارة وقدميه، فيما كانت تأخذ ذلك المنعطف، متلاصقتان، وبجانبه ثلاث لعب للأطفال بلاستيكية، لا تتعدى ثمن الواحدة منها الحلوى التي اشتريتها لتوي، وأكلتها قبل أن نصل الى البيت . هل هو منهك لدرجة أن ينام وجسده يقتطع طريق عجلات السيارات، فقط في سبيل بيع تلك القطع، التي بثمنها سيشتري فقط عشاءه لذلك اليوم؟! وبينما أنا أفكر وأنظر له في تعجب، وجدت أمي تقف بجانبه وتنزل من السيارة. ظلت عيناي محدقة بهما ولم أنزل. كنت أتوقع أنها ستوقظه؛ خوفًا عليه من هذا الوضع، الذي

يمكن أن يعرض حياته للخطر إذا أتت عليه سيارة بسرعة وقد أعمت سائقها عتمة ليل الشتاء الحالك . لكنها لم توقظة، بل أخذت إحدى تلك اللعب ووضعت أسفلها نقودًا، ثم أعادتها مكانها، ثم ربتت على رأسه بحنان وكأنها أمه . أتت لتركب السيارة مجددًا، وقبل أن تفعل، كان قد استيقظ. اعتقد أنه قد شعر بيديها. فكيف له أن ينام بعمق وهو محتضن رصيفًا عاليًا كهذا؟! قام بسرعة فائقة، ممسكًا بيده إحدى تلك اللعب . أتى نحونا وعرض عليها أن تبتاعها منه، ولم يسألها عن سبب وجودها بجانبه.

أخذت منه بكل هدوء تلك القطعة، والتي تأكدت، بينما كانت تسأله عن ثمنها، بأنها ليست التي وضعت تحتها المال. فقال لها إن ثمنها مائة جنيه، وعندما حاولت إعطاءه مائتين رفض . قال لها إنه لابد أن تأخذ أخرى، إذا أرادت أن تعطيه ذلك المال . تعجبت منه كثيرًا ولم أفهم. لكنها أخذت منه الباقي؛ خوفًا من أن يذهب إلى اللعبتين الباقيتين ويرفع إحداهما ويجد ما وضعت أثناء نومه. لكي تتجنب وضع نفسها في موقف سخيف جدًّا، ركبت أمي السيارة وتحركنا مجددًا.

- كيف لم تخافي أن يكون مجرمًا أو ما شابه؟ سألتها.

- ماذا تقصدين؟ ممَّ أخاف؟

- ربما أخذ حقيبتك بأكملها وركض. أنت تعرفين أنه لن يساعدك أحدا!

- هل تعتقدين أن حقيبتي ظل بها مال أصلًا لكي يسرقه؟!

ثم إنه إذا كان سارقًا، لما احتاج لتلك القيلولة غير الآدمية من الأساس!

- لا أعرف. ولكنني لن أكون بتلك الجرأة أبدًا لأعرض نفسي لأي موقف يمكن أن يكون خطرًا مع أناس لا أعرفهم.

- ولكنني أعرفه. أتعرفين؟ عندما كنت أصغر سنًّا، سافرت في رحلة إلى السويد، وفيما كانت هذه الدولة تعد من أكثر الدول أمانًا في العالم وأنا من دولة نامية مليئة بالفقر والجرائم، كنت خائفة أن أمشي في الشوارع هناك ليلًا، لأنني لا أعرف الناس هناك. ولكن في بلدي، أنا أعرفهم جيداً، هم مني وأنا منهم، حتى وإن كانوا كادحين. فمن هنا يكون معنى الوطنية، الانتماء لما يشبهك أكثر لأنك تفهمه. فأنا أفضّل التعامل مع مجرمي وطني، على التعرض لمشاهدة مجرمي أوطان أخرى، يتعرضون لشخص آخر، من بعيد!

- هل تعتقدين بأنه ستقوم يوماً، في تلك الدولة ثورة للفقراء، يأكلون فيها الأغنياء، كما يقال تلك الأيام بكثرة في الأخبار؟!

- أنا أسمع تلك الكلمات منذ ثورة ٢٠١١، أي منذ أكثر من سبعة عشر عاماً، ولا يحدث شيء. المصريون شعب صبور إلى حد يثير الدهشة، طيب مهما انحدرت أخلاقه، فبدا عكس ذلك، شعب غير دموي، ومحب. لم يقم من قبل أبدًا بثورات دموية، مهما بلغ الظلم الواقع عليه. مهما عانى من الحكّام . وفكرة ثورة جياع، بالمعنى الفرنسي الأشهر، تبدو بعيدة، بل وخيالية . لن يقوم الفقراء بالانقضاض على الأغنياء وأكلهم بدل الخبز . صبر الشعب المصري كان السبب الرئيسي في نهضة محمد علي. فقد اعتمد على كونهم يعملون بأكبر جهد، وبأقل مقابل، ولا يخرجون للمطالبة بحقوقهم بسهولة . لذلك أساسًا فشلت ثورة ٢٠١١؛ لأن الشباب الواعي أراد حقوق هؤلاء، بينما فضّلوا هم أنفسهم الاستقرار السياسي، وراحة البال على الثورات والمقاومة. وهكذا كان هذا الشعب دائمًا طائعًا راضيًا لأي فصيل يقرر من نفسه أخذ مقاليد الحكم، طالما يغرقهم بالكلام المعسول، في ظل غرق أجسادهم بأكملها في الوحل . هذا الشعب لا يحتاج إلا لشربة علم، علم حقيقي، يبعث فيه الروح من جديد، ويقيمه من مثواه، يحتاج للقراءة والسفر للدراسة، والعودة بثقافة الحياة، والتطوير الذاتي الدائم، إلى موطنه، بدلًا من الإتيان بثقافة الموت من بلاد الدنانير، لكسب قوت أولاده.

يحتاج لأن يشعر بأن هناك مقابلًا لعمله وجهده؛ فيتوقف عن الاستسهال، ويبدأ بالعمل الجاد الذي يقيم الدول المهدومة فوق رؤوس أصحابها. هذا الشعب، فقط، يحتاج بعضًا من الأمل!

- كيف يكون هناك أمل حيثما يوجد الفقر يا أمي؟

- آخر ما أهتم به هو أن يكون المرء غنيًّا . ما يعتبر مركز اهتماماتي هو الفقر، الحياة بدون متاعب، ومحاولات النجاة كل يوم، تفقد طعمها تمامًا. هذا التعب والعناء، يصبح حلوًا، بل وضروريًّا، عندما يكون المرء في المتوسط، متوسط دخل، ليس كادحًا يطلقون عليه متوسط دخل. ومتوسط تعليم، ليس جاهلًا يطلقون عليه ذا شهادة تعليم عالٍ.

أن يكون المرء فاحش الغنى ليس بالشيء المغري تمامًا. كما أن الحياة بدون مشاكل أو أهداف أو صراعات مع النفس لا تبدو أبدًا كحياة سيسعد بها الإنسان الذي خُلق للألم، بل وللتمتع به وبمواجهته. هذه الدولة تحتاج لشخص واحد يريد لها حقًّا أن تكون، وحين يوضع هذا الشعب الصبور على الطريق الصحيح، من عمل يعود عليه بالمنافع النفسية والاجتماعية، وعندما يتعلم تعليمًا يطور إنسانيته، ومفهومها بداخله، ستكون دولة عظيمة، حتى ولو من دون ثراء . لكنهم يخافون بشدة، من أن يعي الناس كل شيء. هم يريدونهم جهلاء، لا يفكرون سوى بقوت

اليوم، واليوم فقط، حتى لا يعد لديهم وقت للتفكير بأي شيء آخر!

حاولي يا صغيرتي أن تري الناس بعيونهم ومن داخلهم. تعلّمي أن مساعدتك لشخص، حتى وإن وقع عليك خطر، لهو أفضل من أن تكوني أنانية، تغضين بصرك عن معاناة غيرك بحجة أمانك الشخصي، فالخطر حولنا في كل مكان، و أنتِ جزء منه. واجهيه بشجاعة، واعلمي أن العمر لا يُنقصه شيء، وحتى إن دام مائة عام، هو لا يزال قصيرًا جدًّا على أن نتجاهل إنسانيتنا! فقد قال الفيلسوف الألماني هيجل، قبل قرنين من الزمان "إنه لا يتجلى عقل أو فكر العالم إلا في علاقات الناس فيما بينهم"، ابدئي بنفسك!

❁❁

(٢)

مر عام كامل، على أول يوم فتحت لي فيه أمي عقلي وقلبي إلى التفكير العقلاني. وها قد جاء موعد عيد ميلادي الرابع عشر. استيقظت يومها، لأجد بجانبي ظرفًا أنيقًا كُتب عليه: "كل عام و أنتِ معي.. من أمك".

فتحت الظرف بلهفة، لا أتذكر الشعور بها عدة مرات في حياتي كلها. فوجدت ورقة صغيرة، باللون الزهري، كُتب عليها "وضعت قلبي بين راحتيك الصغيرتين، فاحفظيه، إنه لا يحفظك سواه!". كم كانت تحبني، بشكل مختلف، عن كل أنواع الحب التي رأيتها في هذا العالم، أو ربما، هي فقط تعرف جيداً، كيف تظهره لي! ثم وجدت ورقتين كبيرتين مطبوعتين، ليستا بخط اليد كالورقة السابقة والظرف، فأخذت في قراءتهما.

"يسأل الملحدون - هؤلاء الذين لا يؤمنون بوجود أي خالق ويعتقدون بأن الكون بكل ما فيه حدث صدفة – المؤمنين : لماذا خلقنا الله إذا كان يعرف كل ما سيحدث مسبقًا؟ ولكنني

أتساءل عن شيء آخر تماماً: إذا عرف العلم كيف الحياة على الأرض نشأت من لا شيء وتطورت لتصبح على ما هي عليه الآن، ما السر وراء العقل البشري الفريد الذي جعل الإنسان وحده هو من يستطيع طرح مثل تلك الأسئلة والبحث والتجريب وإنشاء العلوم في سبيل معرفة الحقيقة؟

ليس موضوعنا الآن هو أن الله موجود أم لا؟ فسنتطرق لهذا السؤال فيما بعد . ولكن الموضوع الآن عن "لماذا خُلقنا؟ ". ولماذا نحن فقط من نتميز عن جميع الكائنات الأخرى، بالعقل والروح؟

ربما تتساءلين الآن: كيف تختلف أرواحنا، التي لم يستطع العلم إثبات وجودها أصلًا؟ فبينما تعريف العلم للحياة، هو أن المخ عندما يتوقف عن العمل، تتوقف معه كل الأجهزة الأخرى، كما أنه عندما تفصلين الكهرباء عن جهاز ما في بيتك، فلا يعد يعمل بعدها، وليس لأن هناك روحًا . لا أستطيع أنا أيضًا أن أثبت بقطعية وجود الروح، كما هي مستخدمة بين العامة، ولكن الروح التي أشير إليها هنا مختلفة تماماً. ليست روح الحياة التي تمتلكها الكائنات الأخرى، ولكن الروح التي تجعل البشر بشراً، كما العقل الذي لا يمكن إثبات وجوده، ولكنه يميز البشر أيضًا .

فامتلاك مخ شيء مشترك بيننا وبين كائنات أخرى أيضًا، ولكن العقل الخفي، فلا!

الإنسان يستطيع أن يؤلف معزوفة موسيقية من وحي خياله وأحاسيسه باستخدام هذا العقل، ولكن الشيء الذي جعله يملك شغفًا مميزًا للموسيقى، واحتياجًا جارفًا لأن تلعب أصابعه على أوتار آلة موسيقية يميل لها، هي تلك الروح، بينما تملك القطة مخًّا يعمل كمخ الإنسان، وروحًا تحيا بها كما يحيا، ولكن بلا شغف وبلا إبداع!

ما هي تلك الروح إذن؟!

لم نخلق في هذا الكون، ليس لسبب، إلا لأننا جزء منه، ومن قوانين الطبيعة التي تحكمه، تحكمنا بدون رادع لها. لكن على كل إنسان أن يقرر ماذا عليه أن يفعل بهذه التي أعطيت له! لم يُخلق أحد لسبب معين، ولكن كما أشكالنا مختلفة من الخارج، وكتبت علينا بدون إذن، كذلك تكون أرواحنا من الداخل التي تفرقنا عن كل الكائنات الأخرى. فنحن قد خلقنا لنسأل. فقانون السببية مبرمج في عقولنا كما الغرائز تمامًا. وهذا هو الإدراك الواعي الذي يتمتع به البشر وحدهم، منذ الطفولة، عندما يسأل عن كيفية وجود كل شيء، حتى كيفية وجوده هو نفسه في هذا العالم. وهو شيء من السهل الإجابة عليه . رغم أنه لن

يفهم تلك الكيفية بشكل كامل كما يفهمها الأكبر منه سنًّا . إلى أن يكبر هذا الطفل ويسأل عن أشياء يصعب الإجابة عنها، ولن يدركها بالكلية، لا هو ولا الأغزر منه علماً، ولكنها الفطرة التي نولد بها، أن نسأل. القانون الثابت الذي توصلت إليه، وبنيت عليه الكثير من مفاهيمي، هو معرفة الإنسان عن طريق ملاحظة الأطفال. وسيساعدنا هذا القانون كثيرًا في مسيرتنا . والنقطة التي سنركز عليها هنا، هي أن الإنسان بطبعه متسائل، فتلاحظين أن هذه الصفة موجودة عند الصغار أكثر منها في الكبار، قبل أن يملؤوا رؤوسهم بإجابات سهلة وغير قابلة للنقاش، فيتوقفوا عن استخدام تلك الميزة!

نرجع الآن إلى موضوع الروح. كل منا يمتلك بداخله شيئًا ما يحركه إلى هدف معين، مخبأ تمامًا، فإما أن يحفر ليجده، أو يرمي عليه المزيد من التراب لكي لا يظهر أبدًا، ليظل دائمًا جزءًا من المألوف؛ لأن الإنسان بطبيعته يخاف من التغيير، لهذا نجد عددًا قليلًا من العظماء، في جميع المجالات، بينما ملايين أضعافهم، أرواح خُلقت وماتت، دون أن تفعل أكثر مما يفعله أي كائن آخر...

لا تتسرعي، يُظن أن كل المشاهير عظماء، وكل المغمورين فارغون، بل إنك لتجدين أعظم من ذلك في أناس لم يسمع

بهم أحد، وتجدين من بين هؤلاء الذين اكتسبوا صيتًا أحقر البشر، فلا تأخذي بالذي تراه عيناك، إنهما كاذبتان، لأنهما لا تستطيعان رؤية كل شيء، وليس كل ما تريانه ترونه بوضوح، أليست تلك رسالتي؟ ولكن لأن يكون هذا القانون أشمل وأعم..

كل شيء عظيم يحدث يترك خلفه أثرًا أعظم منه، لكي يتذكره المستقبل أو يتعلم منه . فعندما تصطدمين بقوة في حائط هش، يترك هذا شرخًا به. أو أن بقعة ما على القماش، إثر مثلجات الشوكولاتة التي تحبينها، قد لا تزول من على القماش مهما حاولتِ، فتذكرك دائمًا بهذه اللذة عندما كنتِ تعيشينها . أو طفل حدث بالصدفة، من لحظة نشوة، كان من الممكن أن تنسى، لولاه. وهكذا أيضًا، هو الفكر، دائمًا ما يترك له آثارًا، كي يظل إلى الأبد معروفًا أنه قد كان يومًا . إلا لو حاول أحد إجهاضه، أو حتى إلقاءه في صندوق قمامة بعد خروجه إلى الدنيا!

ربما لم نأتِ إلى هذا العالم صدفة، ولكننا بالتأكيد لم نأتِ ضمن أحداث مسرحية كتبت مسبقًا، لنقوم بدورنا على خشبة ما، أمام جمهور لا نستطيع رؤيته، من كثرة الضوء المسلط على أعيننا، خائفين، مرتعشين، من حكم هذا الجمهور على أدائنا وهم

يحملون الكتيبات التي طبع عليها السيناريو الذي نقوم به كاملًا، لنأوى بعدها إلى كالوس إلى الأبد. لو أننا خُلقنا للتسلية وأداء أدوار لما كان لنا عقل، ولكن دعينا نركز على الروح لكي لا ندخل أنفسنا في أشياء لم يحن دورها بعد!

ليس الجسد هو ما يشيخ ويكبر، لكنها الروح . فهنالك أجساد جعدت والروح بداخلها لم تكبر عن عمر العاشرة . وأجساد ممشوقة تسكنها أرواح شاخت وماتت وعذبت آلاف المرات . قمة القهر يا جميلتي أن يعيش جسدك حياة لا ترضى عنها روحك، حياة أنتِ حبيسة فيها وجسدك حر طليق . يراكِ كل الناس بأعينهم، لكنك لا ترين أنت أن عينًا قد رأتك بعد. بل إنك مختفية تمامًا بالنسبة للجميع، لأنه لا يعرف عن روحك أحد أي شيء!

إن حواس الإنسان مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالإدراك . ولكن أن تدركي أن الحواس ليست بكافية لكي تدركي العالم إدراكًا كاملًا، سيجعلك هذا تشعرين وتسمعين وترين بحواس أخرى، لم تكوني تعرفين من قبل أنك تملكينها!!

لتفهمي قصدي أكثر، أنتِ تعرفين أنه يكفي لكِ أن تري وردة في بستان ما لتجزمي أنها جميلة وحمراء اللون، ويكفي أن تشميها لتقولي إن لها رائحة رائعة. لكن من الممكن جدًّا، أن

يكون هناك شخص آخر ينظر إلى نفس الوردة، ويتعجب من وجهة نظرك فيها، فهو يراها تميل إلى اللون البرتقالي، وأوراقها ليست كافية لتكون جميلة، وأن رائحتها النفاذة تؤلم أنفه . أتستطيعين أن تجزمي من منكما على حق، ومن على باطل؟ كلاكما الأصح من وجهة نظره؛ لأن مواطن الإدراك للأشياء لديكما اعتمدت في حكمها على قدرة الحواس الخاصة لكما في تمييز الأشياء . تلك الحواس التي كونت طريقة عملها بالتدريب والتلقين منذ الصغر. فإدراك حواسنا للأشياء شيء مكتسب، وليس بالطبيعة التي نولد بها . وهكذا يا صغيرتي، يكون حكم الناس على كل شيء. إلا القليل من الذين يدركون أن أرواحهم هي الأخرى تملك حواس، من الممكن أن نكتشف بها العالم كله من جديد، بأقل احتياج ممكن لحواسنا الخارجية.. فعندما يستمع شخص شغوف بالموسيقى، إلى سيمفونية موسيقية مؤثرة فيبكي، هو لم يدركها بحاسة السمع لديه؛ لأنه كان يسمعها مع صديقه الذي ظل يضحك من بكاء الأول. فقد سمعها الأول بروحه، التي اختارت عشق الموسيقى وفهمتها دون تعلم، بينما الثاني يستهزئ بصديقه، لأنه لا يستطيع أن يسمع نفس ما يسمعه. والمشكلة تكمن عندما يبدأ الأول بنعت الثاني بالسطحي والجاهل، في حين يصف الثاني الأول، بالرقة

الأنثوية والبلاهة. وهنا فقط يأتي دوري أنا، الذي ولدت به ولم أختره أيضًا، حيث أجد نفسي قد وقفت في وسطهما، ألاحظهما جيدًا، وأعرف أن كليهما على حق، وكليهما على باطل، كما أعرف أن محاولة جعلهما يصلان لمرحلة استيعاب لهذا الشيء، لهو أمر في غاية الصعوبة... كل شخص يرى نفس الشيء بطريقة مختلفة، لكن المشكلة هي محاولة فرض رؤيته الخاصة جدًّا، على من حوله، ممن لا يملكون نفس الطابع الحسي لديه!

إذا دربتِ عقلك على رؤية الجميل في كل قبيح، فسترين العالم بأعين مختلفة تمامًا عن باقي البشر، سترين البشر أنفسهم بأعين تشعر وترى ما خفي و لا ظهر! فالوصول لكمال الإدراك لا يأتي إلا بتدريب العقل، فهو المسؤول الرئيس عن الحواس الكامنة والمدفونة بداخلنا. وهو ما يساعدنا على رؤية ما لا يراه الآخرون. هذا فقط إن أردتِ أن تكوني مختلفة!

بالرغم من أن الله قد خلق البشر جميعًا بنفخة من روحه، إلا أنه تتباين فيما بيننا الأرواح وتختلف كاختلاف الليل والنهار . فيكون للبعض أرواح تدفعهم لما خُلقوا له، وبه ومنه . لا ترتاح ولا تعود لبارئها قبل الوصول إلى ما انتظرته من يوم نفخت في الجسد... وللبعض الآخر أرواح صم بكم عمي، لا يريدون شيئًا

ولا يتمنون، ولا لشيء عظيم في الكون يسعون، ويموتون كما ولدوا، لا أضافوا ولا أنقصوا في الأرض من شيء... وكلنا من روح الله!! إن كان لكِ ما خُلقتِ من أجله ستعرفينه في وقته، وإن لم يحدث فحتماً إحساسك العميق بالاختلاف ليس إلا خللًا نفسيًّا يجب أن تتغلبي عليه قبل أن يقضي عليكِ...

نحن لم نُخلق عبثًا، بل كل واحد منا خُلق لهدف، للبعض أن يتّفق معه وللبعض أن يعارضه، ولكن الشيء الأساسي أننا خُلقنا لإضافة شيء ما، فكن شخصاً نافعاً، ليس فقط لتحقيق ذاتك، بل لاحترامك كونك إنسانًا لا يفوقه أحد، من استطاع النجاح قبلك لا يستحق انبهارك، هو فقط وصل لما كان يحلم أن يكون، فلا تكن مجرد خيال يدعمه ويثبت نجاحه هو ويكون هذا كل دورك في الحياة، بل اعمل على أن يوماً ما ستكون أنت من يريد أن يلتف حوله الجميع، ولكن يومئذٍ لا تتوقع أن يقدسك الآخرون....

فالحياة ليست إلا ولعًا وشغفًا.. لم تُخلق أرواحنا هباءً تميل لأشياء عن أشياء، تولع بأمور دون غيرها وتحلم بالوصول لأحلام لا يفهمها غيرها بلا سبب، لم يُخلق كل منّا بتركيبة محددة مقتصرة عليه وحده عبثًا ليترك كل ذلك وينضم للقطيع، يترك للدنيا الرعاية، بينما يلبي رغبات من حوله فقط ورغباته

الدنيا التي لا ترتقي لإنسانيته، يأكل، ويشرب، ويلبس، ويتزوج، وينجب، ويعمل، ويأتي بالمال ليصرفه على الأكل، والشرب، والملبس، والزيجة، والعيال!

لا تتخلَّ عن روحك، فلم تُخلق هباءً، شغفها شغفك وحلمها هو كل ما أنت .. المال يفنى، والصحة تزول، والأولاد يكبرون، والعمر يمضي، ولا يبقى دائمًا وأبدًا سوى روح الله فينا، وضعها منه وليست واحدة في كل واحد منّا، بل مختلفة وفريدة، ولهذا معنى عظيم... ابحث عما يريح روحك ولا تتركه ألا وهو الحياة، جد شغفك في الحياة ولا تتخلَّ عنه إلا وجسدك يُري جميع من حولك عن مكنون داخلك... لكل روح حياة خاصة بها، عشها بدلًا من انتظار الموت في جلباب مجتمعك بعد أن اشتركتم جميعًا في عملية قتل شنيعة لروح أُعطيت لك ... هدية خالصة لك، تشبهك، تبحث عنك وتتمناك ولا يستطيع فتحها إلّاك.. كن ما قدّرت السماء لك أن تكون من قبل ولادتك بملايين الأعوام .. كنْ أنت روحك ولا تخجل ولا تلقها، فهي أغلى ما تملك.. ارقص إذ أنت أحببت الرقص، غنِّ إن كان هذا ما يطلبه قلبك، عش كالأطفال، ارسم، اكتب، اصرخ.. كن ما تتمنى أن تكون عندما تغلق عينيك عند حلول الليل، ولا تكن ما يحدّثك الناس عنه عندما يأتي النهار!".

وضعت الأوراق بداخل الظرف . نهضت من على سريري ووضعته في درج مكتبي الذي أحب تنظيمه كل فترة؛ لكي لا يضيع مني شيء ثمين، فقد علمتني أن العمر يمر سريعًا، وسأحتاج لكل فكرة دونتها، وكل ذكرى موجودة معي يومًا ما ! كدت أخرج من الغرفة، حتى لمحت خطوطًا تكاد لا تُقرأ على لوحتي السوداء، المعلقة على حائط غرفتي. أكتب عليها عادة بأقلام ملونة، أو بيضاء كي أستطيع قراءتها.

ولكن هذا اللون هو نفس لون اللوحة ! لماذا تكتب لي أمي شيئًا بقلم أسود على لوحة سوداء؟! لولا أنه لامع، لكانت كأنها لم تكتب شيئًا أبدًا!

اقتربت جدًّا من اللوحة، أنرت الغرفة ولم أستطع القراءة، فأتت لي فكرة! جئت بهاتفي المحمول، الذي يحتوي على كاميرا فائقة الجودة للتصوير، ومعها ضوء يمكن أن أختار لونه كي يعطيني الشكل الذي أريد للصورة . جربت اللون الأصفر، واخترت أن يكون في ذروته، وأخذت صورة للوحة . قربتها بإصبعي كي أقرأها، وها هي الكلمات تكاد تظهر...

"هل أنت مسيَّرة أم مخيَّرة؟!"

كانت أمي تمتلك عدة صفات متناقضة عن بعضها البعض تمامًا. كنت أعلم أنها لا تريد أن تجعلني مثلها أبدًا. لم ترد لي أن أتخبط

وأتعب كما فعلتْ. بل تمنت لي حياة بسيطة وسلسة، ولكن بمعطيات لم تكن موجودة في مجتمعاتنا التي ألفناها . كانت عكس أبي في كل شيء، ولم يجمعهما سوى الحب، الذي توارى رويدًا رويدًا؛ بسبب كثرة تخبطها في الحياة، ومعاناتها التي لم يفهمها ولم يشعر بها سواي. منذ أن ولدت وهي بين أناس لم تشعر بينهم بالراحة والحب أبدًا، فعملت على أن تعوض نفسها عن كل الحب الذي افتقدته بإعطائه لي أنا . فمفتقد الشيء يعطيه أكثر من أي شخص، فهو من يفهم معنى وإحساس الحرمان منه. فيكون أرحم على المحرومين من أمثاله، عندما يجد القدرة في نفسه، على أن يكون من يمحو هذا الإحساس، الذي يعرفه جيدًا، عن قلوب الآخرين...

قالت لي أمي بأن الناس تقول: إن فاقد الشيء هو الأصلح لإعطائه، ولكنهم أساءوا فهم المقولة، فهي ترى أن فاقد الشيء لا يستطيع إعطاءه؛ لأنه لا يملكه من الأساس . ولكن مفتقد الشيء هو الذي يعطي منه قدر المستطاع، فمفتقد الشيء هو الذي تألم لعدم وجوده، وتعذب لأنه لم يشعر به؛ فعرف معنى الحرمان منه؛ فقرر أن يعطيه لكل من حوله بسخاء لكي لا يشعروا بنفس آلامه. أما فاقد الشيء، فلا يملك معناه بداخله من الأساس ليستطيع معرفة أن عليه تقديمه

للآخرين... وهكذا هي، افتقدت الحب، افتقدت أن يشعر بها من حولها، افتقدت أن يراها من أحبت، كما هي تماماً من داخلها، ولا زالت تتألم، فجابت الكون تعطي حبًّا وتفهماً لاحتياجات ومشاعر الآخرين، بينما لا يزالون هم لا يرونها، لتستمر معاناتها، وتستمر في الشعور بالحرمان، كما تستمر في حبهم قدر المستطاع...

كم أنا غاضبة من هذا الغموض المفاجئ، الذي دخل حياتي دون إذن، كضيف مزعج يجب عليَّ احترامه!.. وعدتني أمي أن نقضي يومنا معًا، للاحتفال بعيد مولدي؛ حيث ستأخذني لتناول وجبة الغداء في مطعمي المفضل، ثم نذهب للتسوق، وأختار أي شيء أريد، بما لا يزيد عن خمسة آلاف جنيه. كانت تضحك وتقول لي إن ما يشتريه هذا المبلغ الآن كان بمثابة ثلاثمائة جنيه وهي في مثل عمري!

كانت قد حضَّرت لي مفاجأة بعد أن ننتهي من تسوقنا . كنت أعرف ذلك، لكنني لم أتوقع فعلًا ماذا ستفعل . فقد ذهب تفكيري إلى حفل به الأقارب والأصدقاء فقط، لكنني لا زلت غاضبة ولديَّ الكثير لأقوله لها!

جلسنا في المطعم الفرنسي المفضّل لكلينا، في هذا الحي الراقي، الذي يبعد عن منزلنا بمسافة خمس وأربعين دقيقة .

حيث تكون جميع المقاعد على رصيف مخصص لها، في شارع للمارين سيراً فقط. استمتعت كثيرًا بمشاهدة ومراقبة أفعال الآخرين، وطريقة ضحكهم وحديثهم. كنت أستمتع بتطبيق ما تعلمته في كتب علم النفس، بتفصيل تعابير الوجه والجسد، وبمحاولة الخروج بقوانين جديدة، بالنسبة لي على الأقل، في نفسية البشر، من أصغر تصرف يبدر منهم، ولكنني اليوم لا أجد وقتًا لهذا، فأنا جائعة، وأجلس أمام أمي، التي أردت بدء الكلام معها، بينما هي تنظر للناس في الشارع. وبجانب عينيها تجاعيد؛ نتيجة لكونها لا تستطيع فتحهما بشكل كامل؛ مما يدل على أنها لا تجلس في أشعة شمس الظهيرة كثيرًا!

استجمعت قواي، وبدأت بالحديث ومقاطعة أفكارها قائلة:

- لا أفهم لماذا تلتوين في إجابتك طالما أنك تريدين تقديم الإجابة، ولماذا تسألين سؤالًا جديدًا، أستكون تلك عادة سنوية؟

- كيف ألتوي؟ لا أفهم! ظننت أنني لخصت لكِ إجابتي الخاصة عن سؤال السنة الماضية!

- ولكنك لم تقولي أي شيء جديدا! فكل هذا علمته لي من قبل وأعرفه عن ظهر قلب دون ورق. فقط أجيبي، هل هنالك روح ام لا؟ أنتِ تسأليني كشخص غير مؤمن، ثم تجاوبيني

كشيخ متفلسف! من ماذا تخافين عليَّ؟ قولي لي عن رأيك بصراحة وما تعتقدين، فأنا لم أعد طفلة!

- أنا مجرد أم تفرغ طاقتها في فلذة كبدها كما يفعل الجميع . ولكن طاقتي تلك ليست طاقة غضب، بل طاقة فِكر. كونك في بداية التعرض لمثل تلك الأسئلة، يعني أيضًا أنه لا يزال أمامك طريق طويل جدًّا كي تعرفي الإجابة . فربما إجابتي ليست صحيحة!

- أنتِ الآن لا تفعلين سوى حبس أفكارك في اللاوعي، كما شرح سيجمند فرويد، ثم تدّعين أن روحك روح فنان ! الفنان يترك الوعي، واللاوعي بلا قيود، ولا يختار ما يجب أن يخرج منه وما يجب تجنب حتى ذكره! فقط قولي لي بكل صراحة من أنتِ، وما هو اتجاهك؟

- كيف؟

- أي عندما تعرِّفين عن اتجاهك الفلسفي، أو الديني، أو الفكري، ماذا تقولين؟

- يا عزيزتي، إن التوجه الوحيد الذي يعرفني، هو التمرد على كل التوجهات. أما أن تطالبيني بالتركيز على شيء واحد دون آخر، فهو ليس إلا عدم معرفة حقيقية، لمن أكون!

- ظننت دومًا أنني أعرفك حق المعرفة، ولكن مؤخرًا، أشعر وكأنك شخص مليء بالأسرار، التي لن يبوح عنها أبدًا. ويصعب عليَّ أن أشعر أن ثمة حاجز بيني وبينك يا أمي ! ألستُ قطعة منكِ كما وصفتِني دائمًا؟

- أنا لستُ لؤلؤًا مكنونًا داخل قوقعة داخل محيط، لست ألماسًا يختبئ في باطن الأرض. أنا فقط أشبه ببئر مليئة بالمياه الجوفية، داخل سوق كبير، لبيع المياه في زجاجات بلاستيكية، في زمن لا يعرف به أحد أن الآبار تنضح ماءً، أصفى مئة مرة من المياه المفلترة، ينظرون لي كتمثال محنط من أزمان بعيدة، ولا يُتعب أحد نفسه كي ينظر بداخلي، ليكتشف لماذا أنا هنا، بينما أنا أشاهدهم جميعًا، ويقتلني الشوق لأن يشرب أحد من مائي! وإلا فلماذا صنعت؟ أشعر بأنني في المكان الخطأ، والزمان الخطأ. ليس لأنني أعظم من أحد، لكن لأنني حقيقية، في زمن الزجاجات البلاستيكية. أتذكر أيامًا، لست متأكدة أنني قد عشتها فعلًا، لكنني أتمنى فقط لو كنت هناك! قالت هذا بعد أن صمتت قليلًا، سارحة في الطريق وأهله ولم تنظر لي. فقط أكملت حديثها قائلة:

البشرية لم تتغير على أيدي الأنبياء لكي تتغير على أيدي المفكرين. إذا اعتبرت نفسي كذلك، فالأغبياء لن يفهموا غير

صوت عطل عقولهم. الأشرار لن يتبعوا غير قبور ضمائرهم، والصالحون صالحون، مهما كانت فصائلهم. هدفي في الحياة، ليس له معنى من الأساس، ولكنه يقودني كواجب عليَّ قضاؤه. ولعل جيلًا صغيرًا، يزرع فيه كيف يفكر فينجو، ولكني أعلم بقلتهم، وبما سيواجهونه، في محاولة تغيير واقعهم، ثم إحباطهم، لمَا يعرفون أن البشرية لن تتغير. لهذا خفت دائمًا أن تكوني مثلي، فقد ولد ومات قبلي الكثير، وبقيت الدنيا على حالها، وهكذا ستبقى إلى يوم البعث.

لكنها اللعنة التي أصابتني، المرض الخبيث الذي هاجم أعضائي ولم يكتشفوا له علاجًا بعد، جعلني مختلفة عن العالمين، ولا يدري أحد بذلك. فأنا محاربة، كل يوم جديد يمر عليَّ، هو بمثابة تحدٍّ عظيم، كل فكرة تدور في رأسي تمثل سرطانًا، يأكل كل ما بداخلي من شيء حي . فتتداعى جميع الأعضاء، وأظل أصرخ ولا يسمعني أحد...

أعيش كل يوم معاناة النجاة من المرض . أن يكون شكلي طبيعيًّا، قدر الإمكان. أن أتجنب تغلبه عليَّ؛ فيحولني إلى كل ما لا أريد أن أكون، وكل ما أكره. أن أتجنب نقله كعدوى إلى من حولي ممن أحب، كما أتى إليَّ ممن كان عليهم حمايتي من البداية، بسبب الإهمال...

حالتي عَسِرة، فأنا أحارب الموت القابع بداخلي، في كل لحظة أحياها مع الألم، ومع كل فكرة توخزني كالسكين البارد، محاولة تقطيع شراييني، ولكني أناضل، رغم عدم استيعابي لفائدة كل هذا العناء، فكل ذلك عندي بلا معنى، ولكني مازلت أحاول النجاة... ورغم وحشة وحدتي، سأبقى على ابتسامتي، التي تعطي أملًا لآخرين، من شخص بلا أمل . لن أبحث أبدًا عن الخلاص؛ لأن المحاربين يعون جيدًا، أن كل ثانية تمر، بكل بساطة، قد تكون هي الأخيرة...

الفلاسفة والعظماء ماتوا، ولم يخلفوا بعدهم أبدًا، سوى بعض المثقفين، الذين يقرأون لهم، ويتحدثون في أفكارهم، وليست لهم أفكار جديدة تمثل أي شيء يذكر، مثلهم كمثل العامة من الناس، الذين يتحدثون في الأفكار التي توارثوها بدون تفكير غزير، أو أي تفكير أصلًا، مع اختلاف أنهم اختاروا من يتبعون، دون تلقي هذا من أحد، ولكن في النهاية هم ليسوا إلا تابعين أيضًا. انتهى زمن الأبطال في العالم كله، فالكل أصبح مسخًا وتابعًا، وليس من مفكرين ولا فلاسفة، لا في مجتمعاتنا الميتة ولا في المجتمعات التي تقدمت علينا شكليًّا وماديًّا، لكنها لا تفهم سوى ما يقال لها في التلفاز، كما نحن تمامًا... على مر العصور والنابغون فقط هم من يقتلون وينفون خارج البلاد؛

لأنهم أرادوا تحريك الرأي العام نحو حقيقة لم يألفوها، حقيقة غفل الجميع عنها، فكان في إظهارها بالنسبة لهم هرطقة، وخروج عن النص، وتكدير للأمن القومي، من علم أو دين أو أنظمة حكم أو فلسفات إنسانية.. ثم يقدر مجهود هذا الذي إما قُتل أو دفن حيًّا بعد آلاف السنين أو أقل، من شعوب تقبلت أفكاره في ظاهرة تشبه نظرية التطور ولكن للعقول، ثم هم أنفسهم يحكمون بعد ذلك بالموت، لكل من سبق عصره في زمانهم وقال ما لا يفقهون..

التعلم من الماضي يبدو وكأنه شيء مستحيل . التفكير يبدو وكأنه الأصعب على الإطلاق، رغم أنه الشيء الوحيد الذي يفرق الإنسان عن سائر المخلوقات!! مع إصراري على كامل حقدي على كل من يعيش بدون عقل، مرتاح البال... ثم إنني في وقت ما اقتنعت بأنه لا وجود لما يسمى بشخص عظيم في المطلق، بل أحيانًا تلد الأرض أناسًا على شكل مصباح مضيء، فإما أن ينتفع من حوله بنوره لإيجاد وعمل الخير، وإما أن يختاروا أن يكسورا زجاج المصباح ليكملوا العيش في الظلام الذي اعتادوه.. إن عظمة شخص من عدمه، يعود لما إذا كان المجتمع من حوله أعظم منه ليقدِّره أم لا... أما أنا، فاخترت

أن أخفت من إضاءة مصباحي هذا؛ كي لا ينير إلا طريقك أنتِ، وهذا كافٍ جدًّا بالنسبة لي يا صغيرتي..

- لم أرَ في حياتي شخصًا متناقضًا أكثر منك. تحملين كل هذا بداخلك وتربيني على أن الحياة بسيطة والكون ملكنا، وأن النفس لا تشقى أبدًا إلا إذا اختار صاحبها لها ذلك! أتعتقدين بأن لديك مرضًا نفسيًّا ما؟!

نظرت إليَّ بابتسامة لم أتوقعها. ظننت أنها ربما تغضب، أو حتى تتعجب من وقاحتي، ولكنها فقط وجهت نظرها لي وابتسمت وكأنني لتوي قلت لها كم أحبها! ثم قالت:

- أبعد كل قراءاتك، تعتقدين حقًّا أن هنالك بشرًا من دون مرض نفسي؟! طبعًا ما عدا أنت، و إلا كنت قد أعلنت فشلي في المهمة التي وضعتها على رأس قائمة أعمالي من يوم ولادتك! قالت وقد بدأت تعبيرات وجهها تتغير إلى قليل من الجدية..

- إذن ما هو اسم مرضك هذا؟

- هذا ما عليك أنت اكتشافه بنفسك!

ذهبنا للتسوق بعد إنهاء وجبتنا، وابتاعت لي العطر الذي أفضله، والذي قد وعدتني به من فترة، بحجة أنه أكبر من سني، من

أفضل محل عطور مستوردة في المدينة، رغم أن ثمنه ضعف هذا الذي قد حددته لي مسبقًا!

الوقت أصبح ليلًا، ركبنا سيارتها وسألتها عن المفاجأة التي قالت لي إنها قد أعدتها، فطلبت مني الانتظار كالعادة...

دخلت بي في صحراء بعيدة كثيرًا عن مدينتنا. مكان لم أره من قبل ولم أسمع عنه حتى! وصلنا لنقطة كانت تشع نورًا، فتمكنت من رؤية المكان قبل النزول من السيارة، التي وقفت مباشرة أمام أرائك من القماش، على الطراز العربي، فوق سجادة من نفس اللون، ونيران تحيط بها على شكل دائري لتنير عتمة الليل، فربما يعكس لنا القمر نور الكتلة الملتهبة، التي تنير الآن مكانًا ما في الجانب الآخر من الأرض. إلا أن هذا ليس بكافٍ لكي أرى كف يدي في تلك الصحراء!

نزلنا من السيارة، وأول شيء قررت أن تفعله أمي، هو أن تأخذ بيدها بعضًا من الرمال وتطفئ به أعمدة النار، واحدة تلو الأخرى.

- ماذا تفعلين؟! سألتها مندهشة.

- أطفئ النار لكي نستطيع الرؤية بوضوح أكثر!

- هل أصبحت مختلة تمامًا؟! ماذا سنرى إذا جلسنا هنا في هذا المكان وحدنا من دون نور أبدًا؟!

تابعت إطفاء آخر لهب، دون أن توجه لي كلمة أو نظرة حتى، وكأنها وحدها، وأنا روح شخص ميت يحاول التواصل معها، ولكنها لا تعي أي وجود له ! تركت نور السيارة الخافت وأنا لازلت أنظر لها بتعجب. لا أفهم لماذا تتصرف بكل هذه الغرابة! طلبت مني أن أستلقي على الأرض، وأن أعطي ظهري للسيارة، فجلست وأنا ما زلت أنظر لها وهي متجهة نحوي لتجلس بجانبي. ثم ببطء، تريح ظهرها بالكامل على الأرض، ثم تنظر لي بابتسامتها البلهاء تلك وتقول:

- هيا!!

تأففت، ثم رميت نفسي بجانبها، ولم أنبس ببنت شفة مدة طويلة، فقد رأيت ما أنسانيها. رأيت الكون كله حولي وكأنني في الفضاء، رأيت أنوارًا مبهرة، أحسست معها أنني لا أريد أن أرى بغيرها أبدًا، وكأنني فجأة أصبحت في عالم آخر!

- هذا هو عالمنا يا صغيرتي، لكنه عالم صغير جدًّا رغم ذلك . فما ترينه الآن، ليس إلا مجرة درب التبانة، التي تتبع لها، من أصل تريليوني مجرة، في الكون المرصود لنا من على الأرض فقط، اكتشفها العلماء حديثًا، بعد أن ظنوا أن الكون يحتوي فقط على مئة ألف مجرة، بوقت ليس ببعيد، في الكون الشاسع، الذي نشأ منذ ١٣.٨ مليار سنة، ولا يتوقف عن التوسع

والامتداد.. فإذا أردتِ أن تجتازي مجرتك وحدها فقط، يلزمك ٥٠ ألف سنة ضوئية تقريبًا، بمركبة تقطع المسافات بسرعة الضوء ! وبينما قطر شمسنا التي نعرفها، من بين بلايين الشموس في الكون، يعادل ١٠٩ أضعاف قطر الأرض، هناك نجم واحد يسمى (VY Canis Majoris) يكبر شمسنا بنحو ألفي ضعف! أما أقرب المجرات لقلبي، هي مجرة تلقب بالعين السوداء، في كوكبة الهلبة، وتبعد عن الأرض19 مليون سنة ضوئية.

ظلّت تتحدث بصوت خافت جدًّا وكأنها تحاول أن تجعلني أغرق في النوم، لكي لا تقطع اتصالي الذهني بكل ما أراه من عظمة. بل أن يكون كلامها بمثابة صوت بداخلي، يجعلني أعي أكثر، عظمة ما أشاهده، كي لا أتوقف عند حد الانبهار الحسي فقط. فهي ببساطة، أرادت أن تربط المتعة الحسية بالمتعة العقلية؛ لأنها دائمًا ما آمنت أنه لا معنى للذة حواسنا، إذا لم يكن لها معنى أعظم، يضعنا على قائمة الكائنات العاقلة الوحيدة، التي نعرف بوجودها!

- هل تعرفين أننا إذا نظرنا عبر التليسكوبات الفلكية نحو كوكب يبعد عنّا خمسة آلاف سنة ضوئية، فإننا لن نرى إلا الماضي، وما كان عليه منذ خمسة آلاف سنة؟!

- كيف؟

- لأن ما نراه هو ليس إلا انعكاس الضوء . فكلما بعدت عنا الكواكب بسنين ضوئية، فلن نستطيع إلا رؤية ما تعكسه لنا تلك المسافة الزمنية. وإذا كانت هناك كائنات عاقلة، على كوكب آخر، في مجرة مجاورة، تبعد عنا بمليوني سنة ضوئية، ويفوقنا سكانها علمًا واستطاعوا رؤية كوكب الأرض بوضوح، فلن يشاهدوا سوى ما كان يحدث من مليوني سنة، ولن يعرفوا أي شيء عما نحن عليه الآن!...

- هل تعتقدين حقًّا أنه من الممكن أن تتواجد حياة كائنات أخرى غيرنا في الكون؟!

- لا أعرف تمامًا، لكنني لا أعتقد أن كل هذا الكون موجود فقط من أجل كوكب لا يمثل ٠٫٠٠٠١٪ من حجمه، وما عليه من كائنات، لا يمثل عشر حجم كوكبهم الصغير نفسه!

- فهمت . أي أن تلك الصحراء الشاسعة تشبه الكون . وإذا أمسكت حبة رمل واحدة بين إصبعي، ستكون هي بمثابة حجم الأرض. ولكن حبة الرمل تلك، تسكنها كائنات تعتقد أن كل تلك

الصحراء خُلقت من أجلها ! يا له من تفكير يصعب عليَّ استيعابه!!

- إذا كنتِ قد خُلقت قطة، لم تكوني لتعرفي أي شيء عن هذا. ولكن ما أتعجب له حقًّا، أن أغلب البشر يولدون وحياتهم لا تتعدى مرحلة الحياة القططية! إذ ينسون أن بإمكانهم النظر إلى السماء للتأمل، ليس لطلب حاجاتهم الشخصية فقط، مثل أن يرزقهم الله بالطعام والماء العذب والأطفال!!

- يا ليتني ولدت قطة! ألم يكن هذا أسهل عليَّ كثيرًا من أن أحمل عبئًا كهذا؟! كنت فقط سأعيش في إطار معين يحكمني فيه كل شيء ولا أهتم لأي شيء، حتى أعود وكأنني لم أولد أبدًا!...

- ومن قال لكِ أنك تختلفين كثيرًا عن الوصف الذي ذكرتِه الآن؟ هل تعتقدين أن القطة مسيَّرة بينما أنت مخيَّرة؟ إن كل الفرق بينك وبينها هو أنك تتساءلين عن كونك أيا منهم، وأنك تسألين لماذا وكيف ومتى، ليس أكثر!!

- تلك الأسئلة التي ليس لها إجابة أليس كذلك؟ أي شقاء هذا!

- إنها عظمة كون الإنسان إنسانًا يا طفلتي. فللتفكير الحر لذة، لا يعرفها سوى من ترك نفسه لها، حتى يصل إلى ذروة النشوة العقلية!

لم يقطع حديثنا سوى صوت هاتفها. لم ترد أن تغلقه لكي لا يقلق علينا والدي، فاضطرت للرد. لم أسمع ما قالته له، فأنا كنت مستغرقة في عالم ليس كعالمهم، وليس من السهل التواصل فيه مع أحد . زادت حدة صوتها قليلًا، فانتبهت أنها طمأنته بأننا سنتحرك في الحال، وأغلقت الخط.

- ماذا حدث؟ سألتها.

- تعرفين أباك، لا يجيد سوى تعكير صفو مزاجي!

لم أعلّق على ما قالته. اتجهنا للسيارة، وبدأنا بالحركة . وجدتها تكلم شخصًا لا أعرفه، تطلب منه أن يذهب لجمع كل ما وضعه داخل الصحراء ويتركه في مخزن تملكه بالقرب من منزلنا ... بدأت بالحديث معها؛ لأنني لطالما استمتعت بسماع نبرة صوتها الرقيقة..

- لماذا لا تكتبين كل أفكارك في كتاب وتنشرينها للناس؟ سألتها.

- ماذا عساي أن أكتب يا صغيرتي؟ إذ إنني كل ما أفكر به وأطرحه، أجد بالصدفة أن أحدًا ما قد سبقني إليه، من مئة سنة، أو50 أو حتى ألف !! التفكير الفلسفي قد توصل لكل شيء من الممكن التوصل إليه، ونحن الآن في عصر العلم، ولا مكان لفلاسفة هنا. العلم جعل الفلسفة بشكلها القديم

تنقرض، فلسنا بحاجة لأن نؤلف أساطير كي نجيب بها عن تساؤلاتنا، كما فعل الفراعنة والإغريق والرومان.

- فكل ما يناقض العلم غير مقبول؛ لأن العلم هو الشيء الوحيد القائم على نقد نفسه، فلا سلطان له، ولا قدسية؛ مما يجعل وجود فلاسفة بالمعنى القديم في زمننا هذا مستحيلًا؛ لأن إعطاء إجابات من دون دليل علمي بات يعتبر جنونًا وليس عبقرية. ولكنها أسئلة لا تحمل في طياتها أي احتمال للإجابة . ومن الغريب أن هذا الجنون، هو ما أتى إلينا بأعظم فلاسفة في التاريخ، ووجود فيلسوف في زمننا هذا يحتم عليه التقيد بمعطيات معينة؛ مما يقوده للجنون الحق، وليس الجنون الجميل!...

- ردت و هي تنظر نحو الطريق الدقيق، الذي دخلنا فيه لتونا . وكانت لا تستطيع الرؤية بوضوح؛ لأن السيارات أمامها كما سيارتها تمامًا، تعمل أقوى إضاءة لمواجهة تلك العتمة، وتضعها في أعين من يواجهونها في الجانب المعاكس، ثم استطردت قائلة:

تعرفين؟ أتمنى أحيانًا لو أنني أعيش في عصور قديمة . فقد كانت إجابات أسئلتي لتبدو أسهل بكثير . فأي شيء يهيئه لي عقلي، كان سيبدو صحيحًا، ولكننا في زمن فنيت فيه كل

التخيلات، وسقطت أمام التجارب العلمية. لذلك كنت أتمنى لو أنني عالمة. فأنا فيلسوف قديم، في زمن جديد، لا يليق به. لأن رغم عظمته الداخلية، سيكون محط استهزاء الجميع، بمخيلته الجامحة بالنسبة لهم. لهذا فقط أورثك التفكير، لتصبحي عالمة يومًا ما، فنحن في عصر لا يليق إلا للعلماء، وليس للمختلين أمثالي؛ لأنه ما زال أمامك الوقت!

أما عن التطور الإنساني، ففي كل عصر يخرج متمرد . فإما أن يتحدث بحدة ليلاقي تكفيراً واغتيالًا، وإما يتحدث بلغة العامة، وعلى قدر جهلهم، فلا يضيف ما يذكر حقًّا، ولكنه على الأقل يموت "محموداً"!! كل شيء قد كتب، لكن الناس لا تقرأ، وإن قرأوا لا يفهمون، وإن فهموا فإن التغيير لا يأتي إلا من داخل كل شخص بمفرده، وليس بأقلام أقلية في مجتمعات بائسة، لا يشتهر فيها سوى المتحدثين باللغة المفهومة، تلك اللغة العشوائية، التي لا تضيف أكثر مما تندمج مع الشعث الراسخ في الجميع سلفًا!

التطور الإنساني لمجتمع ما، لا يأتي عندما يظن عبقري أنه أفضل من الجميع. ولذلك سيساعدهم ليصبحوا مثله بأن يكون قدوتهم؛ لأن ذلك العبقري، قد غفل عن حقيقة أن البشر كلهم يظنون أنه إذا اتبعهم الجميع سيصبح العالم أفضل حالًا؛ لأنهم

وحدهم على حق، ولا يعلم ذلك العبقري أن الاختلاف هو سر الكون. وأن التغيير المجتمعي ذاك، لا يحدث إلا عندما تكون الثقافة الذاتية هي الأولى، ويعي كل شخص في هذا المجتمع أنه في صراع دائم مع الشر الذي بداخله، لا مع الشر الذي من حوله...

سكتنا طويلًا سارحين في الطريق، لا أعرف فيما إذا كانت تفكر في أي شيء أو لا. لكن أنا لم أستطع التوقف عن ذلك، حتى فكرت أنني توصلت لشيء يستحق أن أرفع صوتي وأنا أفكر به..

- أمي، إذا افترضنا أن هذا الكون كله لا يحمل أي حياة، إلا على كوكبنا نحن فقط الصغير جدًّا، ألا يكون ذلك مؤشرًا قويًّا، على أنه ليس صدفة، بل العكس تماماً هو الصحيح؟ إذ إن وجود عالم ضخم وعظيم، كالذي حدثتني عنه الآن، بدون القدرة على خلق أي حياة، بينما على الأرض فقط وجدت، ووجد فيها العقل البشري، الذي بدوره يمثل عالمًا شاسعًا، عظيمًا في ذاته، داخل الكون، ألا يكون ذلك دليلًا قاطعًا على عدم احتمالية أن لا يكون وراء كل ذلك قوى أعظم لا تفعل شيئًا بشكل عبثي؟ لا يمكن أن يكون جمال الطبيعة بداخل الأرض، وجمال الكون خارجها، قد تشكلوا وحدهم. ولا يمكن أن يُطبع

في عقل الإنسان قانون السببية أيضًا، أيًّا كان معتقده، من غبار النجوم فقط، أليس كذلك؟

- ابحثي عن إجابة لسؤال اليوم أولًا، ثم سيكون هذا النقاش لعام قادم.

..

صحوت من النوم وسط الليل وقد شعرت بشعور غريب، بأنني مبتلة تمامًا، وظهري يؤلمني بشدة، لم أستطع تحمله . ولكنني لم أتعجب أبدًا . فقد حدثتني أمي من قبل عن هذا، وبأن موعده قد اقترب، وتركت لي في أحد أدراجي "فوطًا صحية ". وعلمتني كيف استعملها، ومسكنًا للآلام. وبرغم أنني أعرف كل شيء وأستطيع التصرف كشخص ناضج في هذا الموقف، المهيئة له نفسيًّا، إلا أنني لم أستطع مقاومة الشعور بأنني طفلة، تحتاج بشدة لأمها، لأنها لا تعرف ماذا يحدث في هذا العالم، ولماذا هو على ما هو عليه ! هرعت إلى غرفة أمي لأوقظها، رغم عزمي أول الأمر ألا أفعل . دخلت إلى الغرفة، ووجدت أبي مستيقظًا، يشاهد فيلمًا على شاشة التلفاز الضخمة، أمام السرير، وكانت أمي مستلقية على بطنها بجانبه، وينام شعرها بجانبها. لم أعرف كيف أقول لأبي أنني أتيت لأوقظها دون أن أعلمه لماذا أفعل ذلك، ولكنني تمالكت نفسي وتظاهرت بأنني لا أتألم. صعدت على السرير وأنا أنظر لأبي، بنظرة بلهاء، مرتسمة ابتسامة مصطنعة . همستُ لأمي في أذنها فقامت:

- ماذا هناك يا حبيبتي؟ سألتني وهي تفتح إحدى عينيها نصف فتحة لأن نور التلفاز أزعجها.

- أريدك في غرفتي الآن. ثم نزلت من على السرير وخرجت . فسأل أبي عما يحدث، ولكنني لم أتحدث. وسمعت أمي تقول له إنها ستعود على الفور. خرجت ورائي، وذهبنا إلى غرفتي . حدثتها عن الأمر، فابتسمت وقالت لي:

- كبرتِ يا صغيرتي وأصبحتِ أنثى! هل فعلتِ ما اتفقنا عليه؟

- نعم، فعلت كل شيء.

- ماذا هناك إذن؟ ألا يزال هناك ألم؟

- نعم، إنه ليس كما توقعته مطلقًا. ما هذا؟ لماذا أعاني هكذا، هل سيحدث هذا كل شهر فعلًا؟

قبّلتني أمي وطلبت منّي أن أقترب، ثم جعلتني أنام على بطني، فوق السرير، وأخذت في تدليك ظهري برفق حتى يدفأ. ثم بدأ الألم في التلاشي رويدًا رويدًا. قالت لي بينما يداها منشغلتان بمنطقة الرحم في جسدي:

- قريبًا ستعتادين على كل هذا . فهو جزء من كونك الكائن الأقوى. أنتِ بطبيعتك تحتملين ألمًا لا يستطيع أي ذكر تحمله بشكل دوري لا ينقطع. وفيما بعد، ستتحملين ضعف ذلك من آلام، عندما تحملين؛ لتلدي كائنًا خارقًا وجميلًا مثلك . ستتعلمين مع الوقت كيف تحتملين الألم؛ لأنه جزء من طبيعتك وتكوينك . لأن الرجال يؤلموننا دائمًا، أيضًا، ومن ثم ينتظرون منا أن

نداويهم ونحن ننزف . سيعلمك الألم أن لا تكوني أنانية . ستعطين قدرًا من الحنان والحب لم تعرفي أنك تملكينه . وتدارين في هذا الحب احتياجك له، بينما لن يعطيه لك أحد كما تعرفين أنت كيف تعطينه. القوة التي تسكن فيك يا صغيرتي، أعظم مئات المرات من قوة لكمة رجل لآخر؛ لأن الرجال قوتهم تدمر العالم، بينما قوتك أنت تبني الحياة، وتعطيها، وتخلقها من لا شيء.. كوني قوية، وتحمّلي، واعلمي أنك على أبواب عالم مختلف عن العالم الذي عشتِ به طفلة مدللة. يجب الآن أن تصيري أنثى بحق. والألم هو السبيل لخلق تلك الأنثى . لكن تفهمك لهذا الألم، واستيعابه سيجعلانك لا تتألمين، بقدر ما سيجعلانك تعرفين كيف تساعدين الناس على تخطي آلامهم . الإنسان خُلق من الألم، فالحزن هو سر هذا الكون، وسر كل جميل. ومن الألم ينشأ كل شيء جميل، وكل شيء ذي قيمة ومعنى.. فتلك هي طبيعتنا، خُلقنا به ومنه وله.. لا يصنع فنانًا إلا ألم، والفن هو الجمال، فلا جمال بدون ألم، وكلما زاد الألم ازداد الفن جمالًا والجمال فنًّا... عليك أن تتألمي لأوجاع العالم لا لأوجاعك وحدك من الآن فصاعداً، هل سكن ألمك قليلًا؟

- أعتقد أنه سكن ذلك الذي كان في عقلي، أكثر منه في جسدي. قلت لها وأنا أقلب جسدي ليواجهها، فقمت وقبلتها،

واحتضنتها لامتناني لكونها أمي . وربما لأنني أردت أن أشعر بدفء هذا الحضن لأشعر بالأمان. ثم تابعت قائلة بينما أنام على صدرها:

- آسفة لأنني أيقظتك من النوم.

- منذ يوم ولدتك، والنوم لم يعد كما كان أبداً . استيقاظي لك في كل وقت، وأي وقت، هو دافعي للحياة . وليس النوم هو الراحة، بل رؤيتكِ أنت مرتاحة البال.

بينما نظرت إليها وهي خارجة من غرفتي لتعود لأبي . ظللت مبتسمة لها وهي ترسل لي قبلة في الهواء، قبل إغلاقها للباب. لم أستطع التوقف عن التفكير في ابنة عمي المسكينة، التي لم تأخذ من الدنيا ربع حظي في أمي. فقد حكت لي، منذ أعوام، أنها دخلت المرحاض يوماً، بعد أن شعرت بشعور غريب لم ينتبها من قبل. كانت في الثانية عشرة من العمر، فوجدت نقاط دم، وعرفتها، لكنها كانت متوترة، وليست مدركة تماماً للموقف . ذهبت تقول لأمها، ثم دخلت إلى غرفتها، انكمشت على نفسها جالسة على السرير في خجل، فإذا بأمها وأبيها يدخلان غرفتها، وأمها فرحة، وأبوها لا يرتسم على وجهه أي ملامح . لم تفهم لماذا قالت لأبيها بهذه السرعة، ولماذا أحرجتها إلى هذا الحد؟! كانا يفتشان في الأدراج بنهم. فهمت أنهما يبحثان لها عن قطعة

قماش لتضعها على رأسها وهي ذاهبة إلى المدرسة في اليوم التالي.. لم تجلس إليها أمها لتحدثها عن النظافة الشخصية وما يجب أن تفعل. ما هذا، ولماذا يأتيها، وبماذا ستشعر كل شهر. فظلت إلى أن كبرت، تغرق سريرها دمًا كل شهر، وتمشي في البيت ببنطال ملطخ بالدماء، ولا تجد ما تقوله، عندما يسألها أخوها الصغير، إن كانت قد انجرحت . فتذهب مسرعة لتغير ملابسها، ولا تعرف ماذا تفعل لتتوقف عن تلك العادة السيئة ! لم تجد من أمها سوى التوبيخ على ما يحدث. لم تفهمها يومًا ما يجب فعله، ولم تجد هي مساحة كافية لتسألها. فقد أثبتت لها أمها مع الأيام، أنها لا تصلح للأمومة، وربما لا تصلح لأي شيء، سوى ارتداء الملابس السوداء وقراءة القرآن... لم يكن أبوها أيضًا أبًا، له وجود حقيقي، سوى في بخ السم الذي حاولت تفاديه دائمًا، بوضع حائط لا وعي بينها وبين كلامه، الذي لا يصلح لإخراج سوى مريضة نفسيًّا لمجتمع يعشق الأمراض النفسية!...

قد اكتفى كلاهما، في هذا الموقف العظيم، بالنسبة لها، أن يخرجوا لها طرحة بيضاء، لكي ترتديها على شعرها، الذي أصبح في لمح البصر حرامًا للناظرين. وظلت هي على مدى أعوام متتالية، حين يسألها أحد لماذا ارتديتِ الحجاب؟ تجيب "لا

أعلم!". لم يهتموا لآلامها، أو نفسيتها، أو كونها ما زالت طفلة، تحتاج إحساساً بالأمان. بل جل ما اهتموا به، أنه قد أتى ذاك اليوم أخيراً، الذي عليها ارتداء الحجاب فيه، لأنها لتوها بدأت في أن تحاسب على كل شيء تفعله. فقط المقارنة بين ما حدث مع أمي، الآن، وما حدث لها منذ أربع سنوات، يزيد ألمي الجسدي والعقلي بشدة.

ورغم أن أمي حاولت من قبل أن تشرح لزوجة عمي، كيف تتعامل مع ابنتها، وسمعتها من قبل، بعد أن حكت لها ما فعلوه معها، تقول لها: إن البلوغ المطلوب لكي ترتدي فتاة حجاباً، كفرض ديني، لا يقاس أبداً بدم دورة شهرية تأتي لها، وهي مازالت طفلة، لا تفهم في هذا العالم، أنها أداة للجنس، وبأن رحمها جاهز لإنجاب أطفال، فبالتالي عليها تغطية شعرها!! في الواقع، ليست هي فقط من يصعب عليها فهم شيء كهذا، بل أي إنسان طبيعي لن يستوعب عقله هراء كهذا.. الرشد والبلوغ المطلوبان لكي تحاسب من ربها على فرض لا يقاس ببضع نقاط حمراء، بل بعقل يفهم لماذا عليه فعل هذا من ذاك، في المقام الأول، وعليها الاختيار بعد ذلك؛ لأنها من سيحاسب .. الوعي بالأشياء، هو ما يحدد إن كان يقع الفرض على الشخص أو لا... ولكن زوجة عمي هاجمتها بشدة، وكادت

بعدها تحاول منع علاقتي القوية بابنة عمي، لأنني أكيد، سأكون ذات تأثير سيء عليها، لأنني أُربَّى على يد امرأة، متبرجة، لا تفقه في الدين!

لم أذهب للمدرسة في اليوم التالي؛ لشدة تعبي الذي لم آلفه بعد . وكنت أخجل جدًّا من أن كل الناس ستنظر لوجهي، فيعرفون ما حدث لي، لكن المثير في الأمر، أن مديرة المدرسة في مرحلتي التعليمية، هاتفت أمي، وطلبت منها أن تحضر للمدرسة في اليوم التالي، لأنها أرادت أن تناقش معها حالتي الدراسية، التي لم ترضَ عنها تمامًا، ولأنني أتغيب كثيرًا عن الحضور، عكس كل الطلبة.

ذهبت معي أمي بالفعل في اليوم التالي . وأصرت أن أكون معها في هذا الاجتماع، و ألا أذهب لحضور صفّي. دخلنا غرفة مديرة المرحلة، ورحبت بأمي بود، وكذلك بي، وطلبت منّي أن أتركها، ولكن أمي قد أبت. وقالت لها إنها تريدني معها.

- سعيدة لتلبية طلبي. قالت الأستاذة نهى.

- لا عليك، هذه مصلحة ابنتي الوحيدة قبل كل شيء. هل بدر منها شيء سيئ؟

- لا شيء محددً. لكن علاماتها الفترة الأخيرة لم تعد جيدة. ثم إنها تتغيب كثيرًا، وأردت أن أعرف السبب وأتأكد أنها لا تتغيب من ورائك.

- أنا أوصل ابنتي إلى المدرسة كل يوم، وأقلها مجددًا إلى البيت بنفسي، ولكنني أترك لها حرية اختيار الحضور إلى المدرسة من عدمه.

- لا أفهم! كيف ذلك؟ ألا تعرفين مصلحتها؟

- مصلحتها أعرفها أفضل بكثير من مدرسيها، وكتبها المدرسية الفارغة. قالت ذلك وهي مبتسمة رغم حدة الجملة، ووقعها السيئ على المديرة.

- لم أرَ يومًا أمًّا تشجع ابنتها على الرسوب! ألا تريدين أن تكون ابنتك ناجحة؟

- بل أريد ذلك بشدة. لذلك أعلمها أن تعتمد على عقلها، وعلى البحث بدون التلقين المدرسي، الذي خرجنا كلنا منه، بدون معلومة واحدة تنفعنا في الحياة. لو كانت الدراسة علامة على النجاح، فلماذا مجتمعنا كله فاشل، بمن في ذلك الأطباء والمدرسون؟ النجاح يأتي عندما يريد الشخص أن يصل لشيء ما محدد في الحياة، فيعمل على أن يصل إليه بجد، فيرسم بذلك طريقه الخاص به لنفسه، ثم يبدأ بأخذ أول خطوة عليه، لا

أن نرسم نحن طريقًا واحدًا ونطلب من كل الأطفال أن يمشوا عليه، حتى تمر بهم السنون، فيجدوا أنفسهم قد كبروا فجأة وضاعت منهم أعز سنين عمرهم، وأصبحوا مطالبين، إما أن يظلوا على هذا الطريق المتعرج، الذي لا يناسبهم، أو أن يبدأوا من جديد، وذلك يتطلب شجاعة، وعمرًا فوق عمرهم، الذي ضاع منهم بسببنا!!

- نظرت لي المديرة ولا تعرف بماذا ترد على أمي ! بدت محرجة تمامًا من وجودي، الذي رأته أنه يشجعني على الفشل؛ بسبب سماع تلك الكلمات أمامها. ثم قالت: هي في مرحلة لا تعرف فيها ماذا تريد بعد، ودراسة مناهجنا الدراسية ستساعدها على إدراك ما تريد أن تسعى فيه لاحقًا، ولكن تشجيعها على عدم النجاح في المدرسة، سيجعلها متمردة على كل شيء . ستندمين عندما تجدينها بعد ذلك فاشلة، لا تعرف ماذا تريد في الحياة.

- يا سيدتي الفاضلة، رأيت أمهات لبنات بعدد شعر رأسي الكثيف جدًّا، يصرخن في بناتهن، من أجل علامات مرتفعة في الدراسة، ثم أسألهن لماذا كل هذا الضغط النفسي؟ ماذا تتوقعن منهن بعد تلك العلامات الرائعة، التي لا ترضي غروركن مهما ارتفعت؟ يعربن بأنهن يردن لبناتهن أن يتزوجن ويجلسن

في بيوت أزواجهن، بعد انتهاء سنوات الدراسة البائدة، التي سرقت منهم الطفولة، والشعور بالحياة . أغلب البنات اللائي تفخرين أنتِ يوميًّا بعلاماتهن، سيصبحن فيما بعد أمهات فاشلات مثل أمهاتهن؛ وبالتالي سيكون دورهن في المجتمع منعدمًا، سواء عملن أم لا. ليست بالعلامات الدراسية تقاس الأمور. إذا أردتِ الوصول معي لنهاية الحديث، فها أنا أقول لك، لا عليك من علامات ابنتي في الأسئلة التافهة التي عليها كتابة إجاباتها على ورقة آخر كل عام، فهي لا تدل إلا على أنها لا تعطيها الشعور بالنشوة، ولا تحفزها على البحث، وحب المكوث عليها لتعلمها. ليس فشلًا منها، بل فشلًا في المنظومة الموضوعة لها بأكملها. فهي ناجحة خارج المدرسة، في مجالات عدة، تكفيها لكي تكون في يوم من الأيام في موضع لم تريه أنتِ في حياتك في أي شخص عرفتِه من قبل. اعتبريها فاشلة الآن إذا أردتِ، وطالما أنها تتخطى العلامات التي تؤهلها للوصول إلى المرحلة التالية في الدراسة، لا يمكنك أن تشتكي منها، ولا أن تفصليها من المدرسة.

- ولكن عدم حضورها المتتالي يعطيني الحق في فصلها، عندما تتخطى عدد الأيام المسموح لها بها للتغيب.

- لا عليكِ، لن تتخطاها، هي تعي جيداً ما تفعل و أنا أثق بها.

- ظننت أنني سأتحدث إلى أم تخاف على مصلحة ابنتها أكثر من ذلك، لكن إذا كان هذا ما تريدين، فلن أهتم لعلاماتها بعد ذلك، إلا إذا رسبت في مادة من المواد الأساسية. تشرفت بلقائك.

- وأنا أيضًا، وأشكرك على تفهمك.

خرجت مع أمي وأنا أشاهد النظرات الودية المصطنعة، من كلا الطرفين. ولا أستطيع أن أكون أكثر فخرًا بأنها ليست مثل كل الأمهات اللائي قابلتهن المديرة على مدار عمرها في التدريس. فالاختلاف هو أساس كل شيء يدعو للتطور في أي مجتمع . ربما ينظر الناس اليوم للاختلاف كشذوذ مكروه، ولكنهم قطيع. عندما يتغير المتعارف عليه حولهم، يصبحون أيضًا جزءًا منه، ومتفرغين للدفاع عنه، كما فعلوا مع الفكرة المضادة له، التي عرفت من قبل!

❁❁

(٣)

استقيظت صباح اليوم، التاسع عشر من يناير، عام ٢٠٣٠، أي عيد مولدي الخامس عشر. كنت أعرف أنني سأجد هذا الظرف بجانبي عند صحوي، بالطبع، لأنها أصبحت عادة مقدسة. أنرت الضوء الخافت بجانب سريري وفتحت الظرف، لأجد ورقة صغيرة بلون زهري، يليق بأنوثتي، التي بدأت تظهر، وتلفت الأنظار إليَّ أينما أذهب، مكتوب عليها:

"أنتِ التاريخ والحاضر وكل ما هو آتٍ. أنتِ العالم من حولي، الذي يسكنني وأقطنه، ولا يفصل بيننا هواء أو سماء .. أنتِ الحياة يا حياة.. من أمك."

فتركت الورقة بجابني، لأفتح الورق الكبير المطبوع، لأبدأ بالقراءة:

"طلبت منك العام الماضي، أن تكتشفي بنفسك، الفارق بينك وبين النبات والحيوان، بل والجماد أيضًا. وكان من السهل جدًّا

أن تأتي أول فكرة بأنك حرة الإرادة والتصرف، بينما هم محكوم عليهم بكل شيء، ويتصرفون وفق طبيعة معينة، لا يستطيعون تحديها. أما الإنسان فلديه القدرة على أن يعيش كالحيوان في الغابات، وأن يعيش كالعالِم في المدن المتحضرة. وبينما لا يستطيع الأسد أن يختار إلا أن يأكل لحوم فرائسه، ولا تستطيع الغزلان إلا أن تأكل النباتات وأن تُؤكل من الأسود؛ يستطيع الإنسان الاختيار بين كل شيء وعكسه، وبإمكانه أن يكون نباتيًّا، بينما بإمكانه حتى أن يأكل لحوم البشر!

لا يستطيع سوى الإنسان أن يخترع ويبتكر ما يسهّل عليه حياته، من أول إشعال النار، في الأحقبة البعيدة جدًّا، إلى الكهرباء، والطائرات والصواريخ أيضاً. ولا يستطيع إلا الإنسان، أن يسن القوانين الأخلاقية، والاجتماعية، على حسب اعتقاداته، في زمن ما ومكان ما أيضًا. فكل شعب له قوانينه المختلفة تماماً عن غيره من الشعوب، وكل بما لديهم فرحون. مقتنعون أن ما توصلوا إليه، هو ما يجب على كل البشر اتباعه لأنه الصحيح، بينما في عالم الحيوان، القوانين الطبيعية التي تحكم الأغنام في الصين، هي ذاتها التي تحكمها في الأرجنتين، بدون اختيار لها، ولا عادات أو تقاليد، تعتقد الأغنام في آسيا في صحتها،

أكثر مما يعتقد بها أقرانها في أمريكا الجنوبية . وبينما تودي الكوارث الطبيعية بحياة الإنسان والحيوان، نجد أن الإنسان وحده، هو القادر على خلق كوارث صناعية، وإنسانية بسبب إستغلاله السيئ والجشع للطبيعة، أو بسبب أفكار غبية، كان يعتقد في صحتها؛ ليودي أيضًا بحياة الملايين من البشر والحيوانات والنباتات..

إذن، هل تعتقدين بعد كل هذا، أنك مسيرة تمامًا، بأنك خلقتِ لتعيشي ما هو مكتوب في السماء من قبل ولادتك، أم أنك مخيرة تمامًا بأنك إنسان حر عاقل، له أن يفعل ما يعتقد في صحته، وله أن يتجنب فعل ما يعتقد في خطئه، دون وصاية أحد من الأرض أو السماء عليه؟ فدعينا نكن صريحتين، لن يمسك بذراعيك ملك، ليجعلك تقدمين على الخير، ولن يحرك قدمك شيطان نحو الغرائز المحرمة. بل إنما كل شيء يكمن في عقلك، وبه وحده أنت تملكين كل الخيارات . هل الأمر كذلك؟

إذن، إذا كنتِ مطلقة التخيير، لماذا لم تختاري أمك؟ أنت لم تختاري حتى اسمك، أو دينك، أو شكلك، أو نوعك، أو جنسك، أو بلدك! لم تختاري أن تولدي بذراعين وقدمين فقط، أو أن تكون لديك حساسية من بعض الأكلات، وبرغم حبك لها، لا

تستطيعين تناولها! إذا فكرتِ في كل شيء لم تختاريه، بدقة وتفاصيل أكثر، ستجدين أنك كالجالس على كرسي مكبل اليدين والقدمين ومغمى العينين، ولا يستطيع فعل أي شيء سوى أن يصرخ من موضعه هذا، بقول: "أنا حر". أنت مسيرة تماماً بعقل يتوق للحرية، كما يطوق الطير المحبوس في قفص إلى الطيران. جسدك هو عائقك الوحيد!

الآن قولي لي، هل أنتِ مسيرة أم مخيرة؟ ربما تكونين مخيرة، في إطار التسيير الذي وضع لك غصباً، كما يفسر البعض، وكأنهم وجدوا الإجابة المطلقة لهذا السؤال! وكم يبدو ذلك من البله! وكأنك تقولين لخروف داخل قطيع : أنت مسيّر، محكوم عليك بكل شيء، من طريق، تمشي فيه، ومكان تقف وتنام فيه، وأكل تأكله، ويوم نقرر نحن فيه ذبحك، لكنك مخير تماماً في أن تتعثر في الطريق، وتقع أرضاً، أو أن تلمس رأسك مؤخرة الخروف الذي أمامك، أو أن تحاول الخروج عن القطيع، لتجد العصا تجلد جسدك ليعود لك رشدك. أي حر تماماً أليس كذلك؟!

إن أخذنا هذا السؤال في نطاق الإنسان، وبغض الطرف عن الزمن الذي نعيشه الآن، حيث لم تكن هناك حدود، ولا أجناس ولا أديان، ولا تفريق في الأنواع. ولد إنسان في عالم ملكه

تماماً، يستطيع الذهاب إلى أي مكان يريد، ووجد نفسه العاقل الوحيد، بين كائنات يستطيع التحكم فيها جميعاً، وترويضها وقتلها، وهو حر تماماً في أن يفعل ما يريد.

فإذا لم يكن للإنسان حرية مطلقة، لما استطاع التحليق في السماء كما الطير، أو الغوص في المحيطات كما الحيتان . الإنسان مخلوق مطلق الحرية، ولكنه هو من هاب تلك الحرية المطلقة، فبدأ بتكبيل نفسه، بأشكال ملبس، وأسماء وقبائل وعادات، وحدود بين الدول، وعساكر، ونظرة احتقار لكل مختلف! الإنسان لا يختار والديه، ولا هم يختارونه، لكن له الحرية في أن يترك لهما المنزل إذا أساءا معاملته . لا يختار جنسه، لكن هو الكائن الوحيد الذي يستطيع التحول من ذكر لأنثى أو العكس - إذا رغب بذلك - حتى وإن لم يغير هويته فيسيولوجيًّا . يمشي على قدمين، لكن إذا أراد أربع، يفعل . يحكمه قانون الجاذبية، لكنه استطاع كسر القيد، وصنع غرف داخل الأرض بدون جاذبية، وصعد إلى القمر..

الإنسان، هو ذاك الكائن الذي يستطيع التأمل، والحلم، وتحقيق هذا الحلم، بل وكسر كل قيد وجده مجبراً عليه . وهو ذاك الكائن أيضًا، الذي يمكنه أن يقيد نفسه بألف قيد، منذ أن يعي هذا العالم، إلى يوم يخرج منه، بألف حجة، من الممكن أن

تكون مقنعة بالنسبة له هو .. الإنسان مسير، إذا أراد التسيير، ومخير إذا أراد التخيير. الإنسان يصنع لنفسه الحقائق التي يريد أن يثبت صحتها. الإنسان وحده القادر على أن يختار أن يكون مسيرًا، ثم يسبّ هؤلاء الذين اتبعوا التخيير، ثم يستخدم كل ما صنعوه، بسبب تطلعهم إلى الحرية، وكسر القيود، ثم يعود يسبّهم مرة أخرى ! الإنسان عالم قائم بذاته، بداخل عالم تحكمه قوانين فيزيائية، لا يمكن كسرها، إلا عندما يختار العالم الأول أنه يريد أن يفعل!

عالم الأفكار، هو ذلك العالم، الذي تكون حريتك فيه خالصة كاملة، ليس لها مثيل. أفكارك تجول في عالم وحدها، إذا كنتِ لا تعلمين، وتلك الأفكار التي تستخلصينها لنفسك، هي التي تحدد رؤيتك للعالم من حولك. فماهية الأشياء ذاتها لا تتغير، ولكن العيون المحكومة بالعقل الواعي واللاوعي هي التي تحدد كيف تبدو تلك الأشياء. إنه العقل البشري يا صغيرتي، أترين؟ بوسع الإنسان أن يرى العالم مسيطرًا عليه في كل شيء، ويلقي كل القرارات والدوافع لقوى تعلوه حكمة وعظمة؛ لما يرى في نفسه من ضعف وهوان في هذا العالم الضخم، فيكون مسيرًا كآلة أو أداة، تستخدمها قوى الطبيعة لصالحها. ويمكن لنفس الإنسان، أن يكون مخيرًا تمامًا فيما

بعد جيناته وشكله وأبويه. فهذه الأشياء الثابتة، لا تعني أنه كان مسيرًا بها. فهي مثلها، مثل أننا جميعًا، ولدنا على كوكب الأرض، داخل مجرة درب التبانة، دون أن نختار ذلك. لكن ما يلي هو ما يمكننا تحديده لأنفسنا. اختيار الخير أو الشر، العلم أم الوهم، القوة أم الضعف، التفكير أم الانضمام للقطيع، إعمار الأرض أم تدميرها، البحث عن إجابات أو تلقيها. تلك هي الأشياء التي تعطينا القوة التخييرية، التي نحتاجها لأنفسنا، لننعم بالعقل، الذي يُعد في ذاته، أعظم لغز في الكون، الذي يسير وفق قوانين ثابتة، لا يستطيع التحكم بها. بينما الكون الذي يسكن العقل، يستطيع كسر كل قوانين الطبيعة وما فوقها، ليتلاءم مع اختيار الإنسان لما يريد أن يكون... لن أنتظر إجابتك كما العام الماضي. ولن أملي عليك احتياجي لأن تكتشفي إجابة هذا السؤال لنفسك. فالمعرفة والتيقن من أنك مخيرة، وبأن عقلك عالم قائم بذاته، حر تمامًا، هو أول الخيط لكل شيء فيما بعد! كل شيء في هذا الكون محكوم بنظام معين. حركة أجسادنا، مكان ولادتنا، الزمن الذي ولدنا به، المكان الذي نأكل منه، ونخرج منه غريزة بقائنا لنظل أحياء، هي ليست إلا نظامًا محكمًا موضوعًا في عقلنا مسبقًا، لا نستطيع الاستغناء عنه . لكن العقل البشري، هو الهدية الأثمن على الإطلاق، التي

تلقاها الإنسان، ليكون بذلك المعجزة الإلهية الأسمى والأهم . لأنه بهذا فقط، خُلق على صورته، وليكون خليفته. لا توجد حرية في أي شيء، إلا بداخل عقلك، الذي أنتِ بنفسك تقررين أتسجنينه للأبد لكي لا تختلفي عن الكائنات الأخرى من حولك، أم تحررينه لتكوني إنسانًا، كما أراد لك أن تكوني في الأصل . ولكن لكي تصلي لهذه المرحلة، يجب عليكِ أن تصلي للإدراك الكامل أولًا.

نحن من نقيد أنفسنا داخل عوالمنا. فأنا إذا ركزت كل طاقتي العقلية في موضوع ما، ولنفترض أنه الصراع العربي الإسرائيلي، وركزت أكثر على كل ما يدور في المنطقة، وما يقوله هؤلاء، وما يعتقده هؤلاء، وما يتمنى الاثنان، وما تنص عليه كتبهم المقدسة، والخطط التي تحاك من كل طرف لتدمير الطرف الآخر . سأكون قد أدخلت نفسي في عالم أصغر، بداخل العالم الصغير أصلًا، الذي بدوره بداخل عالم أكبر فأكبر. وأنسى نفسي في تلك الدائرة المغلقة، ثم أنظر حولي، ولا أجد إلا هذه المعضلة، تحوم حولي في كل مكان . وكما أن العمر قصير جدًّا، لا أنفك أن ألاحظ أنني أترك الدنيا، ولم أرَ منها شيئًا، ولم أتعلم شيئًا، ولم أضف شيئًا، فالدائرة كانت صغيرة جدًّا، ورغم صغرها، كانت أكبر مني بكثير، حيث تهت بها تمامًا، ولم

ألاحظ أن ثمة ما يدور خارجها، لأنتبه فجأة إلى حقيقة أنني لم أعش قط!..

ولكن يمكنني، وباختياري، أن أكسر تلك الأسوار، و أفتح عيني على عالم أوسع، لا يستطيع أن يشملني، حيث أكون أنا هو، وهو أنا. ولا أعتقد أن بقدرات العقل اللامحدودة، أي شيء غير متاح، سوى فقط الحدود التي يضعها ذلك العقل اللامحدود لنفسه، بسبب الخوف المكتسب من التربية والعادات المحيطة . فالإنسان يولد حرًّا طليقًا، وهو من يختار التقيد والموت قبل الأوان.. نحن العالم، ونحن من نوجد الآن، سبقنا الكثير، لكنهم رحلوا، وسيأتي أكثر، لكن لم يأتِ أوانهم بعد. هذه هي فرصتنا الوحيدة لنتحد مع الكون، لا أن ننفصل عنه، فهذا سيأتي دوره فيما بعد وسننفصل..

اسبحي في عالم الخيال وافتحي عينيك، أسعدي كل من حولك. أنت حرة. تملكين كل شيء بين يديك. حياتك القصيرة، هي تلك الخيارات التي تفضلينها وتقبلينها . اختاري بذكاء، ولا تلقي باللوم أبدًا على العالم لأنه أنت"

قمت من على سريري وأنا أطوي الأوراق لأضعها في الدرج . عيناي لم تتنحىٰ عن اللوحة، فأنا أعرف كيف أضع الأوراق في مكانها، بينما أنظر في اتجاه آخر. لكنني لم أعرف ماذا ينتظرني

من أسئلة على تلك اللوحة، التي كانت منذ سنتين فقط لا تعني أكثر مما هي عليه، ثم أصبحت سرًّا وكيانًا، ورمزًا لكل شيء، بدأت أمي، مؤخرًا، بتعليمي إياه.

فتحت الستائر. وأنا ما زلت أنظر، رغم أن الضوء المتسلل من أطرافها، كان يكفي لكي أقرأ بوضوح، كما قرأت الأوراق. لكنها عادتي الصباحية على أية حال، أن أدخل نور الشمس، الذي مر عليه ثماني دقائق كاملة، يسبح في الفضاء الخارجي لكوكبنا، حتى يصل إليّ الآن، لينير لي غرفتي الزهرية الصغيرة. فقرأت السؤال بلهفة وكان:

"من أين يأتي الشر في هذا العالم؟".

خرجت من غرفتي باحثة عنها ككل يوم. فوجدتها في المطبخ، تعد وجبة غداء اليوم. ولا يبدو عليها أنها قد أعدت أي شيء بمناسبة هذا اليوم، الذي لطالما كان وكأنه عيد ديني بالنسبة لها، له طقوس وعادات.

- صباح الخير يا أمي.

- صباح الخير يا صغيرتي. قالت وهي منزعجة، ويرتسم على وجهها ملامح غضب أعرفها جيداً. فهي لا تكون هكذا، إلا عندما تكون على خلاف مع أبي. وبدا لي في الأيام الأخيرة، أن هذا الخلاف لا ينتهي أبدًا. فقد أصبح بينهما حائط سميك، لا يكسره

الصمت بينهما. فلا ضحكات ولا نظرات منذ شهور، فقط صمت . وكانت بارعة في أن تداري عليَّ ما هو واضح وجلي من أسباب، ولكن عبثًا هي محاولاتي، لأن تبوح لي بها.

- هل هناك ما يزعجك؟ سألتها وهي تنظر إلى الماء، الذي يجري سريعاً من الصنبور. وكنت أعرف كم هو عشقها للماء ! فإن اكتأبت، تذهب إلى أقرب بحر لتحدق به فتهدأ. وإن غضبت، تذهب إلى الاستحمام في مغطس مليء بالماء، لتلقي به كل طاقتها السلبية، وتخرج صافية مثله تمامًا. فلطالما مثّل لها الماء شيئًا لا أفهمه، لكنه عظيم!

- أنا فقط متعبة قليلًا اليوم، اقتربي هنا . قالت لي بابتسامة مصطنعة.

اقتربت منها، فقبّلتني وحضنتني بشدة، وكأنها هي من تحتاج إلى هذا الاحتضان، ثم همست في أذني:

- أحبكِ كثيرًا.

- أحبكِ أكثر يا أمي.

- هيا، قولي لي، ماذا تنوين فعله اليوم؟

- لا أعرف، ربما أخرج مع أصدقائي آخر نهار اليوم لكي أحتفل.

- قولي لي عندما تقررين إذن.

بدا عليها الشرود وعيناها مليئتان بحزن مقهور، فبادرتها بالحديث، محاولة أن أشتتها عن التركيز في أي شيء كانت تفكر به الآن.

- قرأت من عدة أشهر كتابًا يسمى الإرادة الحرة؛ بحثًا عن إيجاد إجابة للسؤال الذي طرحتِه عليَّ مسبقًا، ولكنني قررت الانتظار لمناقشتك بما ورد فيه، حتى أتلقى إجابتك أنت، لعلها تتفق معه!

لم تُعِرْ لي انتباهًا قويًّا، فتحركت بين الحوض والأواني على النار، وكأنني لست موجودة، فأكملت حديثي على أية حال.

- أثار عندي هذا الكتاب شكوكًا، حول ما إذا كنا مسيرين، تمامًا كالحيوانات، نفعل فقط ما تمليه علينا طبيعتنا، ولا نتحكم تحكمًا مطلقًا بعقولنا، ولكن هي ما يتحكم بنا بشكل غريب، فمثلًا، أنت، عندما أفقت اليوم من النوم، قررتِ أن تشربي القهوة وليس الشاي، ولكنك لم تكوني مخيرة تمامًا كما تعتقدين. أنتِ فقط فعلتِ ما أملاه عليك عقلك وقرره لك مسبقًا، ولم تكوني لتستطيعي أن تخالفي ذلك القرار وأن تشربي فنجانًا من الشاي. وحتى إن كان حدث ذلك، فلأن عقلك أراد ذلك أيضًا .

فقد عملوا اختبارًا لإشارات المخ عند الإنسان، وأظهرت أن الباحثين استطاعوا معرفة ما سيفعله المختبر عليه قبل أن

يعرفه هو نفسه، وهو فقط لبّى ما حدث في عقله . وأن جميعنا نملك من التجارب والذكريات ما يجعلنا نصبح على ما نحن عليه. فإذا كنتِ قد عشتِ نفس حياة قاتل، وفي نفس ظروفه، وبنفس عقليته، لأصبحتِ هو تماماً، دون أي اختلاف . وأن المجرمين فعلوا تلك الأشياء التي يحاسبون عليها، لأسباب لا يستطيعون هم أنفسهم شرحها، بل فقط قادتهم قوى في عقلهم أعظم منهم، ومن ثمَّ أطاعوها فقط، وكأنهم يمثلون مسرحية هم فيها عرائس ماريونت، بينما يشاهدون أنفسهم من الخارج وهم يفعلونها!

- نظرت إليَّ بحدة وقالت: وأنتِ هل تصدقين هذا؟

- لا أعرف، ولكنه يبدو منطقيًّا! سأعطيكِ الكتاب لتقرأيه وتقولي لي رأيك.

- أنا قرأت هذا الكتاب وأنتِ تأخذين قيلولتك فوق صدري، بينما لم تكوني قد أتممت عامك الأول بعد.

- وما رأيك فيه إذن؟

- كتاباً تافهاً. ولا أتعجب إذا أصبحت تلك الفكرة قاعدة عامة، يصدقها ويألفها كل الناس في المستقبل، فإن من بين جميع الأفكار التي تولد في العالم، دائماً ما تجدين الأغلبية تتبع أكثرها سخافة، بعد أن يكونوا قد تعلموها على أساس أنها

حقيقة غير قابلة للنقاش. فالفلسفة تعقّد أكثر الأمور بساطة، وتحل أكثر الأمور تعقيداً بكل بساطة!

- اشرحي لي أكثر.

توقفت عما تفعل، بعد أن وضعت كل شيء قيد التنفيذ في المطبخ، وأخذت كوب القهوة التي تركتها لتقل سخونتها، وخرجت متجهة إلى غرفة الجلوس و هي تتحدث، و أنا وراءها، حتى جلست على الأريكة، و أنا أقف على باب الغرفة مستمعة لها.

- الإنسان مكون من شقين، شق حيواني غرائزي، وشق عاقل واعٍ، وهذا الأخير هو ما يجعله إنسانًا. و أصعب ما يجب على المرء فعله هو أن يواجه تلك الغرائز الحيوانية التي تسكنه بحقيقتها ولا يكون عبدًا لها، لا أن يفسرها على كونها هي الإنسان ذاته. وبالتالي التصرفات البشرية البحتة ناتجة أيضًا عن نفس تلك الغرائز التي يصعب مقاومتها . الأسد مثلًا، عندما يكون جائعًا، ويرى حيوانًا أمامه، هو لا يكون مخيرًا في أن يأكل، أو يظل جائعًا لفترة أطول، بل تتملكه الغريزة بأن يلتهم ذلك اللحم الشهي الذي يراه. مع ذلك، لا يستطيع أكل أسد مثله، رغم شدة جوعه، فالقوانين التي تحكم عقله صارمة جدًّا، ولا يستطيع البت في أمرها بنفسه. وكذلك الإنسان، إذا أراد أكلًا أو

شربًا أو جنسًا، يكون كالحيوان تمامًا، لا يستطيع إلا أن يحصل على ما يريد، لكن الفرق بين الاثنين، هو أن الإنسان يملك أن يقاوم نزعته ويكون إنسانًا. فعندما كنت في مثل سنك، كنت أشعر بأن الطعام والجنس أشياء مقززة جدًّا، وكنت أميل الى التقيؤ كلما أتناول طعامًا؛ لأنه جعلني أشعر كأنني حيوان وليس أكثر من ذلك . فبالتأكيد كوني إنسانًا حيوانيًّا، يجب أن آكل لأعيش، ولكنني في قرارة نفسي، أشعر أنني أكثر من ذلك، وبأن تلك الغريزة تقلل من إنسانيتي على نحو ما . إذا قلنا إن ذكرياتنا وظروف نشأتنا وطريقة تربيتنا تؤثر بشكل جذري على طبيعتنا في الكبر، لهو أمر حتمي في علم النفس. أما أن نقول إن الإنسان إذا ما قتل فهو مساق بقوة عقله الذي يحرك جسده فقط، بينما لا ذنب له مطلقًا، لمن السخف والسذاجة ! فهو يملك حق الاختيار المطلق في ذلك، إما أن يتبع شهوته أو يتحكم بها بقوة عقله المسخر له. فنحن يمكننا أن نرى توأمين يعيشان نفس الحياة والظروف والذكريات، ويخرج أحدهما طيبًا والآخر سيئًا. نحن من نترجم الأحداث ونسوقها على شاكلتنا، ولهذا وجب الثواب والعقاب على ما نختار أن نكون. إذا عممت تلك النظرية البلهاء، فلن يكون هناك معنى لحبس شخص قتل أباه انتقامًا من قسوته غير المبررة عليه في صغره؛ لأن أخاه

عانى من نفس القسوة، لكنه قرر السفر والابتعاد عن هذا المناخ المدمر ليعيش كإنسان، حتى وإن راودته نفس أفكار أخيه القاتل، لأن كلًّا منهما إختار ما يشبهه. لا يولد في العالم شخص بطبعه سيئ، وشخص آخر بطبعه جيد، لكن كل شخص يختار، إما أن يروض هذا الحيوان الذي بداخله وإن عانى كثيرًا، أو أن يخضع له ويكون عبدًا له كما ذكر هاريس في كتابه. فهو بعيد عنا كل البعد كوننا كائنات عاقلة، وركز على كوننا حيوانات نلبي حاجاتنا الطبيعية بدون إرادة حرة. فالملحد يتوق بشدة لأن يتحرر من كل الأفكار الشائعة، حتى وإن كان بذلك يقيد الإنسان نفسه، ويشق الأرض الصلبة من تحته، ويسجن إرادته التي جعلته إنسانًا.

- لم أكن أعرف أنه ملحد.. قلت لها وقد عجبتني فلسفتها في هذا الشأن كثيرًا.

- ليس الإلحاد هو الأسوأ. أحيانًا يكون مجرد مرحلة نحو إيجاد الحقيقة. أليس بهذا نحن مختلفون؟ فنحن الكائنات الوحيدة الباحثة، ومن يعش بدون تفكير وبحث دائم فقدْ فَقَدَ أهم ما يميزه كإنسان..

- فهمت. حسنًا. سأذهب الآن لأعرف ماذا سأفعل بمناسبة عيد ميلادي.

- كل عام وأنتِ أجمل ما وجد في وجودي يا صغيرتي.

ابتسمت لها وذهبت إلى غرفتي. قضيت يومي في غرفتي، أكلم أصدقائي لنحدد مكان خروجنا الليلة. وما زلت أتعجب من أنها لم تهتم مطلقًا ليومي، ولم تأتِ لتجلس معي قليلًا كعادتها، فأنا لم أذهب اليوم إلى المدرسة لأنه يومي أنا وهي منذ ولادتي، لكنها هذه السنة، فقط، لم تهتم!

خرجت من غرفتي بعد عدة ساعات، قبيل خروجي، مرتدية لباسًا على أحدث موضة، فرحة جدًّا به، ومتحمسة للمجاملات التي سأتلقاها لهذا الرداء الغالي، الذي اشتريته خصيصًا لهذا اليوم، فوجدت أمي تجلس كما تركتها، محدقة بالتلفاز، ووجهها شاحب للغاية.

- ما رأيك يا أمي؟

- ما هذا؟ سألتني وهي تنظر لي بامتعاض، ثم ابتسمت وقالت:

- تشبهين عارضات أزياء أرقى المصممين حول العالم في حاضرنا هذا.

فضحكت وأنا فرحة بأول جملة إعجاب أسمعها اليوم . انحنيت بثقة ومرح لأحييها. لم ألحق أن أسألها، ما إذا كانت ستأتي معي أم لا، فقاطعتني وقالت:

- لكنك لن تخرجي هكذا!

- لماذا؟! سألت بدهشة وقلق.

- لأنه لا يليق بابنتي!

- ما الذي لا يليق؟! أنا سأكون نجمة الحفل، وأجمل من في المكان الليلة!

- ستكونين كذلك على أية حال، لكنك ستكونين أجمل بكثير، إذا كنتِ أنتِ، ولستِ جسداً مغطى بما يمليه عليه عصره، وليس أكثر من ذلك! ربما تكون هذه أحدث موضة، ولكن الموضة خُلقت لفارغي العقول، المتبعين لأي شيء، متماشين مع ما يدور حولهم كالخراف. هل علمتك ذلك؟! تأخذين ثقتك بنفسك من قطعة قماش، ستكون غير لائقة وساذجة المظهر بعد سنتين فقط من الآن؟!

- أرجوكِ ألا تنسى أنني ما زلت صغيرة جدًّا!

- لكنك لم تعودي طفلة . جسدك وشكلك يعبّران عن أنثى ناضجة وفاتنة. كرهتِ هذا أم قبلتِه، سينظر لكِ الرجال بنظرة لن تفهميها، وإن فهمتِها لن تحبيها أبداً . أريد عقلك أن يكون ناضجاً بقدر شكلك!

- لم أتوقع يوماً أن هذا الكلام سيأتي منك أنتِ. ألم تتشاجري مع أبي ألف مرة ليتركني أرتدي ما أريد، وألا يُكرهني على شيء؟

- نعم. لأنكِ كنت طفلة حينها. ولم أرد في طفولتك أن تتعلمي أنك مجرد جسد قد يشتهيه المرضىٰ. لكنك لم تعودي طفلة، وهذا هو الواقع المؤلم . الرجل مهما كان متحضرًا، غريزته الجنسية حيوانية جدًّا. أنا لا أتمنى لكِ أن ينظر لك أحدهم، ويتخيلك على فراش معه . أريد من الناس أن ترى وجهك، شخصيتك، عقلك . فالاهتمام بالمظهر يمحو من عيون من حولك الفضول نحو معرفة ما بداخلك. وأنت ما بداخلك عالم شيق جدًّا، وهو ما يجب أن يكون رداءك الوحيد. التافهون فقط هم من يهتمون بالموضة المعاصرة، التي يصنعها غيرهم، تمامًا كمن يأخذون معتقداتهم الراسخة، من التي يروج لها في عصرهم فقط!

- إذن ستجعلينني أرتدي حجابًا؟

- ما دخل هذا في ذاك؟ غطاء الرأس شيء، وأن يكون جسدك ملكك وحدك، تضعين عليه ما يعبّر عن شخصيتك، بغض النظر عن ما هو رائج في عصرك. شيء آخر، أنتِ لستِ جسدًا فقط لكي يغطى بالكامل وكأنه سلعة يجب الحفاظ عليها لمن سيبتاعها، ولا يجب أن يعرّى بقطعة قماش على الموضة، لكي تعجب الناس وكأنه سلعة في فاترينة عرض كذلك! كوني حرة العقل يا صغيرتي، وتخلصي من كل تلك

الترهات التي يملؤون بها عقول الصغار. فلن يمر وقت طويل، وستجدين أنكِ ترتدين ما يرتديه جميع من حولك، ولن تكوني مميزة بأي شيء، إن كان هذا المظهر مغطى أم عاريًا. فقط كوني أنتِ، ولا تهتمي بما يدور حولك. أنا أتركك تشترين ثيابك بنفسك، ولا أقحم نفسي باختياراتك لتنضجي. ولكن لم أتوقع أن تكوني بتلك السطحية، بعد كل ما حاولت تعليمك إياه في الآونة الأخيرة!

وقفت غاضبة منها، ولم أسمع أيًّا مما قالت؛ لأن صوتًا بداخلي ظل يصرخ بغضب في وجهها، لأنني أردت أن أخرج كما تخيلت نفسي الليلة الماضية قبل النوم، وأنا يملأني الحماس . ولكني لم أنطق بشيء، فقالت لي بصوت هادئ، بعد أن قامت وربتت على شعري الطويل:

- أعرف أنك بدأت في السن الذي يَطلُب منكِ أن تحيطيه بالإعجاب. قد بدأتِ لتوك أن تكوني أنثى. وهذه الأنثى تريد أن تخرج للعالم. وكما يبدأ الرجل عند سن بلوغه أن يطلق لحيته الخفيفة، وأن يعرّض صوته الأجش أكثر، وأن يحمي أخته من الرجال في مثل سنه، هو لا يزال يبدو في هذا السن مجرد مبتدئ، لا يعرف ماذا يفعل، فيتصرف برعونة، تُضحك أحيانًا من حوله. أنتِ تريدين أن تظهري مفاتنك، وأن تري نظرات الإعجاب

في عيون من حولك، وأعي جيداً كم هذا طبيعي . في زمني كانت الموضة هي الحجاب، فكانت البنات يغطين شعرهن وجسدهن عارٍ فاضح بشكل رخيص جدًّا، لأنهن كن يردن أن يتماشين مع الموضة، ولكن أيضًا يردن بشدة إظهار أنوثتهن، فكُنَّ قبيحات جدًّا، لا هن إناث في غاية الجمال، ولا هن معبرات بشكل لائق عن المظهر الديني الذي فُرض عليهن من مجتعهن في تلك الأيام. وإذا كنتِ في هذا العصر لفعلتِ نفس الشيء. تحرري من الزمن، وتحرري من المألوف، ولا تسمحي للرائج بأن يملي عليك ما يحب أن يكون على جسدك؛ لأنه كيانك، وملكك أنت، أتفهميني؟

- نعم. قلت لها بعد أن هدأت قليلًا..

سكتت قليلًا وهي تتنفس بحدة وكأنها كرهت أن نتناقش بهذه الطريقة، لولا أنها مضطربة بعض الشيء، وتبدو قلقة بشأن أمر لا أعرفه، ولا يبدو أنها تريد البوح به.. ظللنا صامتتين للحظات وهي سارحة تمامًا في شاشة التلفاز على يسارها، تتابع بدهشة، حفلة لشاب صغير، عديم الموهبة، تلتف حوله فتيات في مثل عمري، ويصرخن، ممددات كفوفهن، وكأن كل أملهن في الحياة، أن تلامس أطرافهن أطراف يده، ثم نظرت لي وقالت:

- إذا أردتِ يومًا أن تصبحي مجرد عدد وسط جموع أعداد، بحيث لا يكون لوجودك من عدمه أي وزن يذكر، فعليكِ باتباع كل ما هو رائج في عهدك . ارتدي ما يراه العالم ملائمًا . احضري هذه الحفلة لهذا المشهور عديم الصوت، وكل ميزته هو تهافت الفتيات عليه، واصرخي مثلهن وسط الصراخ الذي يعلو صوت المكبرات التي يغني بها، واركضي نحو المسرح، كي تتمكني من ملامسة أطراف أصابعه إذا ما يد يده، ثم تفاخري أمام صديقاتك بهذا الحدث الجلل ! إذا أردتِ يومًا أن تذوبي وسط الناس، فافعلي كل ما يفعلونه هم بنهم، وتظاهري بأنك اخترتِ ذلك بمحض إرادتك!

- أعتقد يا أمي أنك تبالغين بمشاعرك تجاه هذا قليلًا . فربما تلك الفتيات سيخرج منهن أشخاص عِظام فيما بعد. هن فقط يعشن سنهن بمرح. ألم تفعلي ذلك أبدًا أنتِ أيضًا؟ ألم تتمني وأنتِ في مثل سنّي أن يلاحظك العالم ويعجب بجمالك الآخرون؟

- يا صغيرتي، أنا نشأت في بيت أعوج الفكر ومظلم الروح . لم يعلّمني أحد أن أكون مختلفة، بل خضت من أجل ذلك حربًا شرسة، وأعدك، أن الحروب لا تنتهي أبدًا نهايات سعيدة . كنت أضع المكياج، وأصلح صوري على برامج متخصصة، عندما كان

عقلي فارغًا، لكنني لم أعد أملك الطاقة لأترك أشياء مهمة في الحياة كي أقف أمام المرآة لأتحول إلى دمية، وأشبه كل الدمى الأخرى التي تسير بجانبي على الطريق . كنت أسعى على الدوام لأن أشعر بأنني في أفضل حالاتي، وأستمتع بسماع كلمات الإطراء تتهال عليَّ، كما تتهال من نفس الألسن على الكثيرات غيري. أما الآن، فقد امتلأت بالثقة، وأصبحت أعرف أن شكلي لا يحتاج لأن يشبه أحدًا، ولا أحتاج لكلمات تمتدح أسلوبي الخداعي في رسم وجهي . أصبحت أعشق أنني لا أشعر بالحاجة إلى التعديل! ولكنني أضعت عمرًا كاملًا حتى وصلت لتلك المرحلة. ولا أريد لكِ أن تمسي كذلك إن أنا قصّرت في تفتيح عينيكِ على العالم كما هو في وقت مبكر من عمرك!

- أستطيع فهم ذلك يا أمي.

كنت على وشك أن أدخل إلى غرفتي، من نفسي، كي أغيّر ثيابي، حتى طلبت مني أن أدخل إلى غرفتي، ولا أغير ثيابي، وأن لا أخرج منها قبل ساعة من الآن. لم أفهم السبب، ولم أسأل عنه، لكنني - كالمعتاد - انصعت لأوامرها!

دخلت الغرفة، وكلمت أصدقائي، مبررة لهم أنني سأتأخر قليلًا لظروف ما في المنزل. دخلت عليَّ أمي بعد ساعة بالضبط وهي مرتدية زي خروج. وقالت لي هيا بنا لنذهب . لم أصدق

أن بعد كل هذا الكلام ستتركني أخرج كما أنا! ربما كعادتها، لم تستطع أن تخذلني، أو أنه استثناءًا ليوم عيد مولدي المقدس . خرجت معها، وبينما فتحت باب المنزل، ووقفت أنتظرها، وكان يبدو أنها تأتي بشيء من صالون منزلنا، حتى وجدت فجأة أنوارًا بكل الألوان قد أضيئت، ومفرقعات مخصصة للحفلات، وجميع أصدقائي يخرجون من مخابئهم مبتسمين، يغنون لي عيد ميلاد سعيد!

أغلقت الباب وضحكت، ثم دخلت معهم جميعًا إلى المنزل . ووجدت شاشة كبيرة، ظهر عليها فيديو به صوري من يوم ولادتي، تتابع بعضها البعض، مع أغنية بصوت أمي الجميل عليها كعرض خلفي، واستمتعت بكل الإطراءات التي طمحت لها، وأسئلة من صديقاتي عن المكان الذي اشتريت منه ثيابي . مرّت الحفلة الصاخبة بين رقص واحتفال وهدايا . وكانت أمي ترقص معنا وكأنها في مثل سننا تمامًا . آه، كم أحب هذه المرأة!

أتى أبي من الخارج. دخل علينا وقبّلني، ثم تركني مع أصدقائي وابتعد. لم يغب عن عيني التوتر الذي بينه وبين أمي . وفي وسط الصخب، سمعته يقول لها بغضب وهم واقفون بجانب الحائط، وتركيزي كله معهم دون أن يلاحظوا:

- كيف تتركينها ترتدي شيئًا كهذا في وجود أصدقائها الذكور؟!

- ألا يمكنك أن تثق فيَّ أبدًا ولو قليلًا؟ ردت بصوت طفولي وهي تنظر لي قادمة نحوهما فقلت:

- هل يمكنكما ألا تتشاجرا في هذا اليوم؟ أرجوكما!

- ادخلي إلى غرفتك وبدلي ثيابك هذه بسرعة، وإلا لن يمر اليوم على خير! قال لي بغضب، فنظرت لي أمي بنظرة فهمت معناها.

استأذنت من الجمع وتركتهم يأكلون، ودخلت إلى غرفتي، إلا أنني لم أتمالك نفسي من البكاء. ماذا سيقول عني أصدقائي عندما أغير ثيابي بشكل مفاجئ بعد ظهور أبي مباشرة ! لا، لا يهمني، أنا واثقة بنفسي، ولن يهمني تكهنات أحد أبدًا. قلت ذلك وحاولت لملمة دموعي، فمسحتها من على وجهي، وهممت بالوقوف، لأجد شيئًا آخر أرتديه . ولكن ما إن وقفت، حتى وجدت أمي وأبي يطرقان على الباب ويدخلان . جلسا أمامي على الطرف الآخر من السرير، قال لي أبي:

- لا تحزني. أنا فقط أخاف عليك وأحبك.

- أعرف يا أبي. قلت ووجهي متجهم.

- أترين، هو يفكر كما يفكر الرجال، فيخاف عليك من أن ينظر لكِ أحدهم بنظرة سيئة. لكنه لم يقصد أن يفسد عليك يومك يا صغيرتي.

قام أبي، احتضني، وأعطاني هديته، ثم استأذن للذهاب لغرفته لأنه متعب، بعد أن أكد عليَّ أن أقوم بتبديل ثيابي قبل الخروج على أي حال . وما إن كان خارجًا من الباب، حتى وجدت صديقتي المقربة، وابنة عمّي داخلتين من الباب. فضحكت أمي، حتى لا يبدو أن هناك شيئًا، وخرجت لتتركنا وحدنا. ولم أرَ من حولي سواها، وأنا أشاهدها خارجة من الغرفة وتغلق الباب.

علمتني أمي معنى الحياة، ومعنى الإنسان، بدون أن أطلب منها ذلك . أرتني الحقيقة، وجعلتني أنظر للعالم بعين لم أكن لأمتلكها بدونها. فكل الناس تعشق جمال عينيَّ، اللتين من صنع اللّٰه. وأنا أعشق عينيَّ اللتين صنعتهما هي، تلك العظيمة التي لم يعرفها سواي...

..

أتت ليلة عيد ميلاد أمي. ستكمل عامها الحادي والأربعين، عندما تدق الساعة الثانية عشرة. فكرت أن أدخل معها في لعبتها الصغيرة تلك السنة. فوضعت لها ورقة تحت وسادتها، فيما كانت هي مستغرقة في النوم، لكي تقرأها في الصباح، قبل أن ننزل لتوصلني إلى المدرسة، كتبتُ عليها سؤالًا واحدًا هو : "من أنت؟" أردت حقًّا أن أعرف كيف ستصف نفسها بعد ثلاثة أعوام من تركي أدخل في عالمها الخاص. خاصةً بعد أن وعدتني بأن تتجلى لي بوضوح أخيرًا، وقد أوشكت على إتمام عامي السادس عشر. استيقظت مبكرةً للذهاب إلى مدرستي، ولكنني فوجئت بأنها وضعت لي أسفل وسادتي أوراقًا مكتوبة بخط يدها، رغم أنه بدا لي غريبًا بعض الشيء، لما يظهر فيها من توتر وارتعاش الأصابع التي خطته ! يبدو أنها استيقظت في منتصف الليل ولم تستطع النوم حتى تفي بوعدها القديم لي .. لم ألبث أن اندمجت في قراءة الأوراق، ونسيت أن أرتدي ملابسي للذهاب إلى المدرسة!

"كنت أفتخر في صغري أنني لا أجد في هذا العالم ما يدهشني، كأنني جبته كله ثماني مرات، ورأيت كل ما فيه آلاف المرات. لكنني عندما كبرت، تيقنت من أن صفة الدهشة، هي ما تحث العقل على الفضول والبحث، مثل الأطفال، فهي

مطبوعة في العقل مع الولادة، مثل السببية التي تجعل الإنسان يلتفت إلى مكان الصوت الصادر فجأة من إحدى الجهات المحيطة به، لأنه يعرف أن من الطبيعي أن يكون لها سبب منطقي . ويفتقد الإنسان مع الوقت تلك الفطرة المندهشة، عندما يجد أن الإجابات عن أسئلته الفضولية، عبارة عن ردود، لا تحمل في طياتها نفس روعة التساؤل ذاته، إن كانت تلك الردود بطلب التوقف عن الأسئلة تماماً، أو تلقي إجابات ساذجة...

ولكن علينا دائماً أن نستمر في الفضول الفطري، لكي لا نخسر طبيعتنا الطفولية، التي حدثتك عنها من قبل، فهي أساس كوننا بشراً، بينما يفضل معظم البشر التغاضي عن تلك الصفات، وجعلها لا تليق بالناضجين! الفكرة التي تتعجبين منها اليوم، ولا تستطيعين فهمها بعد فترة، ستكون طبيعية جدًّا، لدرجة أنك ستتعجبين من اندهاشك حين سمعتها أول مرة. وتلك التجربة لن تحدث لك أبدًا إذا لم تكوني حرة!

يقول ديكارت في كتابه "مقال في المنهج" : ”إنه من الأولى عدم البحث في الحقيقة بصدد أي شيء كان، بدل البحث عنها بدون منهج.“ والمنهج هو قواعد البحث العلمي المؤدية إلى الحقيقة بواسطة العقل لا الرأي . فقد دعا ديكارت إلى نقد

ومراجعة المعارف والمكتسبات السابقة، واعتبارها حاملة للأخطاء؛ لكونها معرفة غير مبنية على أساس صلب . ولكنني عندما بدأت أول سؤال، وبدأت عليه خلق فلسفتي الخاصة، لم أكن أعرف ديكارت ولا ما معنى علم الفلسفة. ولأن التعليم في أوطاننا هش، عانيت كثيرًا لأجد منهجًا يسعادني في التوصل لإجابات منطقية بين العلم والخيال، لأنني كنت وليدة عصر الصراع بين العلم الطاغي على العالم والإيمانيات الغيبية التي تسّير عقول أغلبية من حولي. حاولت كثيرًا أن أجد التوازن، ولم يلاحظ الصراع الذي أعاني منه أحد، فاعترتني وحدة لا يعرف معناها غيري. واكتشفت فيما بعد، أنه ما من توازن، إلا ويحيط به الخلل من كل مكان، ولا وجود لتوازن يساعد على الوقوف الصلب، إلا في ظل الصراع مع عوامل السقوط.

عندما أجلس وسط دائرة معارفي، أشعر وكأنني وجدت هنا عن طريق الخطأ، وبأنني لا أنتمي إلى هذا المكان، من قريب أو من بعيد، رغم انتماء جسدي، الذي لا يمثل بالنسبة لي أي شيء، ويمثل لجميع الناس كوني أنا أنا. لا أحد يرى عقلي الذي يبدو لي أحيانًا استثنائيًّا، ثم أشعر بعظم ضآلته كلما تعرفت على العالم أكثر باستخدامه. كيف لي أن أعرف كم هو ضئيل، ثم يتراءى لي أنه بحجم الكون، بالمقارنة مع كل من أعرفهم .

ربما العيب كله يكمن في أنني محاطة جغرافيًّا بالناس الخطأ ليس أكثر. لكنني أفضّل الاعتراف دائمًا وأبدًا، بأن عقلي ليس أكبر من حجم ذرة على كوكب صغير في كون لا تُمثل فيه مجموعتنا الشمسية بأكملها حجم ذرة أيضًا . فأنا أعتقد بأن اعتراف العقل على نفسه بأنه ناقص، هو قمة العقل . واتهام كل مختلف عنّي نوعيًّا، أو فكريًّا، بأنه لا يرتقي لنبوغ عقلي، لهو أشد أنواع نقصان العقل التي عرفها التاريخ البشري حتى الآن! أستمتع كثيرًا بمشاهدتك تكبرين يومًا بعد يوم بين يديَّ يا صغيرتي، ولكنني أستمتع أيضًا، بمشاهدتي وأنا أكبر بجانبك . لا أخاف الكبر بل أشتاق إليه. فكلما رأيت التغيير الذي أتعرض له في كل يوم يمر، أنضج فيه وأعي العالم أكثر، وأراها تافهة تلك التي نامت بالأمس ولم تصحُ. أستعجل أن يأتي عليَّ الغد، كما تعجلت نموك؛ لما رأيت من تأثير كل يوم في تغير مهاراتك للأفضل منذ يوم ولادتك . أشاهدني كما أشاهدك . أتعجب للطفل الذي يستمر بالنضوج بداخلي . ربما شعرتِ أنكِ لا تعرفيني، لأنني لا أجيد التحدث عن نفسي أبدًا، بل أفضّل أن يراني من حولي كما يريدون، وفي النهاية، أنا أوقن من أن أحدهم لن يعرفني حقًّا، طالما أنه لم يقرأ لي أو يشاهد لوحاتي.

أنا لست أنا كل يوم لكي أجيبك إجابة قطعية، فالتحدث معك عن أفكاري في عامي الحادي والأربعين، لا يعني أنني سأقضي ما تبقى من عمري مقتنعة بها ذاتها، أو أنني أوقن بأنني سأظل أدافع عنها في عمر الخمسين حتى، فعقلي كما البحر، يعتقد الناظر إليه أنه هو هو الذي شاهده في طفولته، لكنه في الحقيقة قد تغير جذريًّا عدة مرات. وأكاد أشهد لعقلي أنه لم ينضج كليًّا بعد، فما سيخرجه لي الغد سيفاجئني كما يفعل دائمًا. لكنه لزم التنويه، أنه لربما لن ينضج يومًا. فما نراه كل يوم أعظم من أن نزعم أننا قد أدركناه بالكلية، وإلا نكون قد أعلنّا للتو أننا أغبياء أيضًا، نظن في أنفسنا، ما لا يليق بكوننا بشرًا في الأساس، لا آلهة..

كم هو صعب عليَّ أن أتخيل أنني ولدت بدون عقل، أو بعقل محدود لا يجرؤ على طرح الأسئلة، عوضًا عن تلقي الإجابات دون المرور بعلامات استفهام خاصة بها أولًا، ولكن من السهل جدًّا عليَّ أن أرى في كل خطوة في حياتي، وفي أغلب الناس الذين يحيطون بي، أنهم ارتضوا بكل قناعة وسعادة، ما لا أستطيع حتى تخيل أنني أعيشه؛ لأنه يضنيني أن أكون بشرًا لا يعرف قيمة أنه كذلك. كم أكره الأغبياء وهم مني، وأعشق العظماء ولست منهم!...

عالم الأفكار، هو ذلك العالم الذي تكون حريتك فيه خالصة كاملة، ليس لها مثيل. أفكارك تجول في عالم وحدها، كما قلت لك من قبل. إذا كانت الفلسفة غير مهمة، لما نشأت الأسئلة الأولى، التي لعبت دورًا أساسيًّا في تطور الإنسان في كل شيء. إنها فطرته الأساسية، أن يتساءل، وأن يعمل على إيجاد الإجابات، ووضع الفرضيات التي تُبنى عليها العلوم إلى يومنا هذا. الفلسفة هي البذرة الأولى نحو التطور، لأنها الغوص في عالم الأفكار، ثم الخروج منه بفكرة ذاتية، ثم يليها أخرى من شخص آخر، وهكذا، حتى تتكون نظرية يمكن العمل على تحقيقها، باستخدام أكثر من عالم الأفكار، وهو عالم الإبداع الذي يتيح لنا الفرصة في الاختراع والعلم والفن.

قال الفيلسوف البريطاني، برتراند راسل: "قد يكون الشك أليماً، وقد يكون متعباً، ولكنه على الأقل منطقي. وربما كان الشك مرحلة مؤقتة، ولكن النجاة منه لا تكون بالعودة إلى العقائد المنبوذة التي تنتمي إلى جيل أغبى من هذا الجيل."

إنه واجب وفرض كُتب على الذين هم مثلي يا بنيتي . أتظنين أنني اخترت أن أكون كذلك بمحض إرادتي؟ أتظنين أنني لم أنظر مسبقًا إلى الناس العادية وأتمنى من أعماقي أن أكون مثلهم؟ إنهم أوفر حظًّا منّي، فقد يعتقدون أن التفكير ليلًا قبل

النوم في مشاكلهم اليومية التافهة معاناة، بينما أمثالي، يتخبطون في الحائط، من وجع الرأس، لكثرة التفكير في حياة، ومعاناة الكون كله!

لا أستطيع أبدًا أن أجيب سؤالًا مثل "من أكون". فأنا اليوم غير أنا الأمس التي بت لا أعرفها، بل فقط أتذكرها بصعوبة، فأنا أوالي بعضي البعض، كما العلم، عندما يستند اليوم على أخطاء وعبقريات الأمس، ليصنع شيئًا مختلفًا تمامًا للمستقبل .

هكذا أنا، كل يوم أعيشه هو بمثابة كل الحياة التي أمتلك. أصنع من البارحة تاريخًا مدونًا، ومن الغد مستقبلًا أفضل بتطوير ما أنا عليه اليوم. تلك التي كانت تعيش بالأمس قد ماتت، وها أنا أحيا كي أضيف إلى ما كانت تقتنع هي أنه كل شيء، لأثبت، أنها لربما كانت خاطئة.

هذا العالم لا يسع لمن هم مثلي يا صغيرتي. فكم اشتقت لأن أحدث أحدًا عما برأسي ! وعندما أحاول أجد ردودًا تشعرني وكأنني كنت أشرح لصخر. لكم هو مؤلم أن تشعري بالوحدة وأنتِ تعشقين الحياة المليئة بالناس؛ لأن عقلك كتب عليك ألا تكوني مثل أحد! أشعر دائمًا أنني روح. روح لديها عالم خاص، لا يعرف عنه أحد، لكن تلك الروح حبيسة، فربما خُلقت في المكان الخطأ، أو أنها غريبة عن هذا الجسد العاري، الذي

يخضع لكل مغتصب، فتكاد تكرهه، لأنه قفصها الجميل الشكل، الفارغ من الداخل.

بداخلي عالم كامل يحتاج نور الشمس، يحتاج لأن تهطل عليه الأمطار ليُخرج زرعًا، يحتاج لأن يراه الناس ويحاولوا فهم ألغازه باهتمام، لكنه في عتمة القهر ماضٍ، وفي الظلام باقٍ، حيث لا يعرف عنه أحد، ولا يسمع به أحد، ولا يستطيع اكتشافه حتى الذين يسكنون بداخله! لا تسأليني عمن أكون، فبينما يسعى الجميع لوضع أنفسهم في أكثر تصنيف يليق بهم وبمعتقداتهم، أسعى أنا كي أحرر نفسي من كل التصنيفات!"

ارتديت ملابسي مسرعة وخرجت من الغرفة لأوقظ أمي، لأنني تأخرت على المدرسة كثيرًا. وبينما أنا خارجة من باب غرفتي متعثرة في حذائي كي أرتديه بشكل مناسب، كدت أرفع صوتي كي أقلق نومها وأنا أدخل إلى المطبخ لأعد لنفسي أي شيء سريع. فوجئت بأبي يغلق باب غرفتهما، ويشير لي على شفتيه بأن أصمت. لم تكن عادته أن يكون في البيت في هذا الوقت، لأنه ينزل إلى عمله قبل أن أستيقظ من نومي، ثم همس لي بأنه أعد الفطور، وعندما دخلت وراءه إلى المطبخ وبدأت بالأكل سألته:

- لماذا لم تذهب إلى عملك؟

- لم أستيقظ في الوقت المحدد فتكاسلت، ثم فكرت في أن أوصلك أنا اليوم إلى المدرسة بدلًا من أمك ولندعها ترتَحْ يومًا.

- هل هي مريضة؟

- لا، لا. لكنها مستغرقة في النوم، ففكرت ألا نزعجها فقط.

- حسنًا إذن، سأكمل فطوري في الطريق، لأنني قد تأخرت كثيرًا.

- حسنًا، هيا بنا.

أوصلني أبي إلى المدرسة، وحاول في الطريق أن يجر معي أطراف الحديث، لكنه لم ينجح في أن يجعلني أثرثر كثيرًا، فأنا اعتدت على وجوده فقط في وجود أمي. ولم تكن علاقتنا قوية بعد أن أتممت عامي الحادي عشر، أي بعد أن انتهيت من كوني طفلة ضئيلة الحجم، يرفعني ويقبّلني في أي وقت، بل صرت شخصًا يسأل ويرد، ويحتاج للمكوث وحيدًا في الغرفة . عندها، عجز أبي عن مجاراة التغيرات العمرية التي أمر بها. أحدث ذلك فجوة بيننا، رغم محاولات أمي الكثيرة لألا تحدث، لكنني آمل أن تختفي يومًا، فأنا أحبه كثيرًا، خاصةً وأن أمي تعشقه.

شردت بذهني في نافذة السيارة، أخذت في مشاهدة الطريق ومن عليه بشكل غير واضح كليًّا، ولكنني كنت أرى بوضوح ذلك اليوم، عندما سألت أمي عن الحب. قالت لي إن كل ما تعلمته

منه، هو كيف تعطيه، لأنه يسكننا جميعاً، ولكن البعض منّا، يكشف عن مكنونه والبعض لا يفهم طبيعته. هو غريزة فطرية نولد بها ككل شيء علمته لي . هناك ما يسمى بالحب غير المشروط، هكذا قالت لي. ثم تابعت حديثها قائلة: "فكرت في الكلمة كثيراً، وبحثت حولي أكثر لأعرف، هل الإنسان عنده القدرة على الحب غير المشروط، أم أنها مجرد كلمة ليس لها أي أساس على أرض الواقع؟!

فالمرأة عندما تريد أن تصبح أمًّا، هي لا تفكر إلا في مصلحتها الغريزية فقط، ولكن إذا فكرت في مصلحة الطفل الذي ستنجبه، أليس من مصلحته ألا يأتي إلى هذا العالم، أليست حقيقة أن معظم البشر إن كانوا لُيسألوا عن مجيئهم إلى الأرض قبل ولادتهم لرفضوا؟ ولكنها تنجب رغم أنف المولود لأنها هي من تريد أن تصبح أمًّا!...

والأحبة، ألم نشاهد مراراً، قصص حب مليئة بالشجن والعشق، وينتهي الأمر لمجرد أنه قد اختار أحد الطرفين مستقبله، أو أنه قد فاض به من الطرف الآخر الذي لا يستطيع إسعاده؟ و الله!! ألا يتدين الناس ويتعبدون له ويحبونه، إما لأنهم قريبون روحانيًّا منه ويثقون بأنه سيستجيب لهم عندما يدعونه، وسيغفر لهم عندما يذنبون، أو لأنهم يخافون عذابه؟، فحتى حب الله

مشروط بوجوده جانبنا في وقت الشدة، وباتقاء عذاب النار في العالم الآخر!!

ثم سألتني لتثير دهشتي أكثر، "أفعلتِ خيرًا يومًا، لم يجعلك تشعرين بلذة؟ "حتى لو كان لأقرب الناس إليك. أليست حقيقة بأنك إن فعلت خيرًا، أو استأثرت احتياج شخص على احتياجك، فبرغم خسارتك لما تمنيته، إلا أنك ستشعرين بفخر وحب لذاتك، التي هي أفضل من أناس كثيرين لا يستطيعون فعل ما قد فعلتِه أنتِ !! حتى إعطاء الغير، يشعرنا نحن بالسعادة الشخصية. فأين يكون الحب غير المشروط عند البشر؟ ! إذا كانت طبيعته بتلك الأنانية، أعتقد حينها، بأنه لن يكون هناك معنى لهذه الكلمة، إلا عند ذكر حب النفس فقط، فلا حب سواه غير مشروط!!

هذا ما توصلت إليه في سن صغيرة، عندما بحثت في عمق الذات الإنسانية، ولكن عندما شهدت خالتك ليلى تلد طفليها، ورأيت بعيني حبها لهما، الذي لا يمتُّ لحب الذات بصلة، فهي لم تكن تنام بالأسبوع، وكانت تعمل ليل نهار معهما، رغم تآكل قواها الجسدية، وكانت ترفض أن يأخذهما أحد بعيدًا عنها لترتاح ولو قليلًا، وكانت تبكي أحيانًا من قسوة ما تمر به،

وعندما يبتسم لها أحدهما، كانت تنسى أنها تعبت وسهرت وعانت منذ قليل.. عرفتُ أيامها أن هناك حبًّا غير مشروط!

عندما تركت سارة صديقتي خطيبها، لاعتقادها بأنه لا يحبها بالقدر الكافي، وحارب هو فيما بعد من أجل عودتها إليه، قالت لي إنه بالتأكيد يفكر في نفسه وأنه يريدها معه لأنها تسعده، ولكنه لا يحبها حقًّا. وعندما عادت إليه مرة أخرى، اكتشفت أنه لا يحبها لأنها تسعده، بل يحبها برغم أنها لا تسعده. يحبها وكأنه ليس سواها على الأرض، تمامًا كما تحب ليلى ولديها، فقط حبًّا غير مشروط!!

وأبوكِ، عندما يحدثني عن أبيه الذي كان يقسو عليه، ويحرمه من كل شيء، حتى حنانه منذ كان صغيرًا، ويسبه أمام الناس، وعندما يلجأ إليه في شدة مادية يجعله يشعر وكأنه شحاذ لا يستحق المساعدة، وإن أعطاه يذكره كل يوم بأنه فعل، ويحكي للناس عن أنه يساعد ابنه الفاشل الذي لا يستطيع تحمل المسؤولية أبدًا، لكنه لا ينفك أن يقول "أورثني وأعطاني كل العقد النفسية التي من الممكن أن تكون في شخص واحد، ولكني لا زلت أحبه!" أهل هذا أي شيء سوى حب غير مشروط؟!

وماذا عن الصوفية، الذين يجدون الله في كل شيء، وأصغر شيء في هذا الكون، من أول أنفسهم، وصولًا إلى كوب الماء الذي يسقي عطشهم. هم يجردون خالق الكون من كل ما يُنسب إليه من أشياء تدعو البشر للارتعاب منه، فيجدون في معرفته عشقًا صافيًا، خالصًا، لا خوف فيه ولا طلب. يحبونه لأنه منهم، وهم منه، كيان واحد، يستحق كل العشق الذي وجد على هذه الأرض، وليس لأي سبب، سوى العشق نفسه، مجردًا من أي أنانية بشرية، بل وماحيها من نفوسهم أيضًا.

الحب هو الشيء الأسمى لتحقيق سعادة البشر، فإذا اخترتِ حب الله ووجدتِه فإنك تجدين السعادة، وإذا بحثتِ عن حب الفرد بإيجاد من تنتمي إليه روحك، فإنك حتمًا ستعيشين السعادة، وإذا عرفتِ كيف تحبين جميع الناس، فإن سعادتك ستكون في إسعادهم. في كل الأحوال ستحبين نفسك، عندما تأخذين من الحب طريقًا للسعادة!!..."

كما حدثتني من قبل عن موقف دار بينها وبين صديقتها المقربة التي أرادت ترك البيت لزوجها وأطفالها لتعيش حياة مستقلة أخيرًا، بعد أن شعرت بأنها محبوسة منذ يوم ولادتها، فقالت لها ذات يوم:

" أنا أعيش حياتي كما أريد تمامًا، أعيش أفكاري وأحلامي كما هي، ولكن عندما أطلق لخيالي العنان وأنا مغمضة العينين قبل الغوص في النوم، ثم أفتح عينيَّ وأكمل حياتي التي اختارها لي آخرون، ثم يتعجبون أن حبهم لي لا يكفيني!.. قمة الفشل، أن لا تملك أصغر قرار لنفسك بنفسك. وكيف لطير مقيد من رقبته أن يغني، فقط لأن من حبسه يقول له إنه يحبه، وبأن ذلك الأفضل له؟! ومنذ متى وُجد الحب، حيث لا توجد الحرية؟! لم يتغير رأيي بالزواج إطلاقًا عندما تزوجت، بل إن ذلك أثبت لي كل ما كنت أظن من قبل منظومة فاشلة يترأسها اثنان، يظن كل منهما أنه الأقوى، ويحاول إثبات ذلك، وتملّك زمام الأمور، حتى يغرق كل شيء مع قوته، عندما يكتشف أنه أراد راحة واطمئنانًا، لا عراك داخل حلبة.."

وشرحت لي أمي، فيما كانت تقص عليَّ معلِّقة، بأنه غالبًا ما يفشل الزواج في مصر بعد قصص الحب لسبب ما . فعادةً ما تتسم العلاقات بين شخصين ببراءة وغزل وغيرة ومحاولات للمقابلة من وراء الناس والأهل. ولكن بعد الزواج، وإذ فجأة، يأتي الجنس والعمل والمال والأطفال والبيت وعدد مسؤوليات لا حصر لها، وكلها أشياء مادية بحتة، فيموت الحب الذي تزوجوا من أجله، وقد كان شيئًا معنويًّا بحتًا، لكنه لم يصمد أمام هذا

الهجوم المفاجئ الشرس من قِبل الأشياء المادية؛ فيحتضر بين أيديهم، بعد صراع مع المرض الذي يسمونه "زواجًا "... ثم تابعت حديث صديقتها لها بأنها قالت:

" تزوجت الوجه الآخر بعملة أبي، وكنت قد ظننتها عملة مختلفة تمامًا. ولكن متى استطاعت أنثى ضعيفة الشخصية والتربية مثلي، الاستقلال الفعلي بنفسها، حتى وإن كانت لا تحلم بشيء سواه؟! في النهاية لن يحدث سوى ما خططوه هم لها... ولدت لأب لا يشجّع، لا يعي، لا يساعد، لا يدعم، فقط يُحبط، ثم ينتقد فشلي. لم يهتم سوى بستري في بيت رجل آخر، وكأنه يريد أن يُسرع بطردي من مسؤولية وجودي معه، قبل أن آتي له بالعار، الذي دائمًا ما يقع على من يولدون إناثًا - من وجهة نظره -. ظننت أن حريتي في الزواج. فاكتشفت أني لم أفعل سوى أنني قننت زواجي بأبي، منذ يوم ولادتي، بعقد مع رجل آخر، ولكنه ليس إلا الوجه الثاني للطرف الأول. اكتشفت أنني لن أملك حريتي أبدًا، إلا بتطليق الاثنين!"

فقالت لها أمي:

- وتفكرين الآن بأن تعوضي كل ما فاتك؟

- لمَ لا ومن في مثل سني لا يزالون يجوبون الأرض مرحًا؟ ! فبرغم أني أشعر وكأنني كبرت كثيرًا، إلا أنني أدرك أنها مجرد

عاهة، ورثتها عمن سبقوني. ففي الثلاثينيات هنا شباب ونساء، شابت رؤوسهم من قسوة الحياة ونسوا بأنهم لا زالوا شبابًا!...

- وماذا عن أبنائك الذين لم يكن لهم ذنب بأن يأتوا لأم تشعر بكل هذا، ومجتمع ييتمهم قبل أوانهم، وسيقتلهم صغارًا كما فعل بمن سبقوهم؟

- إنها أضغاث أحلام. وأنا أحب بأن يأتيني هذا الحلم بين كل حين وآخر. أحب أن أتخيل نفسي حرة بلا قيود، تمشي في شوارع تملؤها رائحة الزهور، وكل من فيها مبتسم. وربما يكون معي أولادي، ويكونون في نفس سعادتي، وأعود للبيت لأجد رجلًا وسيمًا يأخذني بين أحضانه ويلعب في شعري، بعد أن نكون قد تعبنا من اللعب سويًّا مع الأطفال والبهجة تملأ البيت وتملأ روحنا..

- إذن مشكلتك في زوجك فقط . وهذا البيت وهذه الفرحة والمرح من الممكن أن تعيشيها بدون هروب من الواقع ولا أحلام... أشعر من كلامك وكأنك مراهقة، تتحدث بما رأته في الأفلام، لا امرأة ناضجة تعي معنى الحياة!...

وبعد أن انتهت من هذا الحديث الذي دار بينهما، نظرت إليَّ بتمعن وقالت:

- ربما تشعرين بأنك قد تحملين مشاعر لصديق أو زميل ما . والمشاعر يا صغيرتي، ليست مضرة، لكن كل تجربة يمرُّ بها المرء، تأخذ منه جزءًا لا يعود مرة أخرى أبدًا. فنصيحتي إليك، أن تعرفي متى تستحق مشاعرك أن تتبلور في علاقة. على أن تؤمني حينها، أن تلك العلاقة ستستمر إلى الأبد. ولكن...

سكتت قليلًا، ثم استطردت قائلة:

- لا تبحثي عن الحب أبدًا.. إنه من تلك الأشياء التي تعرف كيف تأتي وحدها عندما يحين الوقت لذلك. أما إذا وجدتِها قبل أوانها، فكأنك قطفت ثمرة عنوة قبل موعد سقوطها بكثير، فستذبل وتضمر بين يديك قبل أن تستطيعي أكلها.. إذا كان لابد من أن تبحثي عن شيء في هذا العالم، فاجعلي شغفك الأول هو إيجاد نفسك، إنها المهمة الأصعب، وهي لا تأتي أبدًا إلا لمن أفنى عمره بحثًا عنها.. عندها فقط سيكون الحب في حياتك أعظم شيء عندما يأتي..

- أهذا ما فعلتِه أنتِ أيضًا يا أمي؟

- لا، أنا لم أفعل سوى نقيض ذلك بحذافيره. بحثت عنه بنهم وضراوة. ظننت حينها أنه مفتاح كل شيء . ظننت أن إيجاده سيكمل نقص روحي، سيعالج جراح قلبي الذي أنهك في بيت شكل الحب الذي بداخله مشوه وشوهني معه . كنت ضحية

تصديق أن الحب هو كل ما يحتاجه المرء، وبأنني إن لم أجده سريعًا، سيلتصق بي إلى الأبد لقب عانس، أو صفة الغريبة التي لا تلائم المجتمع . وأكثر ما آذاني حينها وأرعبني من عدم إيجاده، هو البقاء مع الرجل الذي قالوا لي أن أناديه يا أبتِ، أو كسر قلب الجميع، بالفرار بعيدًا لأعيش كما أنا.

- لكنني، ولسوء حظي، أفضّل دائمًا، أن أسعد من حولي على حساب نفسي. مشيت على خطاهم، حتى إنني وفي عامي الثامن عشر، كنت أظن أنني سأعيش تعيسة طوال عمري إن لم أجد الحب الذي سينقذني من تلك المتاهة سريعًا . ولكنني عندما وجدته، وعشت في جنة سنواته الأولى، وظننت أنني لن أحتاج شيئًا آخر بعد الآن، صدمت في حقيقة واحدة فيما بعد، وهو أنني كان يجب أن أجد نفسي أولًا، بدلًا من أن أنام على فراش دافئ من فرط المشاعر التي يحملها كلانا للآخر، وفي داخل روحي فراغ هائل يقتلني، ويجعلني أجحد هذا الرجل الذي أنعم عليَّ الخالق به، ولا يكون وجوده ووجودك أنت أيضًا سوى عائق أمام روحي، التي دائمًا ما وصفتها بالعصفور الذي يعشق التحليق، لكنه مكبل داخل قفص صغير، ومهما وضعوا له من متع تتمناها كل الطيور الحرة، يفقد الرغبة فيها، لأنه لا يريد سوى السماء الواسعة التي يراها خارج قفصه..

سكتت قليلًا وقد بدأ الحزن يسري في عينيها ثم قالت:

- أتظنين أن بنات قريش دُفنَّ أحياء؟ هذا هو يا بنيتي بحق معنى أن تُدفن الأنثى حية!! تلتصق منذ صغرها بفكرة إيجاد رجل ليكتمل بها ما سيظل ناقصًا طول العمر إن لم تجده، وكأنها ليست إنسانًا له روح خاصة، يجب أن يجدها قبل أن يشاركها مع أي شخص آخر.. تُربى على أنها سلعة، قبل الزواج، سيريد كل الذباب أن يقف عليها، وطالما أنها مغطاة، ستكون مصونة لهذا الذي سيدخل المتجر كي يشتريها نظيفة، ليستمتع بها وحده، بعد أن يدفع ما يلائم قيمتها، وتلك القيمة بالطبع ككل السلع الأخرى، تتوقف على مستوى رقي المحل الذي دخل ليشريَ منه، وهو يعرف أنه كلما كان المتجر أرقى، كلما حسنت بضاعته وازدادت غلوًّا ... تتربى على أنها بعد عملية الشراء والفتح، تكون قد قضت وطرها من الحياة كدورة طبيعية، ثم تعيش الباقي من العمر مع المشتري، حتى تُدفن في المقابر، ولكنها في حقيقة الأمر دُفنت يوم ولادتها ! جل الاختلاف هو أنهم أصبحوا يستخسرون دفن الإناث، وإلا بماذا سيتمتع الرجل؟! فيؤخرون أجلهن حتى يمتّعن الرجال، حالما يبلغن الإناث مبلغ النساء، وينعمن عليهم بنعمة البنين، الذين تربيهم، ليكونوا عونًا لآبائهم فيما بعد . كل هذا وهن لازلن

مدفونات، بلا هدف ولا طاقة، ثم تجد بعد كل هذا زوجها يريد أن يشتري اخرى. وهذا حقه بالطبع، طالما أن المجتمع قد ارتضى فكرة أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة فقط "ذباب، حلوى، مشتري، بائع، ثمن، غلاف، غشاء، وعاء لجلب البنين، موت" فما الداعي إذن للاحتجاج على أن يريد المشتري إذا امتلك الثمن، أن يمتع نفسه بحلوى أخرى بمذاق آخر، ألم تُصنع الحلوى أصلًا كي تؤكل؟!

توقفت أمي عن الكلام فجأة ونظرت لي كي ترى الذهول الذي اعترى ملامحي. لم أستطع أن أتفوه بكلمة. فأنا لم أفهم أصلا كل الذي قالته او ربعه حتى ! كيف لأمي، التي تربيني وتحتضني منذ يوم ولدت، أن تكتم كل هذا بداخلها، ولكني لأول مرة أسمع أو ألاحظ ان بها ما بها! تعبت كثيرا كي تبعد عني أمراضها، وأمراض المجتمع الذي تربت فيه، و كانت جزءًا كبيرًا منه، وهي في مثل سني، فاختارت النقيض، وهو أن تجعلني لا أرى أن هذا موجود في عالمنا أصلًا، ثم من لا شيء تخرج كل هذا في وجهي دفعة واحدة، وكأن بإمكاني استيعابه، ولكن بدا عليها أنها لا تريد مني استيعابه أصلًا، بل وكأنها تريدني أن أمسح كل ما سمعت من ذاكرتي، حين أكملت كلامها، في ارتباك، قائلة:

- المهم، يجب أن تدركي أن عليك إتمام مهمة صعبة على أكمل وجه، قبل أن تغوصي في غيرها.. لا تغيري ترتيب الأوراق التي وضعها لنا اللّه، كما تفعل الكثير من بنات جنسك، ولا يفعل إلا القليل من الذكور ذلك.. ابحثي عن نفسك، وعندما تعرفين من أنت، ولماذا تعيشين، وما هو دورك في الحياة، عندها شاركي تلك النفس التي أكملتِها بنفسك، و لم تحتاجي ان يكملها لكِ شخص آخر . عندئذٍ، ابحثي عن الحب إن أردتِ ذلك . لكن تذكري أنه لا يحل المشاكل، ولا يربط خيوط حياتك ببعض، ليلملم روحك التائهة، بل هو استقرار نفسي وجسدي أكثر من أي شيء، فلا تستقري بقلبك قبل أن يستقر عقلك يا صغيرتي.. أفهمتني؟

- أظن ذلك!

لم أفهم تمامًا حينها ما حكته لي، وما الفائدة منه، رغم ربطي للكلام بكثير من أحاديث صديقاتي عما يدور داخل بيوتهن المهترئة والهشة . لكنّها ربما أرادت لي أن أعرف أن الحب والزواج هما عالم حقيقي، ليس كرومانتيكية الأفلام والروايات. فهمنا لطبيعتنا وطبيعتهم يساعدنا على أن نسعد، وأن نعطي السعادة لمن حولنا أيضًا، ولكن بإدراك كامل لما يجب على الواقع أن يكون.

عاد أبي ليأخذني من المدرسة عصر هذا اليوم. لم أفهم إذا ما كانت أمي لا زالت نائمة، أم أنه يحاول تدليلها يوم عيد ميلادها . لكن ما تعجبت له حقًّا هو أنه أوصلني لبيت جدتي، بدلًا من أن يأخذني معه إلى المنزل. كانت هذه أول مرة، في يوم عيد ميلاد أمي لا أقضيه معها. لكن حجة أبي، بأنه يريد أن يفاجئها بيوم خاص بهما، كما كانا يقضيانه قبل الزواج، من دون أقارب أو أبناء، ليذهبا في نزهة، ثم عشاء رومانسي في أحد المطاعم الفاخرة. ما أثار قلقي، هو عدم تحدثها معي، حتى على الهاتف، ولم تجب على هاتفها طوال اليوم. ثم ما أقلقني أكثر، هو منع جدتي لي من إعادة المحاولة.

قضيت تلك الليلة في منزل جدتي. أوصلتني هي في الصباح إلى المدرسة. لم أستطع النوم هذه الليلة . كان وجه جدتي التي تتجنب أسئلتي بشكل مريب يزيد من حيرتي وقلقي . ولكنها أكدت لي أنني سأذهب للبيت بعد المدرسة اليوم . لكن لليوم الثاني على التوالي، أتى أبي ليأخذني. سألته عن أمي. قال إنها سقطت ليلة البارحة؛ مما أصابها بشرخ بسيط في ساقها؛ الأمر الذي سيمنعها من النهوض من السرير ليومين على الأكثر.

عندما فتح أبي باب المنزل، هرعت إلى غرفتها كالمجنونة . كم اشتقت إليها، وكم أردت أن أطمئن عليها بنفسي! بعد كل هذا

الغموض الذي أحاط بي، وجدتها مستلقية على السرير، ووجهها به اصفرار لم أره في بشري من قبل . احتضنتها، وأسقطت رأسي على صدرها، ولم أتمالك دموعي التي ابتلت بها ملابسها.

- ماذا حدث يا أمي؟

- لا تقلقي يا صغيرتي. أنا فقط منهكة، ولم أنم بسبب ألم ساقي. قالت وكأنها لا تزال تحاول تعلّم إخراج الحروف من فمها. شعرت بأن رأسي على صدرها، يكاد يجعلها لا تستطيع التنفس، ولكني صدقتها. لم أتركها هذا اليوم، حتى أنني نمت بينها هي وأبي، وكأنني لا زلت طفلة رضيعة. لم أستطع عدم ملاحظة الألم الذي تشعر به كلما تحركت في نومها، ولكنني لم أميّز مصدره. كانت تحرك ساقها بخفة، وكأن ليس بها شيء، ومع ذلك، تتكمش ملامح وجهها، وتطلق أنينًا خافتًا، يظهر معاناتها التي تحاول إخفاءها عني!

❁❁

(٤)

استيقظت يوم التاسع عشر من يناير، يوم عيد ميلادي السادس عشر. وجدت الظرف الذي كنت أنتظره ككل عام . فتحته، ووجدت الورقة الصغيرة منقوشًا عليها برسم أمي المدهش، بالخطوط العربية:

" عيد ميلاد سادس عشر سعيد" ثم فتحت الورقة الثانية وقرأت ما عليها:

"أنتِ قطعة حية من قلبي، تمشي بعيدًا عني، فيتألم لاحتياجه لأن يكون كله بداخل الجسد. أما أبوكِ، فهو تلك الروح التي تعطي لذاك القلب الذي أنت منه، النبض، الذي هو به يحيى، ليحييك " وقد أجابتني بتلك الكلمات المخطوطة بيدها، عن السؤال الذي كنت قد سألته لها مسبقًا، عن مدى ارتباطها بأبي.

فتحت الورقات الكبيرة المطبوعة، وبدأت بالقراءة:

"من أين يأتي الشر في هذا العالم؟".

هنالك تجربة قام بها بعض العلماء على مجموعة من الأطفال، وضعوهم في غرفة بها لعبة، حيث يجب على كل واحد منهم، أن يحاول رمي الكرة من خلفه، من على بعد مسافة محددة بخط مرسوم على الأرض، لتقع بداخل السلة المخصصة لها . وبينما حاول الأطفال، الواحد تلو الآخر، ولم يفلحوا، أخبروهم بأنهم سيتركون كل واحد منهم في الغرفة وحده، بدون مراقبة أحد أبداً، وليلعبوا تلك اللعبة حينها. وبالفعل عندما ظن الأطفال أنهم ليسوا تحت مراقبة أي شخص، كانوا لا يلتزمون بقواعد اللعبة، ويذهب كل واحد منهم إلى السلة ليضع بها الكرة، ثم يعود إلى الحدود المرسومة له، ليظن الناس عندما يدخلون عليه، أنه التزم ونجح بدون غش. ربما سنخلط هذا بأن فطرة الإنسان ليست صالحة. ولكن ليس الأمر كما يبدو. إذا ما نظرنا حولنا، سنجد أن الإنسان يولد بنزعة الأنانية . ما من طفل، إلا وظهرت عليه تلك النزعة بحدة، أكثر من الناضجين الذين يتعلمون إخفاءها جيداً، كي يُبدُوا طيبين . ولكنها الحقيقة، أن تلك النزعة لا تموت فينا أبداً.

قال مارك تواين: إن الفقر هو أصل كل الشرور. ولكن هل هذا دقيق في التعبير؟ وقال بعض الفلاسفة القدامى، إنه لا وجود حقيقيًّا للشر، بل إنه مثل الظلام تماماً، هو ليس إلا غياب النور.

لا وجود مستقلًّا للشر. هل هذا صحيح تماماً، وما هو الشر الذي تتضح به النفس البشرية، لا سواها، هل الشيطان هو السبب في كل شيء؟

لا يوجد عند الأطفال تعريف للشر كما هو عند الكبار، لكن تصرفاتهم اللامبالية باحتياج الآخرين في سبيل إرضاء الذات هي المؤشر الفطري الذي تندرج تحته كل تعريفات الشر عند النضوج؛ لما في التصرفات من اختلاف عظيم، ولكن تتشابه الفطرة في احتياج تلبية الأنا . كمقدمة، نستطيع تعريف الشر على أنه الفطرة الطبيعية لحب الذات أكثر من باقي البشر، فيكون ذلك بمثابة مبرر لأي تصرف يحرم الآخر من حقوقه طالما تعمل على تلبية مصالح الفرد الشخصية أيًّا كان نوعها!

قلنا إن الشر يوجد في الأطفال بعفوية، تمثل حجم الأنا عند الإنسان، وتُرينا فطرته الحقيقية عارية . ولكن كذلك، يعرف الطفل وحده، معنى أن يكون الإنسان واحدًا. لا يفرّق الطفل أبدًا بين الأسود والأبيض، وبين المسلم والهندوسي . فقد صادفني مرة، عندما كنت في الولايات المتحدة في زيارة لأختي، قبل أن ألدك بشهور قلائل، أن شاهدت موقفًا، لا أستطيع تخطي وقعه عليَّ حتى الآن. كنت في حديقة عامة، وشاهدت من بعيد شابًّا عربيًّا وسيمًا، بملابس تعبر عن الزي

الرسمي لدولته الإسلامية. بدا عليه الطيبة وحب الأطفال، وبدأ باللعب مع طفل أمريكي أشقر، لا يزيد عمره عن أربع سنوات . كان الطفل سعيدًا جدًّا بالكرة الصغيرة التي أهداها له. أجلسه الشاب بجانبه على العشب، وبدأ في اللعب معه بالكرة . كنت أشاهدهما من بعيد بشغف، لأن الأطفال لا يعرفون أعراقًا، ولا سياسات دول، ولا تعصب أديان. فقط رجل طيب يلعب معه، و هذا كل ما يهمه في الأمر.

لكن الأمر الذي جعل هذا المشهد لا يذهب عن بالي، مهما مرت السنون، هو أم الطفل، عندما أتت، بعد ملاحظتها لما يحدث، بسرعة خطواتها، وغضب ملامحها . أخذت بيد الطفل، وذهبت به بعيدًا وهي تصرخ به : "إنه مسلم ! لا تكلم الغرباء مجددًا، وخاصةً المسلمون !" بصوت عالٍ جدًّا، وبلا مبالاة لمشاعر الرجل، الذي لم يكن ينتوي أن يفجر الحديقة والطفل بين أحضانه ! لم أنسَ دهشته وهو يشاهد الأم العنصرية، والطفل يمشيان بعيدًا. لم أنسَ تعجب الطفل وعدم فهمه لما حدث! ماذا يفهم طفل في مثل ذلك العمر، عن ما قالته أمه؟ هل سيسأل الطفل نفسه ويعرف أن أمه عنصرية بلهاء، أم سيكبر ليصبح مثلها وجزءًا من القطيع، الذي لا يعرف الخروج عن المجموعة أبدًا؟

بالتأكيد سيتشرب الطفل، بكل انفتاح عقل، أقفال العقل، التي ستضعها له أمه، وتحكم إغلاقها. سينسى ذلك الرجل الطيب، سيكبر ليربي أطفاله الأنقياء على العنصرية ذاتها، وعلى الكره نفسه. وهكذا دواليك، نتشرب جميعًا، أشلاء إنسانية مجتمعاتنا وأهلينا، منذ الصغر، حتى نصبح جزءًا من الصورة، ولا يكون لكياننا نحن، أي مساحة تذكر!

نحن من نبدأ في تشكيل تلك الفطرة الأنانية، التي ذكرناها مسبقًا، إلى زيادة حب الأنا، وتقديسها عن الآخرين، حتى ننسى أن جميعنا واحد. فالعنصرية هي أشد أشكال الشر، حيث يعتقد إنسان أن عرقه ودينه يستحقان الحياة أكثر من أعراق وأديان أخرى؛ فتنشأ الحروب، التي هي أقذر شيء فعله الإنسان، منذ وجد على الأرض!

من مقولات غاندي الشهيرة : "الغضب والتعصب يعميان الإنسان عن الفهم الصحيح." ولذلك يا صغيرتي، من الصعب أن نجد في مجتمعاتنا فهمًا أصلًا؛ لأن الكل متعصب جدًّا. فلو فهم الإنسان، كم أنه من الممكن أن يقضي عمره يدافع عن أفكاره، ثم يكتشف في النهاية أنه كان فقط يدافع عن أفكار، غُرزت فيه من طفولته عنوة دون اختيار، ولكنّه رغم ذلك

يتعصب لها، ولا يبالي بأنه لم يستخرجها بنفسه، أو أنها تبدو حمقاء، فطالما تعلّمها في صغره، تكون بالنسبة له مقدسة.

أنتِ عندما كنتِ طفلة رضيعة، لاحظت أنك تحبين اللعب مع الغرباء كثيراً، وتحبين لفت انتباههم. لم تكترثي حينها لأي نوع ينتمون . كنتِ تستوقفيني للعب مع طفلة، ممن ينمن في الشارع، ومع أم تحمل رضيعًا في مثل عمرك، ولكنها تشحذ به.

يا لها من صفة جميلة، ألّا تكوني تعرفين الفروق الساذجة بين البشر! ولم أنو أبدًا أن أعلمك أن الشر يكمن في فصيل بعينه، حيث يجب عليكِ معاداته جملة لأن هؤلاء إرهابيون، وهؤلاء جرب، وهؤلاء كفار نجس، فقط أتمنى من كل قلبي أن تكبري على ما انت عليه، ولا تفرقي بين البشر أبدًا أبدًا!

عندما كانت ابنة عمك، في الثالثة من عمرها، كانت تشاهد قصصًا مصورة، في مجلة بجانبي، وتطلب مني أن أقصّها لها لأنها لا تستطيع القراءة. لاحظت أنها تخاف عندما تأتي صورة امرأة، ذات شعر أشعث، وأنف كبير، ثم قالت لي "إنها شريرة " فسألتها:

- لماذا تقولين ذلك؟

- انظري إلى شكلها! قالت لي وكأنه الجواب الطبيعي..

- أتظنين فيها الشر لأنها قبيحة، من قال لك ذلك؟

- أمي.

- ممم.. ها قد بدأنا. لا يا حبيبتي، إن الجمال الخارجي هو آخر ما نحكم به على الخير والشر. يجب أن تعرفي أن ما بداخل البشر أهم، وبأن القصة هنا تقول إن تلك المرأة طيبة جدًّا، ولكن شكلها هو مِن خلق الله، هي لم تختره، ولا يعبّر عما إذا كانت طيبة أم لا!

كذبت عليها، لأن القصة لم تكن كذلك. لكنني لم أستطع تحمل فكرة طفلة في هذا العمر تقول هذا قبيح، إذن هو شرير، فقط لم أستطع!

إذا أردتِ دراسة أصل فطرة الإنسان، فتأملي الأطفال . ستعرفين حينها أصل الخير والشر والسعادة والتعاسة والأمل، وكل شيء بداخلنا نعيشه كل يوم وبدون وعي بأنه من طفولتنا وقد كبرنا عليه ولم نختره بشكل كامل . نحن مجرد أطفال يعتقدون أنهم ناضجون، ولكن في لحظة صدق واحدة يظهر هذا الطفل النائم طويلًا بداخلنا بصرخاته واحتياجاته التي ربما لم تُلبَّ بعد، وكلما حُرم طفل من احتياجاته الأساسية، من تفهم وحب ووعي ناضج للأشياء، كلما زادت بداخله الأنا الشريرة وأخذت في الظهور بشكل أكبر، في مراحل نضوجه المختلفة!

ليس الشرير من قتل إنسانًا، بل الشرير هو أول من اخترع أداة لقتل أخيه الإنسان. الشرير هو الذي سن السيف من بعد الذي صنعه . هو من صنع المتفجرات، والبنادق، والرصاص، والصواريخ. الشرير الحقيقي، هو من يبيح دماء البشر، ليكون قدوة لمن يليه. تريدين رؤية أشرار؟ اذهبي إلى العلماء، الذين يكرّسون علمهم وعمرهم في تطوير قنابل نووية، دون أن يكرهوا أنفسهم، لأن بمجهوداتهم وبفضلهم، ستباد مدن كاملة، من الأسر المدنية البريئة، بدون حتى أن يعرف أي منهم السبب، أو بأنهم في حالة حرب مسبقًا . الذي يقتل لأسباب أنانية أو نفسية، ليس بشرير، بل هؤلاء هم، لأن ليس من دوافع، تعوض عن كل هذا الشر الذي يملؤون به العالم.

تعرفين من هم الأشرار الذين نصافحهم كل يوم؟ هم هؤلاء الذين يفرحون لسماع خبر كارثي عمن يظنون أنهم أعداؤهم . هم الذين لا يكترثون لدماء من ليسوا من نفس عرقهم، ثم لا يكترثون لدماء من ليسوا على نفس دينهم، وهم من نفس العرق. ثم في ذلك لا يكترثون، لمن ليسوا من نفس شعبتهم، ثم بعد ذلك لا يكترثون لمن هم من تيار سياسي مخالف لتيارهم. الشر يكمن في عدم فهم الإنسان، لأن كل إنسان آخر هو مثله تمامًا، حتى لو بدا له من الخارج مختلفًا . الشر يبدأ

عندما لا يعي الإنسان أن الانسانية هي أسمى الأديان والطوائف والأعراق والأجناس والأنواع، وأن الحدود وألوان البشرة وطريقة الصلاة، لا تجعل إنساناً يستحق الموت، وآخر يستحق الحياة خالصة له من دون البشر أجمعين!!

الشر هو عدم وجود هذا المعنى في عقل الإنسان؛ فيستهزئ بمشاعر إنسان مثله، دون اكتراث لما سيشعر به، بعد أن يرضي هذا الأول، غريزة الشر بداخله . فإذا وضع كل إنسان نفسه مكان الآخرين، واستشعر ما يشعرون هم كبشر مثله، لن يجرؤ أحد على ايذاء آخر . لكن من منّا نشأ على تلك المثالية، ليستطيع كبح الغريزة الأنانية في طفولته، كلما نضج، عوضاً عن تغذيتها أكثر فأكثر، حتى أصبح العالم على هذا الوضع الذي نعاني منه جميعاً الآن؟!

يعتقد بعض المسلمين، أن الكافر يستحق القتل، وهو أقل منه في المكانة. أولم يعتقد من قبله، الأحرار في كل العالم، أنهم أسمى وأرقى وأفضل من العبيد؟ ولكن هذا العهر الإنساني قد انتهى. وإن لم يكن قد انتهى، لكنت الآن أناشد الناس أن يعوا أن عبيدهم ليسوا إلا بشراً مثلهم، يشعرون ويتألمون، ولهم نفس الحق في الحياة . ربما يبدو هذا غريباً وغير واقعي،

ولكن هل من الواقعي أن نناقش حتى الآن، أن الرجل أفضل من المرأة، وأن له حقوقًا أكثر لأنه الجنس الأسمى؟!

أو أن نحاول إقناع المسلمين بأن أصحاب الديانات الأخرى، ليسوا كفاراً في النار مخلدين، أنجاسًا وديوثيين، لمجرد أنهم يتعبدون لنفس الإله ولكن بطريقة مختلفة؟ نفس الشيء، ولكن من تربى على العهر، يعتقده قمة الشرف، ومن شاهد من الخارج، يقف متعجباً ومستنكراً، دون وجود ملحوظ، ولكن إن تحدث اتهموه العاهرون بالعهر!

وجدت التخلف الفكري والعنصرية البلهاء، في أنحاء العالم أجمع وليس في بلداننا فقط . فكم يظن العرب المتقدمون أنفسهم، في قاع العالم، حيث التفرقة والعنصرية، بينما هم أنفسهم عندما يذهبون لتلك الدول التي يعتقدون أنهم يتبعونها فكريًّا، لنيل حياة أكثر إنسانية، يلاقون عنصرية لا يتلقاها المنبوذون في مجتمعهم الأصلي من الاساس ! أوليس كل البشر يا عزيزتي مجرد تابعين؟

يجب أن تعرفي أن كل فعل إنساني، قابل للاستغلال، من قبل الطيبين والأشرار على حد سواء، وما يفصل بينهم ليس سوى خيط رفيع. قد قلنا من قبل، كيف أن الإنسان وحده، هو من يستطيع بقدراته العقلية، أن يصرّف نفس الشيء في عدة

جهات مختلفة عن بعضها تماماً، وأن يرى نفس الشيء بعين مختلفة عن عين من بجانبه، وكأنها شيء مختلف بصفات عدة!
إذا عدنا إلى بداية حديثنا، لا يكمن الشر في الفقر، بل في اشتداد الاحتياج عند غريزة الأنا الطفولية، فيزيد معها طرديًّا اللامبالاة لمشاعر الآخرين. إذا ما سرقنا أشياء يحتاجون إليها، أو حتى إذا قتلناهم، ليحصل أطفالنا على وجبة عشاء، لليلة فقط!

هل الشيطان هو شخص مستقل يوسوس لنا بشر الأعمال، ونحن إما نطيعه أو نرفض طلباته الشريرة تلك؟ هل نسمع أصواتًا بخارجنا تريد لنا أن نعمل أشياء معينة، فنفعلها بلا وعي، أم أننا نحن الشياطين أنفسها؟
هل حقًّا يحتاج الإنسان لشيطان لكي يحثّه على الشر النابع أساساً من حب الذات، أم أنه يحتاج للشيطان لكي يلصق به أفعاله وكأنه ليس المسؤول عنها؟ و إذا كان الشيطان موجوداً، بشكل منفصل عنا، هل يوسوس للأطفال الأبرياء كي يفعلوا ما هو خطأ، وما ستعاقبهم عليه أمهاتهم إذا فعلوه، أم أننا نولد بشياطيننا؟ هل عندما يُسلسل الشيطان في الشهر الحرام، يتوقف الناس عن فعل الشرور لأنه لم يعد هناك من يحثهم عليها، أم في حقيقة الأمر، لا يوجد اختلاف أبدًا، لأننا نحن

الشياطين؟ لن أجيب عن تلك الأسئلة لتفاهتها، ولسلاسة الوصول البديهي لإجاباتها. جدي أنتِ الإجابة، إذا كنتِ قد تعلمتِ في السنين القليلة الماضية، كيفية التفكير الذي يعتمد على المنطق والتوصل لإجابات غير التي تعلمتِها في صغرك، والتي لا تمت للعقلانية بصلة، ولكنها مريحة، وتهدئ من روع الأطفال التي تسكننا، وسبق لي ذكرهم لك من قبل!

النفس وغرائزها الفطرية، هي سبب الشر، ليس فقط غياب الخير، الذي هو أيضًا فطري، بل وأقوى بكثير من الأول. كيفما أن وجود النور أسطع، وأحب إلى القلب من الظلام . هل صادفك أن قابلت يومًا شخصًا صحيحًا نفسيًّا تمامًا؟

هل يقدر الإنسان على تغيير طبعه، أم أن محاولة التغيير تلك لا توصله إلا للتطبع، الذي سرعان ما ينكشف في أول لحظة غضب، أو صراحة، أو حتى سُكرْ؛ حيث يتحكم اللاوعي بلسانه ومراكز التحكم في العقل الواعي الذي تم تغييبه؟

تقويم النفس وتربيتها مثل تربية الطفل تمامًا، الذي يولد بخصال، مثل العند والأنانية وكذا، ولكن تقويم أهله يغذي بعض الصفات على حساب البعض الآخر، وهكذا يستطيع أن يفعل الناضج، لكنها حرب عليه خوضها، إذا أراد الارتقاء الإنساني، كما يحاول الارتقاء بمستواه المادي، فينكبّ على

العمل، ولا يكترث كثيراً للإرهاق الدائم، لأنه يريد الأفضل، وكذلك في النفس، إذا أراد اتقاءها أيضًا، وجب الشقاء..

على المرء أولًا مواجهة نفسه بحقيقتها، عيوبها ومميزاتها، ويتقبل عيوبه من عيون المتضررين منها، ليس فقط العيوب التي تؤرقه هو، فتلك سهل مقاومتها، لأنه عندما يعي الإنسان عيبًا يملكه، ويراه بعين الآخرين، سيكون دائمًا مترقبًا حدوثه . وعندما يحدث، سيشعر بالشعور السيئ الذي تسبب فيه للآخر؛ وبالتالي لن يكون مرتاحًا تمامًا بصفته هذه، وبهذا نكون أعدنا احتياج التغيير للأنا، التي يولد بها الإنسان، فيتغير ليريح نفسه من عذابها، وليس نفاقًا كي يعجب الآخرين بظاهره، بغض النظر عن الجوهر الفارغ..

التطبع نفاق. أما تغيير الطبع، فهو ممكن، بل وضروري، وفهم النفس وتقويمها هنا، أسمى درجة يصل إليها الإنسان في الوعي. لكن كيف تطلبين من أناس لا يهتمون بامتلاك الوعي الكافي لتنشئة أطفالهم بشكل صحيح وهم لا يزالون كالحجر، حيث يكون النقش عليه سهلًا، ويحتفظ بالنقوش إلى الأبد، أن يدركوا ويعوا إلى تربية وتقويم أنفسهم، وكأنك تطلبين من نحات أن ينحت تمثالًا، من ماء المحيط فوق المحيط نفسه!

إن الإنسان يميل بطبعه لاتباع الجمع؛ لاعتقاده أن الأغلبية لا يمكن أن تكون أغبى من شخصه، وهو فرد واحد، لا يمكن للعدد الأكبر، أن يفعل شيئًا ما، إلا لزم لهذا الشيء أن يكون طبيعيًّا أكثر من الأشياء التي يفعلها القلة، فيتبع بدون تردد!

لا يحتاج الإنسان وعودًا من السماء لكي يساعد الآخرين . وإلا لماذا نجد أن في الغرب من يساعدون الفقراء، ويعطفون عليهم أكثر، دونما اكتراث لمكان ولادتهم، أو إن كانوا من نفس دينهم، بل وملحدون كثر يعملون على مساعدة الآخرين أكثر من أصحاب الديانات؛ ذلك لأن مساعدة الآخرين تعطينا إحساسًا جيدًا نحو أنفسنا؛ وبهذا نشعر أننا أناس أفضل، فلولا فطرة حب الأنا، ما ساعد أحد أحدًا، فأي شيء تفعله، و لو كان ضد رغباتك، يعطيك شعورًا عظيمًا نحو نفسك. البشر يعبدون أنفسهم، فعلم النفس يثبت أنه لا وجود لأي عمل خير، ليس أنانيًّا من النوع الأول، لأن ذلك مطبوع في فطرتنا، مع معرفة وجود أن هناك خالقًا، والقدرة على التمييز بين الخير والشر..

وجود الشر حتمي لفهم واستيعاب الخير. إن التناقض في كل شيء على وجه الأرض، واضح وجلي ومتشابك، فلا يمكننا تعريف الحب لو لم يكن هناك كره، ولن تستطيع رؤية النور، بدون وجود الظلام، ولن نعرف قيمة الدفء والشبع لو لم

نعانِ من البرد والجوع، فوجود الشر شيء حتمي لجعل الإنسان يفهم الخير، ويجده ويتلذذ بفعله.

في عام ٢٠١٢ تبرعت ماري، مدرسة رياض الأطفال في مدرسة عامة بأمريكا، بكليتها لوالد تلميذ في صفها، بعد أن لاحظت غياب تلميذها "شون" عن الصف بسبب التوتر في منزله للبحث عن كلية مناسبة لوالده، بعد أن وُضع على لائحة الانتظار لعاملين كاملين، ثم اكتشفوا أن الكلية التي كان سيزرعها أخيراً مريضة، وسيطول الانتظار مرة أخرى. ذهبت ماري للمؤسسة المختصة، وخضعت للاختبارات، لأنها أرادت لوالد تلميذها أن يكون بخير؛ وبالتالي سيكون تلميذها بخير. وبالفعل تبرعت له بكليتها، ووهبته حياة جديدة، ووفرت له ٣٢٠٠ دولار شهريًّا، كان يصرفها على علاجه. عندما سألها زوجها، لماذا تعرض نفسها لكل هذا من أجل رجل لا تعرفه ولم ترَه من قبل، قالت: "لم أستطع أن أرى من يحتاج المساعدة ولا أقدم له العون!".

وعلى صعيد آخر كليًّا، عام ٢٠١٦، باع أحد مربي الثيران في أسبانيا ثورًا له، تربى على يديه منذ أن ولد، كي يراهن عليه في حلبة صراع الثيران. في وسط الجولة، وأثناء ما كان الثور ينزف دماءه من كل مكان، لاحظ وجود المزارع الذي رباه على

جانب الحلبة، فذهب إليه، وقبّله في فمه، ليطلب المساعدة، بعد العذاب الذي لاقاه. لكنه لم يكن يعلم أن صاحبه قد باعه، ليستمتع المشاهدون برؤيته وهو يموت!

نشرت إحدى الصحف الخبر بعدها بعنوان : ”لا يوجد حيوان بالعالم أكثر وحشية من الإنسان“. ورغم أنه في أوروبا، يتعذب على هذا النحو حوالي ٤٠،٠٠٠ ثور كل سنة حتى الموت، ووجود ٤٢ مدرسة في أسبانيا تعلم الأطفال كيف يعذبون الثيران حتى الموت من أجل التسلية، إلا أن قبلة هذا الثور وحده لصاحبه، ونظرته الطفولية له في تلك الصورة، التي أخرجت الناس من صمتهم لفترة بعد هذا الحدث، أثرت كثيراً في نظرة بعض الناس لمن هو الحيوان حقًّا .. هل يعقل أن يكون الثور أكثر إنسانية من صاحبه؟!

الشر ليس موجوداً في ذاته، بل فقط الأنا هي أعظم ما يولد مظاهر، أسماها الأولون بالشر. فكل عمل يفعله شخص لا يهتم فيه سوى لأناه، دون أي اكتراث لمشاعر ووجود الآخرين، هو ما يظهر ظواهر الشر، فيعود بذلك لنفسه الطفولية، غير المقومة بعد لترتقي لكونه إنسانًا، وليس كائنًا حيًّا لا أكثر . كل فعل يفعله شخص، لتعزيز أناه، من دون النظر للإنسانية،

كالقتل، والسرقة، أو تحقير الآخر، هو ليس بالفعل شرًّا، بل فقط فطرة الإنسان بدون تقويم..

الإنسانية الفطرية بدون الأنا، هي الخير بداخلنا . أما الجهل والتعصب، فهما بداية كل شر .. نحن جميعًا ولدنا، ووجدنا أنفسنا على ما نحن عليه، تقبلنا كل ما قيل لنا بحسن نية وإن كان شرًّا. زُرع فينا ما فينا، بدون تدخل منا مطلقًا، فكبرنا وتلك الأشياء التي بداخلنا هي الوحيدة التي نألف، حقائق مطلقة بالنسبة لنا. لم يعلمنا أحد كيف نفكر بموضوعية في شيء لكي نستطيع أن نملك المطلوب، لنختار بإرادتنا كيف نريد أن نعيش . لم نتعلم كيف نبني مبادئ خاصة بنا، بناءً على أسس عقلية لنكون راضين عن أنفسنا، بل فقط يرضينا ما تعلمنا من البداية أنه كافٍ للشعور بالرضا عن النفس...

تقويم النفس فرض عين علينا، ولكن لا يتجلى للإنسان هذا الفرض إلا عندما يملك أولًا إدراكًا يوقظه من غفوته، التي تهيئ له أنه على حق مطلق . ثم أن يمتلك وعيًا، بما يجب عليه تغييره، بعد أن ينفض التراب عن عقله ويعرف كيفية استعماله، ثم بعد ذلك يأتي التغيير الجذري بشكل طبيعي وغير مصطنع .

التطبع، هو أن يمثّل الإنسان صفات ليست به، لكن هذا لا يعني أنه ليس بإمكان أناس ناضجين اكتساب الطبائع في الكبر حالما

يدركون أنهم يحتاجون لذلك. قوة العقل البشري لا يضاهيها قوة. مع أول ومضة من استعماله، يمكن أن تنقلب الطبائع رأسًا على عقب . العقل مهيأ لأن يشكل للإنسان أي شيء يعتقد فيه بشدة. يكفي فقط أن تبدئي بالاعتقاد بالأشياء الأكثر منطقية، عوضًا عن تلك التي هي أكثر شيوعًا!

عندما كنت في سن المراهقة، قرأت كثيرًا عن هتلر، وبحثت بكل مكان عن كتاب "كفاحي"، الذي شاهدت عنه في فيلم أمريكي، بأنه محظور ولا يجب على أحد قراءته . فقرأته، وأحببت هذا الرجل، وظللت أدافع عنه أمام الناس؛ لأني أرى في موقفهم منه سطحية عمياء، غذى عقولهم بها اليهود، من خلال الإعلام الذي جعل من هتلر أسوأ شخصية في تاريخ البشرية، برغم أن السبب الحقيقي الوحيد، الذي جعله هكذا، هو عداؤه لليهود، الذين يملكون القدرة على التحكم بعقول العالم. فهو بالفعل ديكتاتور، ولكن له مزايا عدة، فهو من أقام دولة ألمانيا بعد أن كانت خرابًا، منذ الحرب العالمية الأولى وحولها إلى دولة عظمى، بعد مجاعات وجيش منهك، وهو أيضًا أول من رأى اليهود كشعب يسعى لخراب العالم ليحيوا هم، وأول من أدرك سيطرتهم على كل أنواع الإعلام، ونشر الإباحيات والعنف بها.

أراد أن يكسرهم لتبقى بلده بأمان. أراد أيضًا أن يتحدى دول العالم ليثبت قوة دولته. فبعد كل شيء، هو ولد في زمن، لا تعتبر فيه ألمانيا دولة، رغم أن كتب التاريخ التي قرأها في صغره، تقول إنها كانت شامخة، قبل الحرب العالمية الأولى . هذا ما أوقعه، أنه هرع وراء السيطرة ليعيد أمجاد بلاده فخسر كل شيء. ولكني ظللت أحترمه وأقدر كيف تحول من طفل ضعيف الشخصية، وشاب يسعى بالكاد وراء الرزق، إلى الرجل الذي كاد يعيد ترتيب خارطة العالم.

لم تكن تلك النظرة المشينة لإنسانيتي التي امتلكتها، إلا لأنني تربيت كالأغلبية، على الكره غير المبرر لليهود، بتوثيق تاريخي، بأن هذا الكره حقيقة وواقع مثل الماء والهواء . لكنني عرفت بعد ذلك أن البشر واحد، مهما اختلفت الأسماء والأشكال والاعتقادات، وكانت تلك أول خطوة نحو تمردي على مجتمع بأكمله، بعد أن صُدمت في مدى صحة قواي العقلية لأول مرة . بعد أن كنت أتحدث بكل ثقة عن كرهي لجميع اليهود، وبأنني إذا قابلت يهوديًّا يومًا ما، لن أستطيع التحمل، ولا السيطرة على الداعشي الذي بداخلي، وبالتأكيد سأقتله!

وقفت يومًا في الجامعة، بعد استفاقتي، وقلت لزملائي الذين تحدثوا بنفس لهجتي العدائية القديمة، في ظل ظروف تمر بها

بلادنا، وكانت العنصرية والكره ضد المسلمين حينها معاناة، وظاهرة مؤرقة لنا جميعاً:

"كيف لكم أن تتعجبوا من كره الغرب غير المبرر لجميع المسلمين، كيف يؤرقكم عنصريتهم ضدكم، لأنكم تعلمون، أن السيئ هم القلة القليلة، وبأنكم بشر مثلهم، تحبون الحياة وتكرهون القتلة، ولو على دينكم وأنتم تفعلون ذلك منذ عقود طوال؟!.. سوف تربون أولادكم على أن الكره والعنصرية ضد اليهود واجب ديني، وبأن كلهم سواء، وجميعهم قتلة، وجميعهم يكرهوننا، وجميعهم في النار . فذاك نفس الكأس تذوقونه . يتهمكم العالم بالوحشية والقتل والشر والكره. كل واحد فيكم، بلا استثناء، مع غض الطرف عن كل الحقائق الحياتية التي نعيشها، بأنكم أشرار لأن منكم من هم كذلك... لماذا تريدون أن يتقبل العالم دينكم وثقافتكم ولا يحكموا عليكم بسبب تصرفات القلة منكم، ثم تحكموا على ملايين البشر بأنهم جميعاً يستحقون القتل، وبأن ليس فيهم شخص جيد! سطحية لم أرَ مثلها من قبل.".

ارتباطي الساذج بهتلر كان فكرة عنصرية في حد ذاتها، ولكنني لم أدرك ذلك؛ لأن الشر الذي تغذيت عليه في صغري أعماني . وكذلك التي يتعلمها الجميع في الغرب بكره شخصية هتلر كره

أعمى بدون قراءة موضوعية، فهم أصبحوا يمتلكون حساسية مفرطة تحول دون ذكر اسمه . هل كان حقًّا شريرًا، أم أن إيمانه بأنه كان يفعل ما هو في مصلحة بلاده، مما يعني أنه لم يقصد إلا خيرًا، يكفي لكي يكون شفيعًا له حيث لا يمكننا تصنيفه شريرًا؟

أليس جميع الناس عندما يرتكبون الشرور، يظنون في أنفسهم أنهم يفعلون ما هو في المصلحة؛ وبالتالي هم يفعلون الخير؟ إذن يرتكبون الشر بسبب احتياجهم للخير!! ولكن الخير إذا لم يعم على الجميع، من دون تعصب وعنصرية، لا يعتبر خيرًا يا صغيرتي. فإرضاء النفس فقط، وإعلاء الأنا على الإنسانية بأكملها، هو الشر بعينه، حتى لو كان الخير للأنا هو المقصود . لأن الفرد، إن لم يعِ أنه جزء لا يتجزأ من الإنسانية كلها، لا يكون إنسانًا، ومهما يفعل، لن يكون خيّرًا أبدًا.. هل فهمتِ من أين يأتي الشر في عالمنا يا صغيرتي؟".

قمت من على سريري، ووجدت السؤال التالي والأعظم، مسطورًا على اللوحة، التي بهت لونها مع السنين تمامًا، يقول: "كيف تعرفين أن الله موجود؟".

ارتديت ملابسي، وخرجت إلى المدرسة مع أبي كالعادة، في الشهور الأخيرة، بعد أن توقفت أمي عن الاستيقاظ مبكرًا،

وعن مباشرة أي أعمال في المنزل تماماً، ترك والدي عمله الصباحي، ليمكث معها أطول فترة ممكنة، قبل أن يغادر ليلًا، لأتحمل أنا مسؤولية البيت، في الساعات القليلة التي يغيبها. لم يستطيعوا إخفاء الأمر عنّي كثيراً، فهي من علمتني البحث، لأعرف كل ما لا يجاوبني عنه من حولي . ومما لاحظت عليها من أعراض، استطعت بنفسي أن أعرف مرضها. عندما واجهتها بأنني أعرف، بكت وضمتني إلى صدرها، الذي بدا أكبر حجماً . كنت أعرف كم هذا الحضن يؤلمها! لكنني لم أرد أن أخف عنها الألم وأخرج منه أبدًا، ثم قالت لي: " لا تقلقي يا صغيرتي، أنا أعدك أن لا أتركك أبدًا!".

لم يعد لعيد مولدي طعم هذه السنة. وإذا كان هناك، فلا أريد أن أتذوقه على أية حال. عند حلول المساء، وبعد أن غادر أبي المنزل، جلست بجانبها فوق السرير وهي شاردة تماماً في فيلم عربي قديم، أكاد أجزم أنها تحفظه كلمة كلمة . أغلقت التلفاز لأسرق انتباهها وقلت:

- لماذا لم تسأليني هل الله موجود أم لا؟

- وهل تملكين إجابة على هذا السؤال؟ أعتقد أن صيغته خاطئة لأنه سؤال لا تكون إجابته إلا بنعم أو لا، وفي كلتا الحالتين لن تملكي دليلًا يثبت صحة إجابتك!

- هل تعتقدين يا أمي أن هناك حياة بعد الموت؟

- الحياة تجلس بجانبي الآن، ولا أريد سواها، ولكنني أتمنى من كل قلبي أن يكون هناك يوم للحساب. لا أستطيع تقبل فكرة الملحدين عن عدم وجود عدل بعد هذه الحياة الظالمة . لا أستطيع تخيل أن ينفذ المرء بأفعاله الشريرة، التي ظلم بها الكثيرين، ثم يتساوى الطيب والخبيث، بعدم الشعور بأي شيء فور الموت.

- أتعتقدين أنك ستدخلين الجنة إذا ما كان هناك حساب؟

- يا صغيرتي، إنني لم أفعل خيرًا في هذه الدنيا، سوى أنني قلت لا إله إلا الواحد، مبدع هذا الكون. وإذا كان الحساب عادلًا، سيدخلني في رحمته لا محالة. لا لأنني فعلت كل ما عليَّ فعله، ولكن لأنه أعظم بكثير من أن يعذب شخصًا أحبه بهذا القدر ولم يسئ يومًا لبشر، حتى إذا كنت في نظر الأديان أستحق عذابًا أبديًّا، أنا أعرف أن الله الذي أعبده لا يحكم بنفس ضآلة عقول البشر في أحكامهم.. ثم لأكون صريحة معك، أنا لا أريد أن أعيش إلى الأبد في جنة في السماء، فقط يكفيني عند موتي، أن يتحدث إليَّ، ويخبرني من كان على وجه الأرض على حق، ومن كان خاطئًا، معتقدًا تمام الاعتقاد في صوابه المطلق.

كل ما أريد هو أن أعرف، ثم لا أكون شيئًا بعد ذلك، ولا أعود لهذه الدنيا أبدًا!

- أريد يا أمي أن تكون هناك جنة؛ لكي أكون بجانبك في العالم الآخر. فأنا لا تكفيني هذه الدنيا، ولا يرضيني أن أعيش حياتي خائفة من أن لا أرى أغلى ما عندي مرة أخرى!

- قلت لكِ من قبل إنني لن أتركك أبدًا . أنا معك من قبل أن تتكوني في أحشائي، وسأكون معك إلى النهاية، إذا كانت هناك نهاية!

❁❁

(٢٠٦٥)

دخلت حياة غرفة إيما في الصباح، فوجدتها مستغرقة في نومها، على الكرسي والكتاب بيدها.

- استيقظي يا عزيزتي. قالت حياة.

- هل نمت هنا حقًّا؟ سألتها إيما وهي ما زالت تحاول فتح عينيها.

- يبدو أنكِ لم تشعري بنفسك من التعب . هيا أتبعيني، قد أحضرت لنا فطوراً شهيًّا على الطريقة المصرية، فقد طلبته أمي مني ليلة أمس لأنها اشتاقت لمذاقه.

- مممم.. حسناً. قالت إيما وهي تنهض من على الكرسي . خرجت حياة من الغرفة متوجهة إلى المطبخ، بينما دخلت إيما المرحاض المخصص لغرفتها لتغسل وجهها وتستعيد نشاطها لليوم الجديد.

- هل أعددتِ القهوة؟ سألت إيما وهي تدخل إلى المطبخ، بينما كانت تضع حياة الأطباق على المنضدة العالية التي تتوسطه.

- يجب أن تأكلي أولًا قبل تناول القهوة. أنتِ تعرفين ذلك جيداً، فأنا مصابة بتقرحات المعدة بسبب تلك العادة السيئة و أنا في مثل سنك.

- لماذا لم تخبريني أي شيء عن حياتك قبل أن تأتي إلى الولايات المتحدة يا أمي؟ أنا اعتدت أن أراكِ تلك المرأة القوية المجنونة قليلًا، حتى أنني نسيت أنكِ في يوم من الأيام كنتِ طفلة ومراهقة، عانت من أشياء لم أكن أتخيل أنكِ قد عشتها!

- هل أنجزتِ الكتاب كله كما وعدتِني؟

- لا. غفوت في منتصفه، لكنني سأخرج إلى الحديقة بعد تناول الفطور لأكمله. كعادتي لن أنقض عهداً معك، فأنتِ طلبتِ مني أن أنجزه اليوم وهذا ما سأفعله.

- جيد يا صغيرتي.

- تعرفين، بدأت قليلًا في الاهتمام بالفلسفة وعلم النفس. ربما سأقرأ عن أفكار الفلاسفة القدماء، وعن ثقافة الشرق الأوسط، الذي لا يصلني عنه سوى كل سئ عبر الإنترنت.

- يسعدني أن أسمعك تقولين ذلك.

- تعرفين يا أمي، أحيانًا أتمنى لو أنك كنتِ متفرغة لي تمامًا في صغري كما كانت أمك معك، بدلًا من أن أتعرف عليكِ لأول مرة من كتاب، ربما تقرأه زميلة لي في مدرستي الآن، وتتعرف عليكِ كما فعلت لتوي تمامًا.

- هل أعجبك الفطور يا أمي؟ سألت حياة أمها، التي تجلس على الكرسي المجاور لإيما.

- ها قد بدأنا! سأخرج إلى الحديقة الآن، أراكِ لاحقًا. قالت إيما وهي تخرج من المطبخ، لتتابع فتح الكتاب وهي تجلس على واحد من الكراسي المنخفضة، في حديقة المنزل الخضراء، المليئة بالزهور المفضلة لجدتها، والتي تعطي لها حياة اهتمامًا بالغًا كي لا تدبل أبدًا، وبدأت بالقراءة من جديد.

❁❁

(٥)

جلستُ بجانب أمي في ليلة ما، قبل موعد وصول أبي إلى المنزل. وفيما هي كانت مستغرقة في النوم، كنت أنا منهمكة في قراءة كتاب جديد، ابتعته اليوم من على رصيف مدرستي، فيما كنت أنتظر أبي، الذي تأخر عليَّ بسبب توصيله لأمي لموعدها لجلسة العلاج الكيميائي . عندما جاء أخيراً، وجدتها تجلس بجانبه على الكرسي الأمامي منهكة تماماً ولا تستطيع التنفس. مغمضة عينيها، ولم تهتم لوجودي من عدمه، ومنذ وصولنا إلى المنزل وهي مستلقية على السرير، حتى خرج أبي للعمل، فاستسلمت بعدها للنوم، وكأنها لا تريد أن تضيع لحظة هو فيها في البيت مستقيظ وهي نائمة، حتى وهي في أشد حالات الإعياء.

كنت أقرأ على إضاءة خافتة، على الجانب الأيمن من السرير، و هي نائمة على جنبها الأيمن، واضعة يدها أسفل خدّها، فهي

لم تعد تستطيع النوم على بطنها، كما اعتادت منذ طفولتها أن تفعل، لشدة الألم الذي ينتابها عندما تحاول فعل ذلك، ولم تعد تستطيع أيضًا اختيار أي جانب يريحها في النوم، بل عليها فقط النوم هكذا لكي ترتاح ولو قليلًا، بعد حقن المسكنات التي أخذتها. تفاجأت بصوتها يحدّثني، ليعلمني بأنها قد فاقت من قيلولتها القصيرة:

- ماذا تقرأين؟ سألتني وكأنها تكاد لا تجد هواءً كافيًا لجعلها تتكلم.

- كتاب عن الاغتراب النفسي.

- وما ذاك؟

- مفهوم واسع يستخدم في علم النفس والاجتماع والفلسفة، باختصار شديد هو عندما يشعر الإنسان بأنه منفصل عن ذاته أو مجتمعه، وبأن الحياة ليس لها معنى، وبأن هناك مسافة كبيرة بين الذات وهويتها؛ فيكون الإنسان غريبًا عن ذاته وتكون الحياة والمجتمع الذي تربى فيه غريبين عنه...

- إذن أنا عندي بعض هذا المرض ! ارتاح صوتها قليلًا عندما قالت هذه الجملة.

- هو ليس بالضرورة مرضًا... كلنا مدمرون من الداخل، ولكن بأشكال مختلفة، ألم تقولي لي أنتِ ذلك من ذي قبل؟ أريد أن

أعرف حقًّا ما هو المرض الذي تعتقدين أنكِ تعانين منه؟ سألتها وأنا أغلق الكتاب وأضعه على المنضدة بجانبي. لم يُكتب كتاب بعد، يستطيع أن يثير إعجابي، أكثر من الحديث مع أمي!

- أتعرفين، كان هناك زمن، صنّف فيه العلماء العشق كمرض نفسي في حد ذاته. فقد قال عنه ابن سينا في كتابه القانون في الطب: "هذا مرض وَسواسي، شبيه بالمالنخوليا (الاكتئاب)، يكون الإنسان قد جلبه إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل، وقد رأينا مَن عاودته السلامة والقوة وعاد لحمه، وكان قد بلغ الذبول وجاوز، وقاسى الأمراض الصعبة المزمنة والحميات الطويلة بسبب ضعف القوة لشدة العشق". فإذا كان العشق مرضي يا صغيرتي، فأنا أسعد الخلق بأنني حين أصف أعراضي، أصفك أنت.. قالت بعد أن عدلت وضع جسدها لتجلس وقد أسندت ظهرها على وسادتها الكبيرة، ثم استطردت قائلة:

- عندما كنت صغيرة في مثل سنك، أو ربما أكبر قليلًا، كنت أعتقد أنني أعاني من مرض نفسي يسمى باضطراب الشخصية الحدية (borderline persnality disorder)؛ بسبب عدم اتزاني العاطفي وسرعة تحول مزاجي من أقصى لأقصى

بسرعة، وعدم القدرة على الدخول في علاقات جدية؛ لأنني في لحظة واحدة قد لا أتحمل الشخص الذي كنت أحلم به في الليلة الماضية. كنت كثيرة الاندفاع والتهور. أقود بسرعة، وكانت لدي ميول انتحارية. قرأت كثيرًا عنه، وغصت به من كثرة تشابه أعراضه مع شخصيتي بالفعل. لكنني حين نضجت، عرفت أنها أعراض عمرية، لمن عانوا في نشأتهم من البعد النفسي والعاطفي عن الكيان الأسري، وأننا جميعًا نعاني من خليط أعراض من أمراض عدة . إن وصفي لنفسي بهذا المرض، أشبه بمن يقول عن نفسه إن لديه مرض الشيزوفرينيا، لأنه ينسى كثيرًا، بينما هو بعيد كل البعد عن هذا الوصف، الذي إذا عرفه جيدًا، من يصف نفسه بذلك، لن يقولها مرة ثانية، ولو حتى مازحًا؛ لأنه في حقيقة الأمر مرض عقلي مزمن، يسبب أعراضًا ذهانية عدة، تجعل الشخص يتوهم سماع أصوات ليست موجودة، أو رؤية أشياء خيالية.. هناك اضطراب نفسي يسمى باضطراب الشخصية الاعتمادية أيضًا . يشبه شخصيتي كثيرًا، فهذا الشخص يخاف دائمًا من تخلي أحبائه عنه، ويعتمد في قراراته دائمًا على متطلبات واحتياجات الآخرين، ويشعر بعدم الراحة و العجز، عندما يكون وحيدًا، ولا يستطيع فعل أي شيء وحده، ولا أن يتخذ قراراته الشخصية بدون نصائح

وتوجيهات من الذين يحيطون به. ولكنني مع ذلك لست من هذه الشخصيات بشكل كلّي، ولا يمكنها أن تمثلني جذريًّا، ففي النهاية، كلنا مرضى ومختلون عقليًّا، في هذا العالم الذي هو أشبه بمشفى مجانين ضخم، يظن أخطر مرضاه أنهم الأطباء!

- وفي رأيك، ما هي أكثر الاضطرابات النفسية التي أعاني منها أنا؟ سألتها.

- أنتِ لم تمرضي بعد ! خبأت جنوني عنك قدر الإمكان في طفولتك؛ كي لا تصابي بالعدوى. لكن من الآن وكامرأة ناضجة، سيكون عليك حماية نفسك بنفسك، من التأثير الذي يمكن أن يضعك فيه قربك من المرضى المصابين بأمراض صامتة، أي أن أعراضها غير واضحة للعين المجردة، بينما هي في الحقيقة تنهش أعضاءهم من الداخل وتقتلهم .. عليك من الآن أن تحصّني نفسك، فأنتِ لم تعودي تجوبين العالم بداخل حضني الدافئ، حيث أخبئ وجهك، وأحمي أنفاسك، وأغمض عينيك عن كل شر أجده قد يؤثر فيك، أنتِ من عليك مواجهة هذا المشفى بمرضاه وأطبائه المصابين، و إذا مرضتِ ذات يوم تعلّمي مرضك جيداً، تعرَّفي عليه عن قرب، حتى تتحكمي به ويهابك؛ ليكون لك سلطة الكون بين يديك. عقلك طاقة وقوة، ستقدرينها حق قدرها عندما تستخدمينها بشكل صحيح.

عاد أبي مبكرًا هذا اليوم. طلب مني فور دخوله، تحضير العشاء لثلاثتنا، وعندما ذهبت لإعداده، أغلق باب الغرفة. أشعر بأساه كثيرًا، وأعرف كم لا يتحمل رؤيتها تتألم رغم تظاهره بالقوة! لا أعرف لماذا لا أخاف كثيرًا كما يفعل، فأنا أوقن أنها ستصبح أفضل، وستنتصر على هذا المرض . أمن علمتني القوة والمواجهة، ستفشل في أن تكون أقوى وأشد؟ هي وعدتني أن لا تتركني، وهذه مجرد مرحلة ستخرج منها بخبرات كثيرة، تحكيها لي بطريقتها المشوقة، عندما تستخلصها لنفسها فيما بعد.

دخلت عليهما وأنا أحمل الطعام على يدي، فوجدتهما يصلّيان معًا، ورأيت لأول مرة في حياتي كلها أبي يبكي، كما رأيتها هي لأول مرة تصلّي! كان متضرعًا لله، يدعوه بصوت خافت، وأمي خلفه تدعو في سرها بدون بكاء.. لم تكن خائفة من شيء، وكان خائفًا هو من أن كل شيء له ربما يتركه عما قريب! ماذا حدث عند الطبيب صباح اليوم جعله ينهار ويصبح هشًّا هكذا، بينما يجب عليه أن يكون هو من يبث فيها الأمان والقوة؟!

سلّم أبي ومن بعده أمي، ومسح دموعه وكأن شيئًا لم يكن . ملامحه ظلت محافظة على قوتها الظاهرية، ولكن عيناه المنكسرتان الذابلتان، لم تنمَّا عن أي نوع من أنواع البأس .

تناولنا عشاءنا، ونمنا ثلاثتنا في سرير واحد. كنت مطمئنة، بينما ينبعث من على يساري الألم، ومن على يميني الأسى!

أحببت كليهما أكثر من أي شيء، ورغم ما عانى منه أبي، كان يكفيني سماع صوت أنفاسهما بجانبي كي أنام مبتسمة، لا أبالي لأي شيء؛ لأنني أملك فعليًّا، كل ما أريد وأحتاج...

كان اليوم التالي يوم جمعة. وهو يوم عائلي، اعتدنا أن نذهب فيه إلى بيت جدتي، ولكن في الفترة الأخيرة، كان يأتي كل الناس إلينا، جداتي وجدودي، وأخوالي وأعمامي . نشتري طعامًا يكفينا من الخارج، ونقضي اليوم سويًّا، نضحك ونتكلم ونشاهد التلفاز . لم يخفَ على أمي أبدًا نظرات التعاطف؛ بسبب وزنها الذي أصبح في وزن قطة صغيرة، ووجهها الشاحب الذي تخرج منه العظام، بعد أن كانت تملؤه الورود بلونها، ورأسها الذي أصبحت تغطيه دائمًا في البيت، بعد أن كانت تتباهى بشعرها الأشقر الطويل المموج بخفة. لكنها رغم كل ذلك، لم تتوقف عن الابتسام، والتصريح بأنها في حالة نفسية جيدة، وسعيدة لوجود الجميع حولها. مع أن في حقيقة الأمر، هي كانت لا تملك سواي أنا وأبي. لم يكن يقدم لها أي أحد سوى هذا اليوم الأسبوعي، ولم تكن ترتاح لعروض أمها وأم أبي بالمكوث معها لبضعة أيام ليساعدوها . لم ترد أحدًا أبدًا

بجانبها، ولم تحب أبدًا أن يخدمها أحد، حتى أمها التي كانت دائمًا تشعر بغربة معها. لم أستطع استيعاب تلك العلاقة، التي تكاد لا تجمعهما أبدًا، بسبب قربي الشديد لها. كيف لأم وابنتها أن يكونا بهذا البعد أصلًا!!

مع الأيام، زادت أحاديثي مع أمي كثيرًا وقد اقتربت من عامي السابع عشر، ولم أصبح الطفلة التي تحاول تلقينها خبراتها، التي لا تعرف عنها شيئًا، بل أصبحت أرى ما حدثتني عنه حولي، وبشكل مختلف لاختلاف حياتي وجيلي عن حياتها قديمًا، وجيلها القديم أيضًا.. تحدث أصدقائي معي في كل شيء من وجهات نظرهم الخاصة. لاحظت ظواهر، بدت طبيعية، ولكنني، ولما زرعته أمي فيَّ، لم أتقبلها بهذا الشكل، بل مثلت لي تساؤلات ومواضيع بحثية، وليست مجرد مواقف أراها في حياتي وبين أصدقائي، فأكون إما جزءًا منها، أو أن أستنكرها تمامًا، كما يفعل كل من أعرف. جلست مع أمي ذات يوم، وحدثتها عما دار في مدرستي ذلك اليوم، بعد خروج أبي كالعادة، وكانت نشطة قليلًا لأن موعد جلسة علاجها لم تأتِ بعد، فقلت لها:

- حضرت اليوم يا أمي مناقشة حادة بين صديقين في صفي. كان أحدهما متدينًا جدًّا والآخر ملحدًا، ويتباهى بهذا، ودائمًا ما يستهزئ بعلي، ويقلل منه، ويقول عنه غبي، ويضحك

أصدقاؤه لأنه ذو شعبية أكبر، وأوسم .. عندما فاض الكيل بعلي، وحدثني فيما بيننا عما يعاني منه نفسيًّا بسبب المضايقات، وأنه لا يستطيع أن يوقفه، أو أن يتقبل الاختلاف الذي بينهما بدون كره، طلبت منه أن يتحدث معه، وأتيت بمالِك بعيدًا عن أصدقائه، وجلست بينهما. قلت لمالك : أنا أعرف أن أباك وأمك ملحدان، وعلَّماك أن هذا هو الحق، وأن المتدينين أغبياء، لكن من الغباء أن ترى ذلك؛ لأن عليًّا ولد لأسرة متدينة، وعلمته أيضًا أن هذا هو الحق . لماذا لا تتقبلان اختلافاتكما دون أن تنصاعا للكره الذي زرعه فيكما الأهل ضد بعضكما البعض في صغركما؟ لم نصل لأي شيء، و لكنني أردت أن آخذ رأيك. فسألتني:

- وهل أصدقاء مالك جميعهم ملحدون؟

- لا، لكنهم لا يعارضونه، ولا يهتمون لأديانهم. ربما سيصبحون نسخة منه أيضًا في وقت ليس ببعيد. لا أعرف لماذا لا يفكرون، أم أن دائمًا التفكير يؤدي للإلحاد؟!

- وهل كان مالك مفكرًا مثلًا أو أهله مفكرون؟ كلامي لا يعجب الكثير ولا أهتم، ولكن الإلحاد في سن صغيرة، والذي هو منتشر بحدة الآن، مرتبط ارتباطًا وثيقًا مع الطابع المتمرد المحب للاختلاف في هذه السن، ليس إلا...

عندما كنت صغيرة، شاهدت العالم من حولي وهو ما يزال يتحول، شاهدت نشأة أول نقطة للبداية، فيما نعيش الآن وما سيكون هو الطبيعي والمعتاد عندما يكون أبناؤك أنتِ في مثل سنك..

كانت تلك النواة الأولى، تشير لكل ما تحكيه لي الآن. وهو أشخاص، ومن بينهم أهل مالك، من سن السابعة عشرة إلى الخامسة والعشرين، يدخلون في الإلحاد أفواجًا أفواجًا، في العالم العربي والأوروبي والأمريكي على حد سواء، لدرجة أنني كنت متعجبة من كم التشابه بين الشرق والغرب، في أحاديثهم عن أسرهم المتدينة، وما يعانون منه في المجتمع الأسري، والعام بسبب إلحادهم. طبعًا في الغرب كانت الحدة في التعامل مع هؤلاء المراهقين أقل وطأة من عالمنا العربي، ولكنها متشابهة بشكل عجيب. لدرجة أنني عرفت في صغري، ابنة لأسرة أمريكية مسيحية، عندما كنت أزور أختي هناك طردها أهلها من البيت، ولم يتكفلوا بها بعد أن صارحتهم بإلحادها؛ ظنًّا منهم أنه عندما تحتاج إلى المال ستعود عن أفكارها، لترجع إلى المنزل.

ولكن ما دعاني لاعتقاد تام بأنهم مجرد أطفال، يسعون بشدة نحو الاختلاف لا أكثر، هو عدم اختلافهم بأي شكل عن

المتدينين، وهو أنني كنت أشكك في كل شيء من عمر العاشرة، وقد وصلت للثلاثين - في حينها - ولم أستطع بعد تقرير شيء كهذا بشكل جذري، وهو ان الله ليس موجود أصلاً! كثرة تفكيري في الأديان والمثيلوجيا ووجود الله، جعلتني أكاد أعلن إلحادي، حتى ظهرت تلك الموجة العنيفة من الملحدين، تجتاح العالم كله، لكل من هم في مثل سني، فجعلتني أتشكك منهم أيضاً، كما فعلت ممن سبقوهم، فوجدت أن الجانب الآخر يحمل أسئلة لا يمكن الإجابة عنها أيضًا، ولا يمكن لباحث حقيقي عن الحق، أن يستسلم لمعتقد ما، أيًّا كان، بتلك السرعة، ويدافع عنه بضراوة، بدون أن يبحث ويبحث، حتى يرهق عقله من كثرة التفكير...

هم فقط وجدوا تيارًا معاديًا لما تربوا فيه، به علماء ومفكرين، فظنوا أنهم سينتمون للعلماء، وللغرب المتقدم عامة، إذا ما أعلنوا أنهم ملحدون، مفكرون، وإنسانيون. كانوا حينها يتباهون بالعلم، كأنهم من صنعوه. كانوا يقولون عن أنفسهم مفكرين، وما كانوا في حقيقة الأمر سوى تابعين، يقلدون العالم الذي يودون أن يوصفوا بأنهم جزء منه، ولم يكونوا منه في شيء ! فما أكثر العلماء الذين ألحدوا في صغرهم وماتوا وهم يعلنون أن هذا العالم به خالق واحد لا محالة، بعد تبحرهم في

علومهم، وفي مشاهدة الكون بعين العلماء، لا بعين قارئ تابع لمن يقرأ له وكأنه إله في ذاته!

كان لديَّ صديق ملحد وأنا في مقتبل العشرين، ولكن حينها لم يكن الاعتراف بهذا سهلًا مثل اليوم. جلس يومًا معنا شخص متدين، ولم يكن صديقي يحبه كثيرًا، فهاجمه بحدة لأنه رأى كم كانت نظراته له تحمل استحقارًا! فسأله : "لا أعلم كيف تكون رجلًا عاقلًا وتتبع الأساطير كما قصّوها عليك في طفولتك ! تصدق قصة الخلق من طين بدون دليل وتأبى أن تصدق التفسير العلمي الذي لا شك فيه ولا تفهم منه سوى أننا أصلنا قرود، بينما هي في الحقيقة نظرية علمية مثبتة بحفريات عمرها ملايين الأعوام، لكل الكائنات الحية على الأرض، من أين لكم بكل هذا الغباء!".

فأجابه الآخر :

- وأنت تصدق أن النظرية قد أثبتت صحتها في تطور أي كائن حي إلى آخر بدون دليل أيضًا، تتبع داروين وهوكينج بدون فهم أو دراسة حقيقية علمية لكي تكوّن رأيك ذلك، فما فرَّقك عن متبعي الأديان الذين تسخر منهم؟ هل تلك النظرية العبقرية التي أقتنع بها شخصيًّا، ولكن بالأجزاء المثبتة بدلائل فقط، أنها نفسها لم تأتِ بدليل واحد أن أي نوع من الكائنات قد تحول إلى

كائن آخر تماماً وإنما تطور في نفس نوعه إلى شكل مختلف أو خاصيات مختلفة ليتأقلم مع التغيرات لكي يستمر بقاؤه على الأرض. الآن قل لي إنك لا تؤمن بما لا تفقه، قل لي إنك غير متبع فقط لأساطير عالم بدلًا من أساطير شيخ . العلم هو الأبقى؛ لأنه يغير رأيه في نفسه كلما استطاع إثبات شيء ما حتى لو أن هذا الاكتشاف تعارض مع ما كان يؤمن به جميع العلماء، أما ما تفعل أنت، هو ما يفعله أي تابع متعصب من أي جهة. ألا تعرف أن في يوم ما، كانت أعظم العقول على الأرض مؤمنة بأن الأرض مسطحة، بينما اتهموا كل من قال عكس ذلك أنه مجنون؟ لأنها حقيقة لا جدال فيها. وأنت تفعل نفس الشيء، لا تعطي حتى احتمالية ثبوت عكس ما تعتقد، بينما كل العلماء الذين تقدسهم يقوم علمهم على إنكار ما أثبته أسلافهم في حال عدم استطاعتهم إثباته وتطويره! تقبّل الآخر، فما فعلت أنت سوى أنك أصبحت تماماً مثل الذين تنتقدهم!

- ولكنهم لا يتقبلوني لأتقبلهم! إذا كانت الأديان قد نزلت للسلام والحب، فلماذا أتباعها يشتمونني عندما أتحدث فيما لا يفقهون؟ مجرد اعتراضي عليهم يوجب قتلي، فلمَ أكون متفتحًا مع مثل هؤلاء؟..

- فتدخلت في حديثهما وقلت: يا عزيزي، إنه الصراع الأزلي بين كل متعصب من كل الجهات، إذا جلست مع مؤمن وقلت له إنك ملحد سيكون الصراع بينكما بين إثبات وجود الله من عدمه، وسيكرهك حتى تؤمن مثله. وعندما تؤمن بوجود الله، سيكون الصراع حول أي عقيدة من الثلاث ستتبع في عبادته، فإذا اخترت الإسلام وكان مسيحيًّا سيكون الصراع بينكم قائمًا، لأنك لا زلت بالنسبة له في النار، والعكس تمامًا صحيح . إن آمنت بنفس دينه، سيكون الصراع حول أي شعبة ستتبع من نفس هذا الدين، وحتى إن دخلت في نفس شعبته، سيقوم الصراع بينكما حول أهمية دخول الخلاء بالقدم اليسرى من عدمه .. صدقني، هكذا البشر، لا يهم من أي اتجاه هم، وبأي شيء يؤمنون، كلهم يرون المختلف عنهم في ضلال حتى يتبعهم. فأنا شخصيًّا، حاول مسيحيون كثر أن يأخذوني معهم إلى الملكوت باعتناق دينهم الحق، ويحاول المسلمون أن يضعوني في قالبهم الخاص، الذي لن يرضى عني الله إلا به، لكي أدخل معهم إلى الجنة، أما اليهود، فيرون كل هؤلاء خارجين عن الحق ومهرطقين، وأن الله ليس راضيًا عنهم، أما الملحدون فرأيهم في ثلاثتهم أنهم أغبياء.. أما أنا فأشاهد الجميع فقط، وأتساءل! فأنا شخص يتشكك في كل شيء، أتشكك في

الإلحاد، كما أتشكك في الأديان، الأديان كلها واحد، فأنا لا يهمني مناقشاتهم حول صحة أي منهم، ولكن ما يهمني هو الصراع بين وجود الله من عدمه..

ثم وجّهت كلامها إليَّ قائلة : يا صغيرتي، لو أن كل الكائنات الحية نشأت من نفس الانفجار، وتطورت بنفس التسلسل الطبيعي، لمواءمة الحياة على الأرض، وكلنا نسبح في نفس الدائرة الطبيعية للحياة، تلك الدائرة التي يزعم الملحدون أن الإنسان جزء منها، مثله مثل الحيوانات والنباتات تماماً، وبأن نهاية حياته ليست إلا تسلسلًا وسيتحلل مثل الكائنات الأخرى ولا يشعر بأي شيء كما قبل أن يولد تماماً، لماذا الإنسان مختلف عن الحيوان في طريقة عيشه؟ لماذا تطور الإنسان فقط دون غيره من الكائنات ليخترع ويحلم بغد أفضل، بينما عاشت الحيوانات منذ أول يوم حتى الآن بدائية غريزية فقط؟ كيف تطور العقل عند الإنسان فقط، كما تطورت الأعضاء في كل الكائنات الحية؟ لماذا عليَّ أن أصدق أنني مثل الحيوان، سأموت وأتحلل لأكمل الدائرة، بينما أرى في الواقع أن المشترك بيني وبين الحيوان لا يمثل كوني إنسانًا أبدًا.

يحلم الملحد بتغيير العالم للأفضل، وهو مقتنع أن نهايته ونهاية الكون حتمية، وكأنه وكأنها لم يكونا. فلماذا كونه إنسانًا يجعله

لا يستطيع أن يعيش كالحيوان فقط، بما إنه سيموت مثله؟ لماذا عقله يعمل؟ ما الذي حدث في عملية التطور أضاف للإنسان فقط هذه الميزة؟

أنا أعتقد أن الإلحاد من أسهل الأفكار التي يمكن أن يتوصل إليها من يملكون نعمة التفكير، ممن يتمردون على واقعهم ولا يريدون أن يكونوا من التابعين الذين قالوا هذا ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا . ولكن هل الخروج منه يتطلب أيضًا إعمال العقل، أم يكفي فقط الخوف من الغيبيات التي لطالما سمعوا عنها في طفولتهم، عذاب القبر والنار، والأشياء التي لا يعلم من قالوها لأطفالهم أنها كانت السبب الرئيسي في إلحادهم؟ وإن كان الإيمان ينبع من القلب فقط، بغض النظر عن الثواب والعقاب و الحقائق العلمية، التي تريح الإنسان من الخوف من العالم الآخر، فمن أين ينبع الإيمان الحقيقي الذي قد يساعد الفرد على التغلب على عقله ليواجهه بما هو أقوى من أفكاره؟

قال صديقي الملحد حينها لهذا الشخص الآخر الذي لا أتذكر اسمه حتى:

- أنت ورثت دينك عن أبيك وأمك. أليس كذلك؟ قد علموك منذ صغرك ألا تفكر وأن أي سؤال ليس له إجابة يكون الرد عليه عنيفًا فهو شيء غير مسموح به، أليس كذلك؟!! كيف تريد إذن

لمسيحي أن يدخل إلى الإسلام؟ ألا يتطلب ذلك أن يكون مشاغبًا قليلًا في نظر أهله ويفكر ويسأل ليصل حينها للحقيقة ودين الحق كما تقول؟ لماذا الازدواجية إذن؟ لماذا تطلب من غيرك أن يفعل ما لا تستطيع أنت فعله؟ فكما ولدت أنت لأب وأم مسلمين قد أمراك بفعل هذا وذاك لكي ترضي الله، وأمراك ألا تفكر، وقررت أن تطيع أوامرهما، وهو حقك، فكذلك يفعل من هو من دين آخر. يطيع أوامر والديه، ويمشي على خطاهم، ثم ينظر إليك، ويأسف لحالك قائلًا: يا ليته مثلي على دين الحق! إن فكرت قليلًا ودخلت المسيحية، ستدخل الجنة عوضًا عن هذا الضلال الذي تعيش فيه.. ألست معي بأن من الطبيعي أن يفكر بك المسيحي واليهودي والبوذي هكذا لأنهم من الأساس، لا يعلمون عن دينك شيئًا؛ لأنهم اختاروا مثلك تمامًا، ألا يفكروا ويبحثوا، بل أخذوا ما وضع لهم على الطاولة كأمر مسلّم به؟!!

أجابه الآخر بأن التفكير والبحث ليس حرامًا، ولكن التشتت والخروج من الدين تمامًا أمر غير مسموح به. فقال له الأول:

- ورثتم جميعًا الأديان ولا تريدون أن تسألوا عن شيء!!

فتدخلت أنا في الحديث قائلة:

- أتعرف الغريب في الأمر، أن في الأزمنة الأولى، كان الطبيعي هو عدم وجود أديان ومسميات. فإن افترضنا أن أمامنا مجتمعًا نشأ على عبادة الأصنام أو الشمس في العصور القديمة، ثم جاء إليهم من فكّر خارج حدود صندوقهم وقال لهم هنالك رب في السماء لا نراه، هو الذي يجب أن نعبده ليدخلنا الجنة، فماذا سيقولون عنه؟! سيكون كافرًا وفاجرًا لأنه تساءل خارج المألوف وقال لهم ما لم يسمعوه قبل ذلك .. فماذا يكون مصير ذلك الشخص بالنسبة لهم، إما القتل، أو الحرق، أو الصلب. أليس هذا هو تاريخ الأديان الذي نعرفه؟ !! أتعرفون أنه قد حدث كثيرًا وكثيرًا على مر العصور أن يأتي نبي على قوم ويؤمنون، ولكن بعد موت النبي ومن عرفوه بعقود، يرجع هؤلاء القوم إلى الوثنية مرة أخرى؟ فهذا ما يستطيعون رؤيته. وقد جعل الله لنا في قصص الأقدمين عبرة بأن طبيعة أغلب البشر هي البعد عن الحق لأنهم لا يفكّرون، فقط يتَّبِعون ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، وذلك أسهل وأبقى، وأن طبيعة البشر البعد عن الله، لماذا؟!! لكي يختبر من منهم يفكر ويعمل عقله ويصل إليه بإيمان قوي، فقد قال الله إنه أنزله لأولي الألباب، أي لأصحاب العقول ممن يفكرون ويتعبون ليصلوا لما يرضاه ضميرهم، وعلى ذلك الأساس يكون الحساب، لا على

أي دين قد ورثت!! ثم جاء المسلمون بعد كل هذا وسألهم الله في الكتاب الذي هم يؤمنون به أفلا تفكّرون؟ فقالوا لا يا رب، فالتفكير حرام، وقد يجعلنا نكفر بك !! المجتمع المصري كله مسلمون ومسيحيون قد ورثوا أديانهم عن آبائهم كما ورث عبدة الأصنام والنار أديانهم عن آبائهم تمامًا، ألا تسأل نفسك لماذا شكل مجتمعنا سيئ؟ لماذا ليس التدين عندهم إلا بالمظاهر، لماذا أصحاب دين المعاملة هم أصحاب أسوأ أخلاق؟! فلا أتعجب أنا عندما ينتقدني شخص جاهل قد غار على الإسلام من كلامي المليء بالكفر فشتمني وأهلي بأقبح الألفاظ.. لماذا؟ لأنه ورث ذلك الدين ولا يفقه به شيئًا ولا يعلم بأن الجنة لا يدخلها الشتام واللعان، ولا يعرف أن كاظم الغيظ في الجنة، ولا يعرف أن من يكفِّر إنسانًا حتمًا سيبوء بها أحدهما، أي عندما اتهمني بالكفر وأنا لست كذلك عند الله؛ فقد كتبها لنفسه كفرًا محققًا، ولا يعلم أن دينه قد أُنزل لأولي الألباب ليس للعامة الذين أخذوه أمرًا مسلمًا به، ثم قالوا نحن أصحاب الجنة لأننا محظوظون بما فيه الكفاية لكي نولد لأب وأم مسلمين، فمهما فعلنا سيُغفر لنا وندخل الجنة، فقط بالحظ !! قد سألكم الله "ألا تفكرون " عدة مرات في كتابه ويكون ردكم عليه "لا التفكير حرام"! أقل الأشياء، مثل الفتاوى

اليومية، لا تستطيعون أن تعقلوها لأنفسكم، فكيف تسمونه دينكم؟! تخافون التفكير وتتبعون من كانوا قبلكم شبرًا بشبر، ثم تنعتون من قرر أن يفكر خارج صندوقكم بالكافر، كما كان يحدث في كل زمان مع أصحاب العقول ممن يبحثون عن الله بعقولهم..

لو أنكم تعبدون الله حق عبادته لما فضلتم عبادة الدين من دونه..

فعندما يرفض دينك صوت العقل الذي هو أهم ما يميز بني آدم الذي علمه الله الأسماء كلها، فتأكدي بأن ثمة شيء خاطئ في هذا الدين الذي يرفض أن تتطلعي حتى على ما خالفه من أفكار، لكي تعرفي أن ما أنتِ عليه حق معرفة.. وكم من أديان بعدة تجليات يكفِّر بعضها الآخر، كأصحاب الديانات المختلفة والله واحد، ولكنهم لا يعلمون!

ولو نزل الله من السماء وقال للناس اعبدوني أنا الرب الواحد، اتركوا أديانكم وتوحدوا في عبادتي، لقيل في إعلام الغرب إنها خدع من قبل مجهول لتشويش الناس، وأنها لا تنطلي على طفل، مثل تلك الألاعيب لإثبات وجود إله من الأساس، ولصدقهم مسيحيو الشرق رغم إلحادهم -الغرب- لكي لا يتركوا ما اعتنقوه. ولانقسم المسلمون إلى مذاهب جديدة، منها

ما تحرم ترك الدين لشيء غير مفهوم، وانقسموا إلى مذاهب أكثر تكفر بعضها البعض!

كلنا يفهم ويرى العالم بشكل مختلف، رغم أن من يفكرون كثيرًا دائمًا ما تجمعهم نفس الصفات والمتاعب، والنهاية الطبيعية لهذا النوع في مصح للأمراض العقلية... فكانت نهاية رسالتي للاثنين أنني قلت لهم "تقبلوا اختلافاتكم، فلا يوجد على هذه الأرض غير حقيقة واحدة، أن من في السماء هو فقط من يعرف من منكم يستحق أن يذهب إلى الجنة ومن يستحق النار، فلا تحكموا على الآخرين متوقعين أن ما تعلمتموه في صغركم هو فقط الصحيح، فليس من البشر بأحد يعلم ما هي مكانته الحق في السماء، وما هي مكانة من يحكم عليهم بما ليس له به من علم!

كونوا كما تشاؤون، إما بعقل يلحدون وإما بقلب يكفّرون.. ففي الحالتين قد اخترتم أن تقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وفي الحالتين قد قتلتم شيئًا فضلكم به عن غيركم، وفي الحالتين لم تصلوا إلى شيء يجعل منكم إنسانًا ... فالعقل والقلب لا يفترقان، واختبارنا على الأرض ألا نجعل بينهم من يطغى على الآخر، فمؤمن بقلبه دون إعمال عقل ليس بمؤمن، وملحد بعقل دون إعمال قلب ليس بإنسان!

فسألني الشخص المتدين كيف لي أن أكون مرتدية زي الإسلام -قصد الحجاب- وأفكر بهذه الطريقة؟ ! ولم تكن تلك المرة الأولى التي يشير لي أحد فيها عن تعجبه من هذا، فقلت له : ”إذا كنت قد رأيت مثلي من قبل، حاخاماً بقبعته الصغيرة، وضفائر لحيته، في شارع من شوارع العالم الغربي، وأول ما خطر ببالك حينها، كم أنك تكره هؤلاء الصهيونيين القاتلين ! ثم اكتشفت أنه كان يحرق علم إسرائيل بين الناس؛ لاحتجاجه على إساءتهم لدينه، وفهمهم الخطأ له، لفهمت أنني لست من العجائب، بل إن العجيب هو التصنيف على حسب الشكل والمظهر، الذي يورِّث عادة، ويكون بحكم العرف المجتمعي غالباً، وليس ما يحويه العقل الذي بداخل الجسد الذي يغطيه بضعة أقمشة زائدة“...

توقفت أمي عن الحديث فسألتها..

- لماذا لم تفكري في الإلحاد من قبل؟

- بلى، فكرت في كل شيء يمكن لعقلك تخيله . زرت الكعبة وتضرعت لله وأنا متمسكة بقماشها الأسود، أنرت الشموع في الكنائس، وجثوت على ركبتيَّ، بحثت عن الله في كل مكان، وكل شيء معروف للإنسان عنه . سألت كل الأسئلة غير المباحة، ولم أستطع إخراجه من داخلي ولم أرد ذلك، عرفت

أنه موجود لا محالة، وعرفت أنه بداخلنا جميعًا، وعقلي الشقي لم يسمح لي أبدًا بأن أعلن أنه غير موجود، فقط نحن من لا نعرف عنه الكثير، نحن من نشوه صورته بالتمسك بتوافه الأمور، حاملين اسمه وسط أحاديثنا العنصرية، نحن -المؤمنين- من نجعل غيرنا يتخلى عنه ! ذكرت كارين آرم سترونج في كتابها، الله والإنسان، مقولة مأخوذة من الهندوسية تقول "الله يأتي إلى فكر أولئك الذين يعرفونه وراء الفكر ولا يأتي للذين يتخيلون أن بالإمكان إدراكه عن طريق الفكر. إنه غير معروف للعارفين ومعروف لدى البسطاء، إنه معروف في نشوة يقظة، تفتح باب الحياة الأبدية. هو الجوهر الكامن في ذات الكون كله، الله هو ما لا يمكن وصفه في كلمات، لكنه مصدر نطق الكلمات، إنه ما لا يمكن للعقل أن يفكر به، بل حيث يستطيع العقل أن يفكر".

- ألا يملك الهندوس هؤلاء ملايين الآلهة؟ كيف لهم أن يعرفوا الله؟!

- أكبر غلطة يقع فيها الناس في عالمنا العربي، هو جهلهم بكل ديانات العالم؛ ظنًّا منهم أن الله لم يصل لغيرهم، ولكن في حقيقة الأمر تلك الفطرة التي فطر عليها قلب الإنسان، تجمع جميع الناس في عبادة هذا الإله الواحد، ولكن كلٌّ بطريقته،

بينما نكره نحن بعضنا البعض على تعدد الطرق التي تتبعها للوصول لله. ألم يكن ذلك هو الهدف أصلًا من خلقنا قبل الأديان التي نعرفها الآن بكثير؟ فالكتابات المقدسة لدى الهندوس تعود لعام ١٦٠٠ قبل ميلاد المسيح، ورغم أنهم يملكون ما يقرب من ٣٣٠ مليون إله، إلا أن لهم جميعًا إلهًا واحدًا يسمى البراهاما، وله ثلاث صفات هي : براهما أي الخالق، فينشو أي الحافظ، شيفا أي المهلك . ورغم تعدد المدارس لدى الهندوس، إلا أن الأربع المعروفة كلها، لا تناقض الأديان التوحيدية، ففيها من يؤمن بأن الله والطبيعة شيء واحد، وفيها من يؤمن أن الله شيء منفصل عن الطبيعة، وفيها أن الطبيعة جزء من الله، وفيها أن هناك إلهًا واحدًا أحدًا خالق كل شيء!

هكذا قلت لكِ، إن القلب إذا عمل عرف الله، والعقل أيضًا مطلوب وبشدة لأن بدونه نبتعد عن الله كثيرًا؛ ظانين أنفسنا نقترب إليه أكثر، بوضع على عقولنا أقفالها؛ خشية أن تجعلنا ملحدين، فقد قال آينشتين: "من يعمل بشكل جدي في المجال العلمي يصل إلى الاقتناع بأن قوانين الكون كافة تثبت وجود روح أكبر بكثير من روح الإنسان، علينا جميعًا الشعور أمامه بالصغر." بينما الملحدون يظنون أنفسهم علماء، لأنهم ألحقوا

وبسرعة بتيار قوي فارغ، وفي الحقيقة هم لا يعرفون عن العلم سوى ما يقرأون للعلماء الملحدين، وكأنهم بذلك أصبحوا جزءًا لا يتجزأ من العلم الحديث، عوضًا عن أن يقوموا من أمام حواسيبهم ليفعلوا شيئًا مفيدًا للبشرية بحق، ويتفكرون في الكون بحق بدلًا من ملاحقة المؤمنين باتهامات نقصان عقولهم وهم في الحقيقة أنقصُ!

- وبماذا تؤمنين إذن؟

- أنا أؤمن بكل شيء وعكسه . مشكلة مجتمعنا هذا هو التطرف الجاهل، فأنا نادرًا ما قابلت مثقفًا، يكون فعلًا فيلسوفًا يفقه ما يقول، بل إن الكل أتباع، حتى من اقتنعوا في جيلي أنهم مفكرون وعظماء لأنهم لحقوا بركب الإلحاد واللادينية، الذي ظهر فجأة باسم العلم الحديث والتقدم، لم يكونوا سوى جهلاء تابعين، ولا يملكون سوى السخرية من الأديان، ولا أعتب عليهم، فهم تمامًا مثل المتدينين التابعين الذين يشوهون أديانهم بأيديهم. ولكن الفيلسوف الحق يا صغيرتي لا يتوصل قطعًا لعدم وجود خالق لهذا الكون، في العشرينات من عمره، ثم يحاول نشر الفكرة، ويتهم كل من لا يتبعها بالغباء، ويسمي نفسه مفكرًا، يضطهده مجتمعه المتخلف من كثرة نبوغه، وليس أغبى منه حقيقة، ولم يفعل في حياته سوى النقل

والتبعية لمن يقدسهم من العلماء، تماماً كما يفعل من يستهزئ بهم!..

"الأسئلة التي سألها الملحدون وأنا في أوائل العشرينات، كنت قد سألتها أنا لنفسي في عمر التاسعة قبل أن أفهم أو أقرأ أي شيء. وفي سن نضوجي، ورغم أنه كان سن تشكك وبعد عن الأديان، إلا أنني كنت أتأكد يومًا بعد يوم بوجود خالق. وإذا كنت هنا أو هناك فذلك لا يهم، أنا أؤمن بالتفكير أكثر من أي شيء.. رأيت الناس تسارع نحو الانضمام لمصطلح يشبههم، ولم أعمل أنا إلا على البعد عن كل الاتجاهات، أشاهد الجميع من بعيد، أتأملهم وأفكر.. لم أصنف نفسي يومًا، متدينة، ربوبية، لا دينية، علمانية، سلفية، صوفية أو حتى فيلسوفة، بالتأكيد وجدت في بعض الاتجاهات نفسي تميل ميلًا شديداً، لكن لا أحبذ التصنيفات، أنا أؤمن بكل شيء، وبأنني لا أفقه أي شيء..."

شكَّلت أمي مفهومًا فلسفيًّا خاصًّا بها، لم تشرك فيه أحداً، ولم تحاول نشره، ولم تهتم بتفسيره، لأنها كانت تؤمن إيمانًا كاملًا بحرية إيمان الفرد بأي شيء، وبأن من الغباء محاولة شرح الآراء الفكرية للآخرين لأنها فردية؛ الشيء الذي ساهم في وجود نحو4200 ديانة وعقيدة، ما بين ملل، وفرق، وكنائس، وطوائف، ومذاهب، وعشائر، في عالمنا اليوم، يتنازعون فيما

بينهم، عمن منهم صحيح مطلق، ومن منهم في ضلال، هم أشخاص تفلسفوا وفكروا، ثم نشروا دعواهم، حتى اتخذت فيما بعدهم دينًا، مثل البوذية والسيخية.

كانت فلسفتها هي التوازن الكامل بين أهم سمتين تميزان الإنسان، وهما القلب والعقل. فكانت وعلى عكس تقريبًا كل البشر الذين قابلتهم في حياتي، تمتلك عقل الملحد الحديث المقدس للعلم والدلائل والتعلم من تاريخ البشرية المتشابه، وكثرة التساؤل إلى حين إيجاد إجابات مقنعة، مهما كانت قداسة الأطروحات بالنسبة لبعض الناس . بينما امتلكت قلب صوفي، زهد في الدنيا، وعشق الله وجميع خلقه ومخلوقاته ورؤية الجميل في كل شيء، والاكتفاء بالإيمان الغيبي ببعض الأشياء؛ لأن الفكرة لا تأتي من العدم، وما دامت الفكرة موجودة، فلها أصل وجودي، لا يمكن وضعه جانبًا وتناسيه عمدًا، فقط لأن التجربة الإنسانية لا يمكن إثباتها عن طريق الدليل والبحث!

كان المؤمنون يقولون عنها ملحدة، والملحدون يرونها متدينة جدًّا. وكانت ترى هي أن أغلب الناس يكتفون بالتوقف عند مرحلة معينة من مراحل النمو العقلي، الذي لم يخلق للتوقف أبدًا، بل عليه الاستمرار الدائم في النمو . وفي تلك المرحلة

يكتفون بما توصلوا إليه أنه كافٍ ليرضى عن نفسه رضاءً كاملًا، فلا يتساءل مجددًا في معتقداته، بل دائمًا في معتقدات الآخرين؛ مما يدعو الملحدين للاستهزاء بأصحاب القلوب، أي المؤمنين، بادعاء جهلهم وتطرفهم، بينما يستهزئ المؤمنون بالملحدين، أصحاب العقول، لكن بقلوب متهالكة، الذين هم صم بكم عمي وفي النار لا محالة وأعداء الله ذاته! تنظر هي إليهم جميعًا ولا تقاوم أن تكون جزءًا لا يتجزأ من كليهما، وشيئًا منفصلًا تمامًا عن كل منهما. لم ترتضِ يومًا أن توقف عقلها؛ لأنه أبى منذ زمن تصديق ما لا يفهمه، ولا تستطيع إيقاف قلبها، الذي هو النصف الآخر للعقل، والذي يساعده على إدراك ما لا يمكن إدراكه بالحواس...

دائمًا ما قالت لي منذ طفلوتي: "أحبي الناس قبل أن تعرفي ديانتهم في شهادات ميلادهم، فهم منك قبل أن يكونوا من هذا الدين . وإذا عرفتِ، لا تتوقعي أن الديانات تحمل عقليات متشابهة، فرجل مسلم، ألحد في سره، ورجل مسيحي أسلم في سره، لهو احتمال وارد معظم الوقت، ولامرأة منتقبة تكره شكلها وتتمنى لو أنها تستطيع السفر لبلاد لا يغصبون عليها لباسًا محددًا لترقص وتعيش كما تريد، ولامرأة ليست بمحجبة تكره وضعها وتدعو الله في كل صلاة أن ييسر لها من ذلك ..

"بغض النظر عمن يبدو لك أصح من الآخر في الأربع حالات وما شابههما؛ لأن ما سترينه خاطئًا سيراه غيرك الحق المبين"

الأديان وطرق الملبس كلها وراثية مفروضة، أما الحكم على الإنسان من الإنسان، يجب أن يكون إنسانيًّا من الدرجة الأولى؛ لأننا جميعاً لا نختلف عن بعضنا بعض ألبتة. الأفكار التي تدور في عقولنا، ونبني عليها استنتاجاتنا الخاصة، هي كل ما نحن،، هي هويتنا وإن خفيت. لا أنكر أن الحكم من الظاهر أيسر؛ لأن ٩٩٪ من المنتمين بالوراثة لأي شيء موالون له بالضرورة . ولكن وجود الاستثناءين حقيقة تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار، فأنت لن تعرف إلى جانب من تجلس، وإن كان أقرب الناس إليك، إلا إذا كنت متفتحاً بما يكفي لتشعره بالطمأنينة، التي تسمح له أن يفتح لك باب عالمه الخفي المحظور ممن حوله، إذا ما فتح عقله كالكتاب، الذي قد يحتوي على ما لا يستطيعون هم حتى تخيل أنه كان يعيش يوماً في وسطهم!

لا يزال أمامي من الآن ثلاثة أشهر على إتمام عامي السابع عشر. وها أنا في طريقي إلى مطار القاهرة الدولي، بجانب أبي الذي أصرَّ أن أتعلم قيادة السيارات، وأن أعتمد على نفسي في كثير من الأشياء التي كان يرفضها في السابق. ربما لأنني كبرت بما يكفي، ولكن هذا النضج لم يكن كافيًا كي يحد من

حماستي التي لم تجعلني أنام الليلة الماضية؛ لأنني سأرى ولأول مرة منذ عشرة أعوام، خالتي التي تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية . كانت تحدثني أمي عنها كثيرًا، وتجعلني أتحدث معها عبر الإنترنت من الحين للآخر، عندما أكون في المنزل بالصدفة عندما تتحدثان بكاميرات الفيديو، التي تجعلهما وكأنهما خرجا ليجلسا سويًّا في مقهى ما، وكنت أحبها كثيرًا لأنها الأقرب إلى أمي، رغم البعد الجسدي الذي يحول بينهما.

دخلت وأبي إلى المطار، وجلسنا ننتظرها، حتى اتصلت بأبي وقالت له إنها تبحث عنّا. ذهبنا إليها، وتفاجأت باحتضانها الدافئ لي، وبأن رائحتها تشبه رائحة أمي كثيرًا . تحدثنا في طريق العودة على وضع أمي الصحي، ولكن أبي قاطعنا، وألمح لخالتي أنه يريد التحدث معها عندما نصل وكأنه لا يريد أن يتحدثا أمامي أو معي في هذا الموضوع، لكنني كبرت بما يكفي لأكون جزءًا من كل شيء تعاني منه أمي أو يفرحها كما كانت معي من يوم ولادتي، لم أعد طفلة!!

رغم ذلك، فما إن دخلنا من باب المنزل وقابلت أمي خالتي، انهارتا كلتاهما في البكاء، واحتضنتا بشدة، رغم أنها ألقت السلام والقبلات على الجميع، الذين أتوا خصيصًا لينتظروها هنا، مثل جدي، وجدتي، وخالي بشكل عادي وكأنها لم تغب

لسنين، وكأن العلاقة التي ربطتها بأمي كانت عائلية أكثر من التي جمعتها مع أي منهم .. قضي اليوم وسط الأهل بين التحدث عن الذكريات والضحك بصوت عالٍ واللوم على خالتي لأنها لم تحضر ولديها التوأم معها، رغم أنهما في العشرينات وليسا طفلين لتأخذهما من يديهما، ثم إنهما بالكاد يعرفان أي منّا على أي حال!

عندما حل الليل وذهب الجميع، جلسنا نحن الأربعة في غرفة المعيشة، تغطينا بغطاء شتوي ثقيل ونحن نشاهد فيلمًا أجنبيًّا من النوعية المفضلة لوالدي، ولكني لاحظت شرود أمي وخالتي. استأذنتا ليذهبا إلى غرفة النوم ليتحدثا على انفراد قليلًا ... جلست بجانب أبي، وخجلت من أن أقطع حديثهما المنفرد، ولكن أبي قد غلبه النوم بعدها بقليل على الأريكة، وأنا غلبني الفضول لأعرف ماذا يخبآن عنِّى، فأمي لم ترفض يومًا أن أحضر أي حديث مع صديقاتها منذ طفولتي، مهما كان الموضوع حرجًا!

استأذنت قبل الدخول، بعد أن أطفأت الأنوار في غرفة الجلوس، وتأكدت من أن أبي يشعر بالدفء، فسمحا لي . جلست على طرف السرير أمامهما، منتظرة أن تتحدث إحداهما. فسألتني خالتي:

- ألا تشتاقين لزيارة أمريكا، ككل الشباب في مثل سنك؟

- نعم بالطبع.

- إذن، فلتقنعي أمك العنيدة بأن تعودا معي إلى هناك، لتري أبناء خالتك وتعرفي ثقافة مختلفة، وتستمتعي بالثلج قبل أن يحل الخريف، وأمك ستجد رعاية طبية هناك أفضل بكثير، حتى تشفى، ثم ترجعان إلى وطنكما، إذا أردتما ذلك.

- كفّي عن هذا . أنتِ تعرفين أنه من الصعب أن يحدث، والمصاريف كثيرة ولن يستطيع سيف أن يترك عمله ويأتي معنا وأنا لن أتركه! قالت والدتي.

- أي مصاريف وأي سيف!.. ألا تستطيعين ولو لمرة أن تفكري بنفسك بدلًا من التفكير بالآخرين؟ سألتها خالتي بغضب.

- ليلى يا عزيزتي.... ثم سكتت قليلًا ونظرت لي بعطف، ثم استجمعت شجاعتها لتكمل كلامها قائلة:

- أنتِ تعرفين رأي الطب هناك في حالتي، بعد أن بعثت لكِ بالتقارير الطبية اللازمة.. أنا لا أريد أن أحارب الموت لأنني لن أفلت منه على أية حال!

- ما هذا الذي تقولينه يا أمي؟ ! سألتها ونظرت لخالتي، فإذا هي تنظر لي، بينما ضمت شفتيها، فأكملت أمي...

- حياة، أنتِ لم تعودي صغيرة، ولن أكذب عليكِ بعد الآن.. لا يوجد أمامي سوى أن أستأصل ثدييَّ، في محاولة بائسة تمامًا للشفاء، لكنها لن تكون كافية، ولا أريد أن أفعلها، وإلا لكنت فعلتها من عامين مضيا.. عندما يأتي القدر، لا يستأذن ولا يتأخر عن أداء واجبه، وأنا أعلم قدري جيدًا، ولا أخاف من انتظاره . فقط حان الوقت لكل من حولي أن يستوعبوا هذا ويتقبلوه مثلي!

تركت لهما الغرفة مسرعة، وذهبت لأنام بغرفتي لأول مرة من شهور.. يبدو أن أمي قد خَرِفت، أو أنها تحب العيش قليلًا في القصص الدرامية كعادتها؛ لأنها تشعر بالملل .. نسيت كل ما قالته أمي تلك الليلة، فأنا أؤمن بالمعجزات، رغم أنني لا أعتقد أنها تحتاجها، سنكون بخير، أعرف ذلك!

قضت معنا ليلى -خالتي- التي رفضت أن أناديها بأي لقب غير اسمها -كما يفعل أولادها- شهرين كاملين، وكانت تعتني بأمي وبالبيت معي، واستطعت أن أركز على دراستي قليلًا، فقد كدت أرسب في هذا الفصل الدراسي بسبب التوترات التي حدثت والمسؤوليات الجديدة التي تحملتها فجأة.. كانت تتحدث ليلى دائمًا عن أنها ستأخذني معها إلى أمريكا لأكمل دراستي هناك، وأن أمي أيضًا توافقها في ذلك لأنها أرادت لي أن أكون شيئًا

مهمًّا، وهذا لن يحدث في وطننا أبدًا، وكانت الظروف العامة في صالحي؛ لأنني التحقت بالنظام الأمريكي في الدراسة عندما بدأت المرحلة الثانوية التي تبقى منها عام واحد وأنهيها، وأردت بشدة، ولأول مرة في حياتي، أن أحصل على علامات عالية، وخاصةً بعد تشجيع ليلى لي بأنها تريدني أن ألتحق بجامعة ستانفورد لأدرس علم النفس كما أردت دائمًا، ولكنني كنت دومًا أقول لهما إنني سأذهب عندما يأتي أبي وأمي معي لأنني لا أستطيع فراقهما أبدًا، وكنت أحث أبي كثيرًا أن ينهي أعماله هنا ليستطيع أن يأتي معي، وكان يعدني بذلك.

لا زال هناك أسبوعان متبقيان على يوم عيد مولدي . جاءت جدتي لأبي لتأخذني من المدرسة في ذلك اليوم . لم أفهم السبب! سألتها عن ليلى وأبي وأمي، لكنها قالت لي إنهم سيتأخرون قليلًا في المشفى اليوم؛ لأن موعد أمي هناك سيطول قليلًا. طلبت منها أن توصلني إليهم، لكنها رفضت وقالت لي إن عليَّ أن أدرس، وأن أمي هي من طلبت منها أن لا تحضرني إلى هناك...

انتظرتهم طوال اليوم عند جدتي وأنا قلقة كثيرًا. فقد كانت أمي غريبة الليلة الماضية؛ حيث طلبت منّي عند نومها أن آخذها في حضني، وظلت تقبِّلني حتى ذهبت في النوم إلى اليوم التالي،

وعندما استيقظتُ ، وجدتها غارقة في نوم عميق، فأنزلتها من فوق صدري وارتديت ملابسي وذهبت لمدرستي. ولم يكن من عادتها أنها تستطيع النوم بهذا العمق في حضن أي شخص، حتى أبي، ولكن ربما كانت مرهقة أو شيئًا ما، لهذا ذهبت للمشفى وأنا في المدرسة، ربما!

عاد أبي وحده إلى بيت جدتي في الليل ونام هناك . عندما سألته عن أمي وليلى، قال لي إنهما سيبيتان في المشفى تلك الليلة.. صحوت مبكرًا وحاولت إيقاظه لكي يأخذني إليهما لكنه لم يستطع الاستيقاظ.. لم أستطع الانتظار أكثر من هذا، ماذا كان يحدث؟ كان لابد لي أن أعرف! نزلت وحدي وتوجهت إلى المشفى الذي أعرف أنها كانت تتلقى علاجها به، لكنهم لم يملكوا أي معلومات عن وجودها هناك!

هاتفت كل الأرقام التي أعرفها لليلى وأمي ولم يجبني أحد . مشيت في شوارع القاهرة، وجبتها كلها كأنني طفلة تائهة ولا تعرف اسمها.

لم يُعِد لي ذاكرتي سوى صوت هاتفي يرن، من المؤكد أنها أمي.. أخرجته من جيبي وإذا هو اسم والدي يظهر لي . أجبته فظل يصرخ فيَّ ويسألني أين أنا بطريقة لم يحدثني بها من قبل.. أتذكر صوته جيدًا، كان هشًّا منكسرًا صاخبًا ومزعجًا

كثيرًا... طلب منِّي أن أعود إلى البيت حالًا.. فعلت ذلك بسرعة، لعل أمي معه وهي خائفة عليَّ كعادتها، ولكنها لم تستطع التحدث...

دخلت البيت، فإذا بأبي يضربني، لأول مرة في حياته .. ربما حاول هذا مرة أو مرتين من قبل، لكن أمي كانت دائمًا تقف له وتحميني، لكنها تلك المرة ليست موجودة لتكف أي أذى عني .. لم أستطع تمالك نفسي من البكاء..

- أين أمي؟ صرخت بوجهه وعيناي تتساقط منهما سيول بإمكانها هدم السقف فوق رؤوس من يسكنون في الأدوار التي نعلوها!...

- هل جننتِ تمامًا؟؟ !! ألا تعرفين أين هي؟ ! سألني أبي بصرخاته التي لم تهدأ!

تدخلت جدتي فورًا، وطلبت منه أن يدخل إلى الغرفة . طلبت مني بعدها أن أغسل وجهي، وعندما أهدأ سوف تقول لي الحقيقة. دخلت الغرفة التي دخلها أبي قبلها، وكنت أسمع صوت همساتهما بوضوح، وأنا أنتظرهما في الخارج .. خرجت هي، وأغلقت الباب عليه بالداخل، ثم جلست بجانبي وأخذت تحدثني..

- ذهبت أمك وخالتك إلى أمريكا يا صغيرتي، لأنها أرادت أن تتلقى علاجها هناك..

- كيف تذهب دون أن تخبرني؟! وكيف لم يذهب أبي معها؟!

- كانت في حالة اكتئاب الفترة الماضية، ومضت في إجراءات السفر سريعًا دون إخبار والدك حتى، لهذا هو غاضب جدًّا مثلك تمامًا...

- أريد أن أذهب إليها!!

- ولكنها قالت لي، إنها تركتك لكي تنهي عامك الذي أنجزتِ نصفه، إلى أن تنهي هي إجراءات ذهابك اليها لأنها ستأخذ مزيداً من الوقت، وعلاجها لم يكن يحتمل الانتظار.. أنهي دراستك وستذهبين إليها فور انتهاء هذه السنة. اتفقنا؟

- لا أفهم لماذا تفعل مثل هذا الشيء دون أن تقول لي ! قلت بعد أن بدأت أهدأ قليلًا وأنا أمسح الدموع من على وجهي.

- هي ظنت أن ذلك في مصلحتك أكثر.. اهتمي أنتِ بدراستك وستكون هي بخير، لا تقلقي، سترينها عمَّا قريب..

- حسناً، ولكنني أريد العودة إلى منزلي..

- انتظري يومين فقط حتى يهدأ أبوكِ من صدمة ترك أمك له من دون مقدمات، فأنتِ تعرفين كم يحبها! ثم ستعودان سويًّا.

ذهبت مع جدتي في اليوم التالي إلى منزلي؛ لأخذ ملابس لي ولوالدي، وأخذ كتبي المدرسية، وكل ما أحتاج اليه، لقضاء ما تبقى من هذا الأسبوع هناك. عندما نزلنا، لم يكن أبي موجوداً بالنهار، رغم أنني أعرف جيداً أنه ليس لديه ما يفعله في هذا الوقت منذ أن ترك عمله الصباحي، وأمي أيضًا ليست موجودة! أخذت كل ما يلزمني، وفيما أنا أبحث في حاجيات والدي وأدراج غرفتهما، وجدت كتاباً منمقًا في أحد الأدراج لم أرَه من قبل . فتحته ووجدته كله مكتوبًا بخط يد أمي . أعرف أن هذا ليس شيئًا صحيحًا أو أخلاقيًّا، لكنني لم أستطع مقاومة إلا أن أخبئه في حقيبتي، دون أن تلاحظ جدتي ذلك. ولن يلاحظ أحد على أية حال، فربما لا يعرف بوجوده أحد سوى أمي وهي ليست هنا. بالتأكيد سأجد فيه شيئًا يعرفني أكثر عنها، أو من المحتمل أنها تركت لي رسالة عيد مولدي السابع عشر بداخله...

عندما عدنا إلى بيت جدتي، أول شيء فعلته هو أنني أخبرتها بأن عليَّ المكوث بمفردي قليلًا للدراسة . سألتني إذا ما كنت أحتاج طعامًا بينما أنا أغلق عليَّ باب الغرفة، لكنني جاوبتها بلا.

أغلقت الباب، وجلست على السرير، وفتحت كتاب أمي، وأخذت في تصفحه بعشوائية..

" أريد أن أبكي حتى تنزل دموعي بلون الدم . أريد أن أنهي حياتي ولكن لا أريد أن أكفر برحمته.. أشعر بأني أعيش بعالم وحدي، كله لي، ولكني لست موجودة في عالم الجميع ولا هم يستطيعون أن يدخلوا لعالمي...

وحدي وكأني لم أنزل من بطن أمي. وحيدة، وكأني لا أعرف شخصًا واحدًا لأكلمه، فلا أحد هناك لي، ولن يكون، ولم يفهمني بشر قط، ولن يكون. فلماذا أنا وماذا أفعل؟ ! أريد أن أموت، فليس لحياتي أي معنى، فكلهم متشابهون، وأنا لست منهم ولن أكون.. فأصعب ما يمكن أن يمر به بشر أن يكون لا شيء وسط كل من يعرفونه وأقرب الناس إليه. لم أعد أشعر بالحب، ولا بالأشخاص الذين يلامسون جسدي عند النوم ليلًا، ولم أعد أعرف من أنا، ولماذا أنا وماذا بعد!!"

قلبت الصفحات وفتحت صفحة أخرى وأخذت بالقراءة:

"أنا أحارب لأصبح مثلهم، أحارب كل ليلة كي أشبههم...

تبدو حياتهم أسهل بكثير، ولا أعرف لماذا خُلقت هكذا ! أمن علاج لهذا المرض المزعج؟!. كم أريد أن أتوقف عن الاختلاف، أو عن إحساسي الكاذب بأنني مختلفة ! كم أشقى من أجل

العيش في هدوء، فربما أسكن حيًّا هادئًا، وبيتي هادئ، لكن تلك الحرب الضارية التي تستخدم أقوى أسلحة العصر، وتتسبب في دمار شامل، لأي مكان وجدت فيه، بداخل عقلي، تجعلني أتخبط بين الحوائط!

اهدؤوا قليلًا، دعوني أشرب كوب الشاي وأشاهد هذا الفيلم . دعوني أصلِّ لربي وأبكِ في خشوع، كي أموتَ في أي لحظة جاهزة للقائه داخلة جنته. دعوني لا أفكر بأي شيء، واتركوا لي متعة أن أكون ناقصة عقل، تتزين ليل نهار، وتصرف مدخراتها ومدخرات زوجها على الزينة والملابس الجديدة، لكي أبدو جميلة دائماً . أرجوكم اتركوني بحالي، ولأكون امرأة شرقية، لا تعرف معاني الكلمات الضخمة، وإذا سمعتها بالصدفة، لا تملك فضولاً كي تعرف معناها. امرأة تنتظر زوجها كل ليلة بابتسامة ساذجة، وتغضب عندما لا يقبّلها قبل أن يخلد إلى النوم، امرأة لا تناقش إلا في وصفات الطعام، وأنواع الحفاضات وقصَّات الشعر. امرأة إذا قرأت، تقرأ الروايات، فقط للتسلية!

أنا لم أخلق لأخوض حروباً، أنا خُلقت لأبحث عن الحب، وعن رجل أعيش معه ما تبقى من عمري، رغم أنني لا زلت في

العشرين، لكنهم أقنعوني أن العمر قصير جدًّا، وأن هذه ليست الحياة، بل الآخرة، هي ما في انتظاري وأنها حق لابد منه!".

تصفحت أكثر، وبدا لي كم أن هذا الكتاب قد كُتب على مدار أكثر من عشرين عامًا على الأقل! فأكملت القراءة:

"أخاف منك وعليك، ولست متأكدة إذا كنت أكرهك أم أنني أكره استيطانك لقلبي!!

لا أريد أن أنجب منه طفلًا آخر. تكفي تلك الجنة، التي أستطيع تخيله يحرمني منها، بقسوته المخبأة خلف حبه لي، ماذا إذا اختلفنا يومًا أو استحالت عشرتنا؟ فنحن مختلفان كاختلاف الليل والنهار، نأتي على نفس الأرض، تجمعنا مجموعة واحدة، ولكن أحدنا منير والآخر مظلم قاتم، وجود النور خلفه هو ما يظهره للأعين. أحدنا مشتعل بنيران لا تعرف الراحة، والآخر بارد فارغ! كل ما يجمعنا الآن هو ذلك الحب الطفولي الذي شعرنا به تجاه أحدنا الآخر، عندما كنا صغارًا جدًّا، على أن يكون لأي منا شخصية، واحتياجات ورؤى.

لم أكن أعرف أنه سيأتي اليوم، الذي سيراني أقرب شخص لي في الكون كافرة ! سأذهب إلى النار بينما هو سيكون في الجنة! ولكن ما قتل بداخلي شيئًا ما فعلًا، كان عدم اكتراثه لذلك كثيرًا. هو يقول إنه يحبني، ولكن في العالم الآخر لن

يحزن لرؤيتي أتقلب في جهنم وهو يتنقل من حورية عذراء إلى أخرى ليتنعم بجنة أعدت للمتقين المصلين أمثاله، ليس للمفكرين الكفَّار أمثالي!

أحيانًا يمزح معي، ويقول يمكنني أن آخذ حياة، و لا ترينها ثانية. أصدقه، أصدقه بشدة، فأنا أعرف أن لطفه معي ليس له سبب، إلا أنني أملك قلبه في قبضتي، وما إن يزول هذا الحب يومًا ما، سيتحول هذا الطفل الذي لا يستطيع النوم إلا على صدري، لوحش يتمتع برؤيتي أتألم و لا يبالي. هكذا هو، أعرفه جيدًا، وأخاف منه بشدة، لكنني لا أستطيع إلا أن آمل أن أموت بين يديه قبل أن يقتلني هو، بعيدًا عنه وعن حياتي، بيديه!!

لم أختبر الحياة يومًا، فمجتمعي فضَّل لي اختيار الموت قبل الرحيل لأنها الحقيقة الوحيدة التي يعرفونها جيدًا، ألم نصل بعد إلى أرذل العمر؟ ربما كانت حياتي تشبهني أكثر بكثير، قبل أن ألقي بنفسي في هذا المحيط المظلم، الذي لا تظهر له نهاية أو بداية.. لا أعرف أي شيء يرهبني أكثر من عدم إدراكي أين أنا وإلى أين ذاهبة، أم الكائنات التي تحيط بي من كل مكان ولا يشبهني منهم أحد! لا أعرف كيف أتواصل معهم، فبرغم كل شيء شعوري بالوحشة والوشك على الغرق لأني لا أعرف سبيلًا للنجاة يطيح بي في كل الاتجاهات!..

تزوجت، فظننت أنني قد وصلت لأمنيتي العظيمة، ولكني ما زلت صغيرة وفي مقتبل العمر، رغم شعوري الدائم بالشيبة.. فماذا بعد؟! أصبحت لا أشبهني، غرقت به تماماً، حتى أنني نسيت نفسي، أيامي وأحلامي كلها تبددت من أجله دون أن أشعر، عامان كاملان، كلما استرجعت في ذاكرتي ماذا كنت قبلهما تحسرت، تركت الثعبان الخبيث يلتف حول رقبتي وكأنه يغمرني بحنانه ولم أدرك أن نيته كانت قتلي تماماً!.. أبكي كل ليلة لشعوري بأن ثمة ما ينقصني...

ألم يكن هذا ما أريد؟ ألم أقدس الحب وتمنيت لو أبني لنفسي قصراً من ذهب أعمدته أفراد أسرة متحابة وصحية، لأعوض على نفسي حياتي السابقة، في أسرة منتهية الصلاحية، كلما حاولت الشرب منها، أصابني الإعياء، ولا يحق لي مع ذلك التخلص منها، لقيمة معنوية أعظم من بقايا طفولتي المدمرة!. لماذا لا أقوى على البدء من جديد؟!.. مسؤولية لا أقوى على حملها، ولا يقوى أي شخص محطم أن يصنع حياة سوية لأطفال أبرياء مهما حاول، فلا يوجد على وجه الأرض فتاة قوية صنعتها أم هشة، أو ابن ناجح، أمه لا تكاد تستشعر في نفسها إلا فشلًا..

ولكنني ما إن عملت على شيء من الآن فصاعداً، فسأعمل على تربية ابنتي بشكل وسطي، لا يشوبه أي نوع من العدوانية النفسية التي بداخلي.. أعتقد بأن كلًّا منَّا يجب عليه معرفة قدر مسؤولية الإنجاب، فكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته، حديث مخيف، ولكنه ليس بنفس المعنى الذي فهمه أبي، فهو يعني أننا سنحاسب على ما نتسبب به في أولادنا، فنحن المسؤولون الوحيدون لأن نخرج أناساً صالحين، وسيحاسبنا الله على أي ظلم يقع على رعايانا بسبب عدم تحملنا للمسؤولية على أكمل وجه...

إن من طبيعتنا أن نأخذ ما تربينا عليه تماماً، ثم يكون منَّا من يمشي على نفس خطى والديه، ويكرر نفس الأخطاء، بدون إدراك. ومنَّا من يكره أسلوب والديه، فيفعل عكس كل ما فعلوا تماماً، فيتسبب بنفس المشكلة، ولكن بأحداث مختلفة . فحينما كان أبي يعطي المال والأشياء المادية، لأنه رأى أن هذا أكبر شيء حرم منه وافتقده، تسبب لي في مشكلة من نوع آخر، ولكنه لن يستوعب أبداً بأنه أخطأ. بالنسبة له هو عوضني عن ما حرم منه، ولا يستوعب لماذا لا أقدِّر ذلك حق قدره، وكأنني مثلًا شعرت بذاك النقص الذي شعر هو به في يوم من الأيام !

لا يفهم أنني لا أبالي، لأني لم أكن مكانه يومًا، بل كنت محرومة من أشياء أخرى كثيرة.

علينا جميعًا أن نتحمل مسؤولية إنجابنا لأطفال، عقولهم لم تُلوث بعد، وقلوبهم ما زالت صافية؛ فلا نكون نحن السبب الرئيسي في تدميرهم أيًّا كانت الأسباب. ليس من المسلَّم به أن نأخذ خبرتنا من أبوينا وننفذها تمامًا أو عكسها تمامًا أيضًا، بل أن نوازن بين الأمور، وخير الأمور دائمًا الوسط، فكل ما هو أقصى يسبب الكثير من المتاعب!

عندما يشعر شخص بنقص ما في تربيته، يحب أن يعوِّض أبناءه الذين لم يشعروا يومًا بنفس النقص، فيعطيعهم مما يحتاج هو أكثر مما يحتاجون، أو يتحملون حتى . فعندما تربى هذا على تربية دينية متشددة صارمة، أوجعته كثيرًا في طفولته، ربَّى أطفاله على لا دينية مطلقة، وكأن هذا ما سيجعلهم مرتاحين، دون أن يدرك أن كل أقصى يدمر على نحو ما . وعندما تربى ذاك على الحرمان من المال، قرر أن يعطي أولاده مالًا فقط، فخصص الوقت الذي يحتاجون فيه لحنانه، لصنع المال، الذي يعتقد هو أنهم يحتاجونه، ولا شيء غيره، فقط لأن هذا ما نقصه...

لا يفهم الناس طبيعتهم البشرية، ولا يعون أن أي شيء يأخذ للدرجة القصوى يدمر، لا يبني . وسطنة كل شيء ليست إلا راحة لنا. الإيمان بأن ليس ما نعرفه فقط هو الصحيح المطلق قمة العقل. ولكن أليس أصحاب العقول في عذاب مبين، بينما المجانين في راحة بالغة، لأن "كل واحد دماغه مريحاه " وإن دمرته هو وأبناءه ومجتمعه بأكمله!

عندما أرى أمي مع أحفادها أتعجب، أكانت معنا هكذا يومًا ! لا أتذكر أنها كانت تقضي معي معظم وقتها، أو أنها كانت تشعر بشغف الجلوس إليَّ، واللعب معي، كما هي مع أحفادها . لا أذكر كثيرًا من حنانها، بل صريخًا و حبًّا هائلًا لأبي، الذي لطالما فضلّته علينا.. ماذا لو كانت معي كما هي مع أحفادها، لماذا نسيت، لماذا لم أتعلق بها، ولم أكبر إلا على البعد عنها نفسياً، حتى أنني لا أشعر في حضنها بأي شيء؟ وعندما أمرض لا أشعر باحتياج إليها، لكي تعتني بي، كما أرى في معظم الناس! ماذا فعلت خطأ؟

تساءلت كثيرًا إذا كنت سأكرر نفس الأخطاء، خاصةً وأني لست مدركة تماماً لما فعلت هي لأتجنبه من الأساس، ولكني بالتأكيد أريد أن تكون علاقتي بحياة استثنائية إلى الحد الأقصى، وليس علاقة عابرة، كالتي أنا فيها معها!

بداخلي امرأتان، إحداهما تريد الهروب وألا تعود لهذا القفص الصغير، الخانق لجوانحها، التي تتوق للتحليق في السماء، ولم تجربه يومًا، والأخرى تود أن لو تنام داخل جسدي زوجها وابنتها إلى الأبد وألا تغادرهما أبدًا، فيكون حبسها أصغر ومحكمًا أكثر، وتنعم بهذا الحبس، لأنها تشعر أنها مجرد روح، ليست إنسانًا، بل فقط روح تحوم حول أجساد قد عشقت، وتشعر بالتيه خارجها، وتنتظر في لحظة احتضان قد طالت، أن تنغمس في هذا الجسد، هذا الوطن ولا تخرج منه مرة أخرى".

تقلبت بين الصفحات بعشوائية أكثر وأكملت قراءتي:

"نزلت تلك الأيام لأشارك في مشروع ميداني، عرضته عليَّ إحدى صديقاتي، للبحث في ظاهرة تعذيب الأطفال، وإلقاء الرُّضَّع في الشوارع، والعثور عليهم في صناديق القمامة، قبل إدخالهم دور أيتام، إن كانوا لا يزالون أحياء . تركت لأول مرة ابنتي مع جدتها لأيام عدَّة متواصلة، حيث رأيتها في الليل فقط، فهي لا زالت في شهورها الأولى، ولا زلت أجرب شعور الأمومة لأول مرة. كم تتمزق شرايين قلبي في كل مرة أرى فيها طفلًا من هؤلاء، فأرى في وجهه ملامح طفلتي!...

كم أعاني عند العودة إلى المنزل وأنا ألاعبها وأغني لها وأغازلها! فعندما تضحك، ضحكاتها تنير عالمي المظلم، لوهلة

قصيرة، ثم لا أنفك أن أتذكر مشهدًا لطفلة في مثل عمرها، يعذبها شخص مريض، ويقطع جسدها وهو ينهال عليها ضربًا، بينما لا تستطيع هي الشكوى ولا الدفاع عن نفسها، حتى ولو بكلمة! كم أتألم لرؤية السعادة في عين ابنتي، فأتذكر عيني تلك الطفلة المغلوبة على أمرها، التي أتت بها امرأة ما لهذا العالم وتركتها فريسة لأمراض نفسية لأخطر الكائنات وأكثرها وحشية، ذلك الكائن البشري!.. لا أستطيع الاستمتاع بلعب ابنتي وبهجتها؛ لأنني لا أستطيع التوقف عن تلك الفكرة الشعواء . إنني أتيت بها سعيدة في عالم بائس .. كم أشعر بالأنانية وأحتقر ذاتي كثيرًا، لأنني أم حنون، لا تستطيع أن تترك ابنتها تبكي للحظة لسبب تافه، بينما أنا أعرف عن يقين، أن في نفس تلك اللحظة، هنالك طفل في مثل عمرها، يعذب ويبكي ولا يستطيع حتى أن يسأل لماذا!..

فُطر قلبي مع معرفتي للأمومة، وكأنني أم كل هؤلاء، ولكنهم رغم ذلك، ليسوا بين أحضاني، كابنتي، لأحميهم من هذا العالم القاسي.. كم أحتقر، بعد كل ما رأيت، المدافعين عن حقوق المرأة، الذين يكرِّسون حياتهم للتحدث باسمها، وتنظيم جمعيات تدعم انتفاضتهم ضد العنف تجاهها ! ألا فانتفضوا يا أنصاف البشر، لمن لا يستطيع أن يأخذ سكينًا ليغرزه في قلب

من ظلمه، لمن لا يستطيع أن يحكي ما حدث معه أو حتى يفهمه، لمن ينام عاريًا بين أكياس القمامة ملوثًا بقاذورات رحم أمه النجس، لمن تنام أمه نومة هنيئة في الليل، وتخرج مع صديقاتها في النهار، وتترك قطعة لحمها لخادمة حقيرة، تفعل به ما يحلو لها، وتكافئها على جرمها تجاه طفلها بمرتب آخر كل شهر..

لا تأتوا بأطفال لهذا العالم الذي وسَّخه وجود من هم على شاكلتكم به. فجميع الأطفال، بلا استثناء، يولدون كصلصال من فخار، يتشكل كما تريدون، وكما تتحرك أيديكم. فطالما أياديكم مقطعة ومشوهة ومشلولة، لا تصنعونهم، فهم فن، ولأصحاب تقدير الجمال فقط، يجب أن يكونوا هم فقط، الذين يعرفون قيمة المواد الخام التي لا تُقدر بأثمان، فيصنعوا منها أعظم التحف والقطع الفنية التي تنير العالم، بدلًا من تشويهها!

أود أن لو أستطيع أخذ كل طفل بلا أم حقيقية في أحضاني، ليتربى بجانب حياة لأنقذهم من عالم بلا أم، لأنه ليس بعالم، بل جحيمًا. وهؤلاء سيصبحون بمعنى الكلمة يومًا ما أبناء جهنم! كم أتمنى فقط أن أعيش في عالم، لا يستطيع فيه إنسان، أن يتخيل نفسه قد شبع، وهو يعلم أن في نفس شارعه، رجلًا جائعًا!".

قلبت الصفحات مرة أخرى وأكملت القراءة:

"عندما يرتكب المرء جريمة القتل لأول مرة، فهو يبذل مجهودًا نفسيًّا كبيرًا ليتخطى تلك الأزمة الضميرية، والشعور المزمن بالذنب. ولكن عند ارتكابه نفس الجريمة للمرة الثانية، وفي حق شخص لا يختلف عن الذي سبقه كثيرًا، فإنه لا يعود يستشعر نفس مشاعر الأسى، ولا يشعر بنفس الظلم الذي أوقعه على غيره. يستطيع بعدها أن يفعل نفس الجرم ألف مرة وقد فقد الشعور بأي شيء .. هكذا أنا، أشعر بإنجابي لأطفال في هذا العالم، فأول مرة وخزني ضميري كثيرًا، وحاولت إخماده بمعتقدات ليست منِّي، بل اخترعها لي عقلي اللا وعي، لأنني أنانية جدًّا، وأردت أن أتنعم بطفولة شخص، سينضج يومًا ما، ويتمنى مثلي لو لم يكن أبدًا!

كنت أتألم بشدة لارتكاب هذا الجرم في حق مخلوق لا يستحق مني ذلك، ولكنني في المرة الثانية لم أشعر بشيء، لم يظهر لي ضميري لحظة، ولم أتألم لهذا الطفل البريء الذي اقترفته يداي، ولكن هذا لم يغير من حقيقة واحدة، هو أنني ارتكبت جرمًا، شعرت به أو لم أشعر، وربما قتله عدم اكتراثي لمعاناته، وربما خنقته أنا في نومي، ولم أعرف!".

قلت في نفسي: "يا ربَّاه! كيف لم أعلم من قبل أنه كان لي أخ ومات! تمنيت دومًا لو كان لي من ألعب معه وأصادقه . ورغم أن أمي كانت تحاول دائمًا ملء هذه الفجوة، ولكن امتلاك الشخص لإخوة، لهو أمر لا يمكن تعويضه أبدًا.. أتمنى حقًّا أن لا تكون قد قتلته!!!".

تقلبت بين صدر الكتاب ومنتصفه مرات عدة. أخذت في متابعة القراءة وأنا يملؤني شعور غريب، بأن من كتب تلك السطور، شخص لا أعرفه، ولم أستنشق رحيق أنفاسه من قبل!

"أنا لست استثنائية، لن أصبح شيئًا يجعل الناس كلها تشير إليَّ، وتتمنى أن لو تصبح مثلي . لست سوى طفلة، حلمت أحلامًا ليست منطقية، وعندما نضجت، وجدت صعوبة في التخلص من احتياجات تلك الطفلة، حتى أنها لم تعد تفرق بين الواقع والخيال. فبدلًا من أن أتعامل مع زوجي وكأني زوجة عاقلة، تعاملت وكأنني طفلة، تحتاج حنان أمها، التي يجب عليها أن تعرف ممَّ تشكو، بدون النطق به. وأن تعرف كيف تريحها، وأن تؤثرها على نفسها، وتفعل كل ما هو ممكن، وغير ممكن، فقط من أجل راحتها..

وبدلًا من أن أجد عملًا يجعلني أجد نفسي، وأثبت نجاحي، جلست في البيت، أتمنى وأنتظر أن يأتيني النجاح بنفسه، وكأنه

خُلق لي وظلمتني الدنيا، لأنها تأخرت في أن تعطيه عنواني . وبدلًا من أن أحافظ على الناس في حياتي، لعشقي للسهر والمرح، والوجود وسط مجموعات كبيرة، حيث أكون أنا من ألفت كل الأنظار نحوي، ظللت أتجاهل الجميع، حتى أصبحت بلا حياة اجتماعية، ليس لديَّ سوى صديقة واحدة، أجدول نفسي على مواعيدها الدقيقة جدًّا، وحالما تكون متاحة، أكون عندها في أسرع وقت!!

أنا من فعلت كل ذلك، ويجب أن أغيِّر نفسي لأصبح أسعد، عوضًا عن الشكوى البلهاء، التي لا تجدي نفعًا أبدًا والتفكير في الهرب، العادة التي لازمتني منذ طفولتي، حيث كنت دائمًا أهرب عندما أواجه أي صعوبة في التعامل مع أي شيء، أو أي شخص، حتى أنني اعتدت تغيير مدرستي كثيرًا، كلما ضاق بي الحال بين المدرسين والزملاء لكثرة مشاغباتي . وكم هربت من ألعاب رياضية، أحببت تعلمها، كلما عبرت مرحلة المبتدئين ! وأجد أن عليَّ الاحتراف والمثابرة والدخول في مسابقات، فكانت النتيجة أنني لم أترك رياضة إلا وتعلمتها، ولكني ليس لي باع في واحدة حتى يمكنني أن أقول لأي شخص أنا ألعب كذا. أغني وأرقص منذ زمن، وبهما أجد روحي وراحتي، ولكن

خبرتي بأي من الاثنين لا تكفي أبدًا لأن أصبح مطربة، أو أن أحترف أي نوع من أنواع الرقص.

لا أعي غير الهروب، حتى أصبحت في منتصف العمر وليس لي اسم أنادى به. فبدلًا من أن أفكر الآن بالهرب من بيتي وأسرتي أيضًا، وكأنني بذلك أجرب أسلوبًا جديدًا في الحياة، والبحث عن الذات، سأعمل ما أحب، وأعيش لسعادة زوجي وابنتي، وأسعد نفسي بأقل مجهود، ولن أفكر بعد اليوم، ولن أبحث عن إجابات ليس لها معنى، سوى أنها ترضيني...

الحياة قصيرة جدًّا، ومن الممكن أن أسعد بأقل ما فيها وأنا أملك الكثير. ربما أشعر أن بداخلي أعاصير قاتلة، وتجمعات هائلة من مختلي العقول والنفوس، ولكن برغم ذلك، يكفيني أنني أنجبت من قلب الجنون، حياة".

سقط مظروف من الكتاب، تركته بجانبي بعد أن ضاعت الصفحات التي كنت أضع أصابعي بداخلها، فعدت إلى ربع الكتاب الأول وقرأت:

"لن أنجب أطفالًا لهذا العالم، لو كانوا خيروني بين أن أولد أو أن لا أكون أبدًا، لكنت اخترت عدم المجيء إليها .. لا أعرف ما فائدتها! فهي سرعان ما تنتهي، والاختبار الذي علينا اجتيازه في منتهى الصعوبة، فلأنني أحب أولادي؛ سأجنّبهم كل هذا التخبط

ولن آتي بهم، ربما سأكفل يتيمًا وأرعاه وأعطيه حنان الأم الذي يفتقد، فهو قد ظُلم وأتى ولم يجد منها أبسط حقوقه في الحياة الكريمة، فلماذا أتركه يعاني وآتي بالمزيد بدلًا من أن أرحم من لم يأتِ بأن لا يأتي، وأرحم من أتى بأن أعطي له كل ما يفتقد...!

كل هذه الأفكار دارت في عقلي لسنين طوال، فهذا العالم لا يستحق أن نأتي إليه بآخرين أمثالنا ليظلموا نفس الظلم ويعيشوا تعساء على أرض لا تقدر بني البشر .. ربما هذا من كثرة الخوف من عقاب الحياة الآخرة التي لطالما توعدوني بها في طفولتي؛ فأردت أن أرحمهم منها، وربما لأنني ولدت في دولة ظالمة تأخذ ولا تعطي، مليئة بالشرور، مفتقرة للإنسانية، ولا ينجح منها إلا من يخرج من حدود أراضيها لدولة أخرى تقدره؛ أخاف عليهم قبل أن يأتوا من مستقبل يبدو لي مظلمًا تمامًا!

الزمن يتغير، ولطالما مرت الأرض بعصور أظلم وأظلم مما نحن فيه، ولكنهم أنجبوا لتستمر الحياة، وعندما استمرت أتى ازدهار وعلم وتطور على يد أخلافهم، وظهرت حياة عاشها أحفادهم وزادوا فيها تطويرًا...

عندما كان السود في أمريكا - من زمن ليس ببعيد - يعانون من الاحتقار والتفرقة، وكانت أعمالهم لا تزيد عن كونهم خادمين للبيض بشكل أشبه بالعبودية وكأنهم ليسوا بشرًا، كان من السهل أن يحظوا هم بتلك النظرة الضيقة والسوداوية للحياة ويتوقفوا عن الإنجاب لكي يجنبوا أبناءهم المآسي التي يعانون هم منها ويتوقف نسلهم تمامًا عن تلك الحياة المهينة، ولكن إن حدث ذلك في وقتها (ستينيات القرن الماضي) لما حكم الآن أسود أمريكا، ولما تطوروا وحققوا حياة إنسانية كافية لأن يعيش فيها مشاركةً كل الناس، ستون عامًا تفصل الصورتين، وكم هما مختلفتان تمامًا!..

هذه الحياة خُلقت لتستمر، وما نظرتي السابقة لها إلا سطحية، فمنذ متى خلق الخوف حكمة، بل لا يأتي إلا بالغباء!.. كم من عصور ماضية عانت من الوحشية والقتل والظلم، وكم أتت بعدها عصور منيرة! لا يجب أبدًا أن أنظر إلى العالم بنظرة محدودة تتملكها مشاعر معينة. إن كان العالم الآن بالنسبة لي يبدو سيئًا، فدوري تجاه المستقبل أن أصنع أناسًا قادرين على تغييره نحو الأفضل. لم يستطع بشر يومًا أن يغير من مساوئ حاضره وإن أراد، ولكن العالم يتغير دائمًا على يد الأجيال

الجديدة التي تعلمت على يد القليلين من المستنيرين فمن سبقوهم.

-هل تعتقدين أن العالم سيتغير؟

- أؤمن بذلك.

- وستزول كل مساوئ العالم؟

ستزول مساوئ اليوم، وتحل مساوئ مختلفة للغد، ستكون مشكلة من يخلفنا كيف السبيل لحلها، ولكن تبقى مشكلتنا نحن أن نعرف كيف ننشئ جيلًا يواجه مساوئ عصره بعقلية منفحتة على كل مختلف عنها، وهذا واجبنا الوحيد نحو المستقبل!!

رغم كل ما نعاني، وكل ما عرفنا، إلا أننا قررنا أن نأتي بمثلنا إلى هذه الحياة في مجتمع مشوه، وفي أسوأ حقبة عرفتها البشرية.. قد حدث!

فدعونا لا نضف إليهم مثلهم، ودعونا لا نورثهم أمراضنا ليكونوا وسط الملايين أعدادًا ليس لها قيمة، فقط دعونا نجعلهم وسط الظلام نورًا وبريقًا من الأمل... علموا أولادكم وربوهم ليكونوا عكس كل مألوف، ليكونوا الجيد وسط المهالك التي نغرق فيها منذ زمن.. وعلموهم حب الوطن الذي افتقدناه داخلنا، لعلهم يستطيعون فعل ما فشلنا نحن في تحقيقه .. اخلقوا عقولًا للمستقبل.. كما خلقتموهم أجسادًا، جربوا أن تنفخوا فيهم من

الروح ما ينجيهم وينجي ما تبقى للبشرية من إنسانية قد اهترأت...

اجعلوهم يؤمنوا بكل ما كفرنا به، ويكفروا بكل ما آمن به من سبقونا، ولا تكونوا سبباً في إضافة عاهة إلى مشفى ليس به علاج لأحد ولا يخرج منه سوى صريخ وعويل وضحكات مرضى نفسيين يستمتعون بتلك الاستغاثات التي لا مجيب لها!..

يربون أولادهم ليصبحوا أطباء ومهندسين يفخرون بهم، وسأربي ابني ليصبح إنسانًا ... وليس من بشر كامل بهذه الأرض، ولكن يكفي أن يكون إنسانًا لينال انحناء ظهري فخرًا.. فقبل أن تعلموهم أن مصدر كسب الرزق والزواج والتناسل هي أساسيات الحياة ومستقبلهم المحتوم كأي كائن بدائي، علموهم أنه إذا ماتت عقولهم فهم أموات بالضرورة، وأنه إذا ماتت قلوبهم فقد سبقوها إلى القبور، وأنه إذا ماتت الروح لم يعد للجسد أي معنى... بنو آدم، صورة الله على الأرض، اجعلوا تلك الصورة تنبض بالحياة، فمنذ ذبلت كل معاني الإنسانية بينكم لم يعد لدين الله وجود...“

تابعت تقليب الصفحات وأنا في صدمة لم أعهدها من قبل ! كانت دائماً تحدثني، عن كيف أنها تشعر بأن عقلها يؤذيها، ولكنني لم أتخيل كل هذا الكم من التخبط ! كيف أنشأتني

سليمة نفسية تمامًا وهي تعاني كل تلك المعاناة؟ ! كيف استطاعت أن تخبئ عني كل ما يدور بداخلها وكأنها سليمة تمامًا لما يقارب عقدين من الزمان؟!

ذهبت للربع الأخير منه، بشكل عشوائي أيضًا، وقرأت:

"دائمًا ما أتألم في محاولة إيجاد إجابة لسؤال عكس طبيعتي، أو لا يخضع لقوانين الطبيعة عامةً . فقبل البحث عن إجابة، استيعاب السؤال نفسه أولًا، لا يكون بالأمر السهل. غالبًا ما أجد إجابة تريحني لفترة ما على الأقل، ولكن السؤال الذي سأله عقلي لي عمرًا كاملًا، وظل يتكرر بلا كلل، كلما نظرت لأي شخص حولي، ولم أجد له إجابة أبدًا، بل ولم أفهمه لصعوبة وقعه على نفسي، هو كيف لبعض البشر، أن يقضوا كل أيامهم بشكل مطابق للأيام الماضية والآتية، وعندما يضعون رؤوسهم على وسائدهم في الليل، لا يشعرون بأن ثمة ما ينقصهم، إلا مزيدًا من المال، أو النسل، وشركاء للحياة!! كيف يعيش أغلب البشر ليأكلوا ويشربوا ويتناسلوا ويتعصبوا لآرائهم التافهة، ثم يموتون راضين تمامًا عن العمر فيما أفنوه !! كيف يستطيع شخص بشري أن يتوقف عن الحلم، أن يتوقف عن احتياج إضافة شيء ما لهذه الأرض المسكينة؟ ! كيف يكون الناس أنانيين لهذا الحد؟!

أردت كثيرًا أن أنزل لأسواق العمل ككل الناس من حولي . ولكن الزلازل التي سكنتني ظلت تهزني من أعماقي، ولم أستطع الاتزان بشكل ملائم أبدًا . الصراع كان دائمًا حول اهتمامي المبالغ فيه بابنتي، لأنني لم أرد إلا أن أخلق من البيمارستان الذي سكنته روحي، شخصًا صحيحًا، وكان هذا هدفًا كافيًا بالنسبة لي، لأنه هدف مليء بالتحديات والعقبات التي أواجهها كل يوم، لأكون إنسانًا عاقلًا، وسط جنوني، كان كافيًا أيضًا، لئلا أستطيع أن أصبح عبدة لبضعة جنيهات تصرف بعد استلامها بأيام معدودة. لن أبيع أحلامي بملاليم وظيفة وإن مت فقيرة، فإن غنى عقلي هو الأبقى، وخاصةً أنني دائمًا ما شعرت بأن الموظفين عبيد مهنتهم، فهم ينفقون معاشاتهم التي اكتسبوها من أجل نجاح أعمال أناس آخرين فقط على طعامهم وحياتهم اليومية، وكأنها "ساقية "، فلا مكان فيه للتطوير، ولكن فقط وسيلة للبقاء على قيد الحياة، وأحمد الله أنني لم أحتجه يومًا .. لم أرد أن أدخل في هذه الدائرة المفرغة وأترك خلفي عقلًا ما زال قيد التشكل لمدارس لا يتعلم فيها أحد، فهذه الأجيال التي تنشأ بدون تعليم جيد، كفيلة بتدمير أوطانها من الداخل، ولا تحتاج لعدو خارجي ليقمعها ويهد المعابد فوق رؤوس أصحابها، وأنا أعلم أن فردًا واحدًا

مثل ابنتي إذا ما صدق حدسي وأصبحت نابغة أن تكون كافية لنهضة هذا الوطن الذي بُليت بعشقه، ولكنني أفعل ما يمليه عليَّ ضميري، وفي النهاية، الحياة كلها عبارة عن احتمالات، لعل وعسى!".

فتحت صفحة أخرى، ولا تزال علامات الدهشة على وجهي، لتفاجئني الصفحات أكثر وتؤكد لي أن هروب أمي من البيت الآن دون إخبارنا، لم يكن من أجل العلاج، بل لتحقيق حلم حياتها. أتت تلك الكلمات، لتزيد من غضبي وحنقي عليها وعلى والدي الذي تسبب في ذلك في آن واحد:

" حلم الهرب يراودني منذ أن كنت طفلة.. أن أهرب من الناس الذين يعيشون حولي ولا أعرفهم، ولا أشبه أيًّا منهم، أصرخ فيهم ولا يسمع مني أحد سوى صوت زعيق مزعج، لا يحوي كلمات بداخله، كأنني شبح يسكن منزلهم، ويطلب المساعدة من الأحياء، ولكنهم لا يفهمونه، كي يقدموا له أي مساعدة .. حلمت أن أهرب كي أعيش أخيرًا بحرية، أتنفس هواءً نظيفًا دون أن يقف أحدهم على باب منخاري، ليعد الداخل والخارج من أنفاس، بشكل مفصل.أريد أن أعيش مع أناس لا أعرف أسماءهم تلك المرة، لكنهم يشبهونني، يفكرون مثلي، ويعرفون معنى الإنسان...

حلمت وحلمت وحلمت حتى جئتِ إلى عالمي بغتة، لا أعرف متى، ولكن لم يتغير العالم من حولي أبدًا بمجئيك . لا زلت أعيش مع أناس لا يعرفوني ولا أعرفهم، لا نشبه بعضنا سوى بالملامح، ولا زلت أصرخ ولا يقدر على مساعدتي، حتى الشخص الذي لا ينام ليلًا إلا وقد تنفس خلايا جلدي من كثرة عشقه لي. لكن ما عساه أن يفعل؟ هو إنسان ولا يقدر أن يسمع من الأشباح سوى دوي صراخهم المرعب، ولا يملك في يده كبشر أن يفك شفراتها ويتحول إلى هامس أشباح، يقف أمامي بكل استيعاب وقوة، ويقدم لي المساعدة، كرجل خارق يحكى عنه في الأفلام الهوليوودية.. لا أزال يا حبيبتي أتوق إلى الهرب وإلى العيش وحيدة، حرة تمامًا، فجئتِ يا صغيرتي، وأخذتِ مني حتى قدرتي على الحلم، أن أحلم وأنا لا أزال أعرف أن بإمكاني، ربما يومًا ما، تحقيقه!

كنت أتفاخر دومًا أمام الجميع برحابة صدره وتقبله لي، رغم اختلافنا، لكنه لم يفعل أبدًا، ولولا ذلك اللعين الذي يسمونه العشق، لتفرقت بنا الدروب، من اليوم الأول الذي قلت له فيه إنني قد شذذت عن القاعدة...لم يصبح أمامي سوى طريقين، أما الهرب كما حلمت منذ كنت في بيت أبي، ثم اتخذت أباكِ

ملاذًا، لم يستطع أن يحتويني، كان ملائمًا لطبيعته الشرقية، الحابسة لكل شيء ولد ليكون حرًّا، في نفس الوقت!

أن تشعر بأن ثمة شيء ما ينقصك بشدة، فيما أنت بين أحضان أقرب الناس في هذا العالم إليك، لهو أصعب ما يمكن للمرء الشعور به فيما يخص العاطفة، لأنك تعلم حينها عن يقين، أنك لا تملك مكانًا آخر لتسعى إليه، آملًا أن تجد ما يملأ هذا الفراغ بداخلك، لأنك بالفعل في آخر مكان يمكنك أن تكون فيه، بين أحضان الشخص الذي لا تريد غيره، فحينها تدرك أنه لا يمكنك أبدًا إيقاف هذا الألم الذي يعتصرك، بينما تعيش لحظات السعادة المتناهية. لا يمكنك حتى أن تشكو من وجعك، فبين طيات هذا الحضن الدافئ، لا يوجد صديق يستمع إلى ما تهمس به روحك، أو صديق يستشعر ما يصرخ به لسانك .. أنت وحيد، في أكثر مكان في العالم لا يمكن للوحدة أن تتواجد فيه، فقد وقعت في حب شخص أناني!

أمسيت مدمنة على الابتسامة، لما فيها من مفعول السحر. ليس لأنها معدية وبإمكانها تغيير مزاج شخص ما لا أعرفه ولم تأخذ بيننا الكلمات أي حيز كما أقول للناس، ولكن لأنها تستطيع، بكل جرأة، أن تجعل كل الناس تظن أنني أسعد شخص في العالم.

فهي تبدل ملامحي، تحول تجاعيد الحزن تحت عيني، إلى تجاعيد طفل حديث الولادة، عندما تلاعبه الملائكة؛ فيبتسم لهم .. تستطيع الابتسامة أن تخفي كل آلامي وكأنها ليست موجودة؛ لكي لا أضطر إلى إجابة أحد إذا ما سألني "ما بكِ؟ " لماذا تغيرتِ وماذا حل بكِ؟

تستطيع الابتسامة وحدها، أن تمحو آثار كل الصراعات التي ينضح بها عقلي وقلبي معًا من عيني، وكأنها ستار عازل مليء بالألوان المبهجة، يفصل ما بين الأشخاص المرفهين، وبين الحرب التي تخوضها بلدانهم، كي لا تؤذيهم دماء الجنود، الذين في مثل سنهم ... ساحرة هي تلك الابتسامة، وتحقق حلم طفولتي في أن أمتلك قوة خارقة، بأن أصبح غير مرئية تمامًا عن أعين الناس، فأتجول هنا وهناك، ويعيش كل من حولي حياتهم كما هي دون أن يتوقف أحدهم وينظر لي ليسألني "هل تحتاجين شيئًا؟ هل من شيء ينقص روحك فأساعدك على ترقيع ما تبقى منها؟ هل ضاع منك شيء، ربما يلهمني الله فأساعدك في إيجاده؟ هل ما زلت حية؟"

قلبت في الصفحات الأخيرة فوجدتها قد كتبت:

"لا أخاف الموت، بل أخشى عليه منّي...

هو يحصد الجميع بلا استثناء، ولم يعد يومًا من هناك أحد ليقصَّ لنا ماذا حدث معه. لكن عدم معرفتي تلك لا تقلقني، بقدر ما تثير فضولي بشدة..

مللت تلك الدنيا التي ولدت بها خطأً . فهي مملة جدًّا، وقد زهدتها منذ زمن ولم يعد بها ما يثير اهتمامي. هي فانية على أية حال، ومهما كانت اعتقاداتي، تلك الحياة لا تمثل فيها الكثير، فإذا كانت هناك حياة مختلفة عن تلك بعد انتهائها، فأهلًا بكل جديد، أما إذا لم يكن هناك أي شيء أبدًا، فأهلاً بنوم عميق يذكرني بأمنية طفولتي، أن يعود بي الزمن ولا يلدني أبي وأمي هذه المرة لأستريح..

ولكن إن كان هذا قد حدث، هل هذا يعني أن كل شخص لم يوجد على الأرض يومًا هو بالفعل أوفر حظًّا منَّا؟ وإن كان كذلك وكانت لا حياة بعد الموت، ألا نكون نحن أوفر حظًّا، على الأقل لأننا جرّبنا ما لم يجرب، ثم لحقنا به في ذلك الثقب الأسود! هراء، كل ما فعلت في حياتي هو أن أسمح لعقلي بطرح الهراء. ربما ظننت بسببه ذات يوم أنني استثنائية، لكن، وها أنا على مشارف الذهاب لعالم آخر، لا يخضع لقوانيننا، لم

يعد لكل هذا لزوم . أم أنني سأصبح هناك استثنائية أيضًا، وكانت تلك الحياة مجرد تدريبات خلف الكواليس، قبل الخروج إلى الجمهور، على خشبة المسرح الحقيقية !! هل عشت كل هذا ظانة أن تلك الحياة هي المسرحية، بينما هي لم تكن في الحقيقة، سوى تدريبات مكثفة لتجهيزي لأن أقوم بدوري، حيث لا مكان هناك للأخطاء وإعادة المحاولة؟ ! هراء .. فقط، توقفي!

أتوق للمعرفة، وأتوق للموت بشدة، لا لشيء إلا لأنني أشعر بأن حياتي ستبدأ عندما أعرف . فما الحياة إلا عبث ومسرح هزلي، لا نتعلم كيفية التمثيل قبل الظهور على خشبته . عندما أتركه، حتمًا سأعرف!".

قطع تركيزي في القراءة صوت أبي وهو يدخل من باب البيت، ولم أستطع أن أكمل؛ لأن جدتي حاولت فتح الباب . عندما لم يُفتح طلبت مني أن أخرج لكي أتناول الطعام مع والدي .. أخبرتها بأنني سآتي بعد لحظات .. لم أستطع مقاومة فتح الظرف المغلق لمعرفة ما بداخله، قبل أن أؤجل إكمال هذا الكتاب، الذي كُتب على يد شخص مختل عقليًّا، حتمًا أنا لم أقابله قط.. فتحت الظرف، ووجدت شيئًا أغرب بكثير، ولم أفهم

لماذا كتبته على الحاسوب، وطبعته باهتمام بالغ، وكأنها في أيامها الأخيرة بالفعل، كرجل عجوز على فراش الموت!

ولكنني قرأته علي أية حال ...

❁❁

"وصيتي من بعد موتي"

أعطوا أعضائي لمن يحتاجها دون مقابل، ليدق قلبي في جسد أحدهم وأعيش فيه بعد موتي، ولتنظف كليتاي جسد أحدهم، ليعيش بدون ألم، وليرى أحدهم بعينيَّ جمال الدنيا، بدلا من ألا يران معي إلا ظلام القبر.

تخلّوا عن كل ما بداخلي سيتعفن، قبل تخييط جلدي وتنظيفه، لأنني لست من معجبي الديدان كثيراً، فلا تتركوها تخرج مني، بل أخرجوا مني الحياة لغيري، واتركوا جسدي، لأول مرة، ينام في هدوء وسلام، دون أن يتدخل به أحد.

لا أريد أن أتلفف في قطعة قماش بيضاء، أُرمى بها في الأرض، كما أفعل بقطع الأكل التالفة، عندما ألفها في منديل أبيض وألقيها في صندوق القمامة وأغلقه فوقها . ألبسوني أفضل ما في خزانتي. ضعوا لي الأحمر في أظافري وعلى شفتيَّ. دعوا شعري ينسدل بجابني ليشعرني بالدفء، دعوني

أقابله وشكلي جميل، لعل هذا يقلل من رعبي منه، أو يجعله يحنُّ عليَّ قليلًا، فربما جمالي الداخلي ليس بكافٍ. ثم ضعوني في صندوق منقوش خصيصًا، بشكل جميل، فستكون تلك هي غرفتي للأبد، لا يشاركني فيها أحد، ولا يدخل عليَّ أحد أبدًا . اتركوني وحدي معه، لا أريد أن يرى أحد ما سيدور بيننا..

لا تأخذوا رأي شيوخ في أي من هذا، فأنا لم أهتم يومًا برأي بشر. عشت عمري كله كما أردتم لي، فأرجوكم، أن تدعوني أموت كما أريد أنا، لئلا يسكنني البؤس، فوق الأرض وتحتها!

إذا أردتم أن تقرأوا عليَّ من القرآن والإنجيل والتوراة فافعلوا . كلها واحد بالنسبة لي، فأنا أشهدته أنني قد آمنت بأي شيء أنزل، وأي شيء يريد، بدون غرور بشر، يتمسك فقط بما ولد عليه دون غيره. أشهدته أنني ولدت بزمن لا يعرف فيه الحق من الباطل، سوى العقول الضئيلة، وأنا معه في أي شيء، وأتوق شوقًا لرؤياه، وأرتجف رعبًا منه. فقد قال عنه البشر ما أتمنى ألا يكون فيه، وأنتظر رحمته بشخص مثلي، جاءه تائهًا باكيًا، مثل طفل صغير!

لا تتركوني وحدي كثيرًا، فإني أخاف الظلام والسكون . غنوا لي، تحدثوا معي، سأكون معكم وسأشتاق لكم، حتى تتبعوني. وعندما يحدث، فلا تنسوا أن تنظروا لحالي، وإن وجدتم أنني

كنت خاطئة، وأتلقى نصيبي من العذاب، فاشفعوا لي، ربما يكون منكم من أحبه هو دوني؛ فيرحمني لأجله!".

أغلقت الأوراق وأعدتها كما كانت، فأنا لا أريد أن تعرف أنني فتحت حاجاتها الخاصة دون إذن.. خبأتها في حقيبتي، ثم خرجت لجدتي. لم أجد أبي. سألتها عنه، فقالت لي إنه ذهب للنوم، ولا يستطيع أن يتناول الطعام .. كم كان ينام كثيراً ! ألا يكفيه أنه السبب في أن أمي قررت الذهاب دون أن تخبرنا !.. لابد وأنها لم تستطع أن تتحمل الحياة معه أكثر، لذلك سافرت فجأة وهربت منه، كما حلمت دوماً، وكتمت ذلك الحلم لسنين طوال من أجلي حتى كبرت. لابد وأنها كانت تمثِّل الحب أمامي طيلة هذه السنين، لكي لا تتأثر نفسيتي، التي عملت لها ألف حساب من يوم ولادتي...حتى أنها عندما حاولت ذات مرة أن تبوح لي عما بداخلها، جعلت الأمر يبدو وكأنه كلام إحدى صديقاتها، ووضعت نفسها في خانة الناصح العاقل. لابد وأنها كانت تحكي لي عن الطرفين اللذين يعيشان بداخلها، ويتصارعان دوماً، دون أن تقول لي إنها تعاني بشدة . أكرهه لأنه آلمها ولم يستطع أن يحبها كما يجب، أكرهه لأنه السبب في أن تتركني أمي بهذا الشكل!

مر أسبوع من هذا اليوم . ذهبت مع أبي إلى منزلنا أخيراً . رفض أبي إلحاح أمه على أن تأتي معنا، لتساعدنا في المعيشة، بحجة أنه يحتاج بعض الوقت وحده، وبأنه كان يتحمّل مسؤوليتي ومسؤولية المنزل وحده لشهور طوال، ويستطيع أن يفعل ذلك الآن أيضاً...

دخلنا إلى منزلنا وحدنا. كم اشتقت إليه! كم اشتقت لرائحة أمي في جدرانه! كم اشتقت لرؤية لوحاتها وتأملها، لكي أستشعر روحها التي تركتها بكل واحدة منها.. ولكنني تعجبت من عدم محاولتها التواصل معي!.. تعجبت من أنها لم تأبه بأن تترك لي ظرف عيد مولدي على السرير هذه السنة. ولكنني متأكدة أن ذلك لن يطول، وبأنه بالتأكيد الأمر خارج عن إرادتها تماماً.. كم أحتاجك يا أمي!!

❁❁

(٦)

استيقظت يوم عيد مولدي السابع عشر. وجدت بجانبي ظرفًا أبيض، كعادة هذا اليوم، ولم أتساءل كيف أتى إلى هنا، وأمي في بلد بعيد عنّا. لكنني متأكدة من أنها تتدبر أموري، بعيدة كانت أو قريبة، وأنها لن تهملني أبدًا مهما حدث . فتحته، وقرأت الورقة الصغيرة التي كتبت عليها:

"أنا لا زلت حية بأنفاسك، أنا حية في أفكارك، وإن كنت غير موجودة في عالم الناس العادية، فالعالم المستقل الذي بداخلك يحويني، ويكفيني.. أحببتك دائماً، وسأظل أحبك الى الأبد، إذا كان لتلك الكلمة معنى!".

لم أفهم كيف لا تكون في عالم الناس ! على مدار الأعوام القلائل الماضية، لاحظت كيف بإمكان أمي أحيانًا أن تبدو كالمختلين عقليًّا، هل تعتقد أن حياتها في قارة بعيدة يجعلها من عالم آخر؟! ربما سأنضم لهذا العالم عمَّا قريب، عندما

أنهي هذا العام الدراسي، وأذهب إليها لأكمل تعليمي هناك بجانبها، ولأدرس علم النفس كما يجب أن يُدرس، في أعرق الجامعات المختصة. لا أستطيع أن أعيش مع أبي، هو السبب في كل ما حدث، وفي اختيارها البعد عنِّي. رغم حزنه الواضح، إلا أنني أعرف أنه لا يبالي، فإن كان قد أحبها، لما جعلها تغضب وتريد الخروج من سجنه، حتى إن عنى ذلك، أن تبعد عنِّي!

فتحت الأوراق الكبيرة المطبوعة وأخذت في القراءة...

"تلك ستكون رسالتي الأطول والأخيرة يا صغيرتي . من الآن فصاعداً أنتِ من يجب عليكِ أن تسألي، وأنتِ من عليه إيجاد الإجابات. أردت أن أترك لك إرثًا تذكريني به، لكنه رغم ذلك ضئيل جدًّا ولا يكفي لكي تعيشي عليه، بل ابني عليه ما يجعلك -على عكسي- فخورة بما سيرثه أبناؤك من بعدك...

لا يمكننا أن نسأل إن كنَّا نعتقد في وجود الله أم لا. لا لأنه سؤال محرَّم، ولكن لأن اعتقادنا في الأشياء غير الموجودة لا تجعلها موجودة، واعتقادنا أن أشياء لا نستطيع رؤيتها، غير موجودة لا يمحوها! ولكن هناك أسئلة كثيرة، يجب إجابتها، قبل أن نسأل عن قدرتنا على معرفة أن الخالق الواحد موجود بالفعل...

كان دوماً الملحدون من جيلي يسألون، إذا كان هناك لكل سبب مسبب، فمن خلق الله؟ أم أن المؤمنين يعتقدون في وجوده من لا شيء ولا يستطيعون الاعتقاد في وجود الكون من لا شيء؟! في سن العاشرة سألت هذا السؤال التافه، عن من خلق الله؟! حيث إنه ليس من السهل على العقل البشري أن يعي تماماً حدوث شيء دون دلالات على بدايته ونهايته، ولذلك، وفي نفس الليلة، أرّقني سؤال، كيف لنا في الآخرة أن نكون مخلَّدين، ولا تكون لحياتنا نهاية أبداً؛ حيث إن طبيعتنا البشرية تحتّم وجود بداية ونهاية لكل شيء، حتى أنني شعرت بعضلات قلبي الصغير تنكمش من صعوبة فهم السؤال، ومحاولة جعل الإجابة التي تلقيتها مسبقاً قبل أن أسأله تبدو منطقية، لأتمكن من النوم في سلام.

لكن بالنسبة لشخص ناضج، لا يمكن أن تكون هذه هي الأسئلة التي تؤرقه ويحتاج الإجابة عنها. أجد أن عقلاء أوطاننا، يكرِّسون أوقاتهم ليجدوا الإجابة المثالية على أسئلة تافهة، لا تحمل في طياتها أي معنى، وبالتالي لا تحمل الإجابة عنها أي دلائل أو فائدة من الأساس. قد يعتقد الشيخ أنه يحتاج لأن يرد على الملحد في سؤال مثل: من خلق الله؟ فيقول له إنه كيف للخالق أن يُخلق وهو البداية؟! ولكن هل بالفعل سيسأل ملحد

هذا السؤال، إذ إنه أصلًا لا يؤمن بوجود الله، لكي يسأل عمن خلقه!

العقل المدرك الذي يعي جيداً كيف يعمل العالم من حوله، سيعرف بطبيعة الحال أن الكون شيء مادي، خاصةً الحياة على الأرض، التي لطالما كانت لغزاً يصعب حله. بغض النظر عن أن البشرية عرفت مؤخراً كل ما يحدث خارج نطاق مجموعتنا الشمسية الضئيلة، فظنوا بالتالي أنه لا يمكن أن يكون كل هذا الكون الشاسع مخلوقًا فقط للإنسان، هذا المخلوق الصغير الضعيف الفاني. لكن أيعقل أن يكون الإنسان ذو العقل الذي لم يشهده في أي كائن آخر ولم يره داخل مجموعتنا أو خارجها إلا به وحده أن يكون جزءاً من الطبيعة ومجرد غبار نجوم متناثر؟

هكذا وبسبب تعمق أكثر في العالم والعلم والفكر، تراجع كثير من علماء الغرب عن إلحادهم، ومنهم الفيلسوف آنتوني فلو، الذي قال عن سبب استيعابه مؤخراً لوجود إله للكون، هو أن العلم الحديث يشير إلى معطيات تدل على وجود خالق واحد، وهي أن نشأة الكون لها بداية من العدم، وأن الحياة نشأت على الأرض بدقة متناهية، ومن مواد غير حية، وتدل على أن لها هدفًا وغاية وليست عشوائية، وأن القوانين التي تحكم

الطبيعة كلها واحدة ومتناسقة، وأن كل القوانين والموجودات على الأرض مناسبة جدًّا لمعيشة الإنسان، وأهم نقطة، كانت العقل ذا القدرات اللامحدودة والخارقة، وكل ما توصل له كان عن طريق العقل فقط دون إيمان ديني بغيبيات!

ومن هنا لزم أيضًا يا صغيرتي أن ترجعي إلى القاعدة التي وضعتها لك منذ أعوام، عندما بدأنا في دروسنا الفلسفية المهرطقة تلك، وهي أنكِ لابد لكي تعرفي أي شيء عن الإنسان، أن ترجعي الى الأطفال، وستجدين ما تبحثين عنه . فبرغم فرض الملحدين فكرة أنه كلنا عندما نكون أطفالًا نكون ملحدين بطبعنا، ثم يبدأ أهلونا بملء عقولنا بدينهم، أيًّا كان هذا الدين. هو مجرد تخريف؛ لأن الفطرة عند الأطفال هي الشعور بقوة خارج طبيعة عالمنا تحكم كل شيء، ويميلون أيضًا لتفسير كل شيء موجود لهدف وغاية أعظم، وهذا ما جاء به د. جاستين باريت، الباحث في علم الإنسان والعقل في جامعة أوكسفورد؛ حيث ذكر في دراسة على أطفال في عمر السادسة والسابعة أشارت إلى أن الأطفال الذين لم يتلقوا أي تربية دينية منذ ولادتهم، مالوا للاعتقاد بأن كل شيء خُلق لسبب وهدف معين، وأن هناك خالقًا أعظم خلق كل شيء؛ حيث أثبتت دراسته أن الأطفال عقولهم وهي في طور النمو

تميل أكثر لتصديق قصة الخلق، عن نظرية التطور التي يتلقونها في بيوتهم ومدارسهم.

يمكنني أيضًا الإشارة في هذه الفرضية الغريبة، بأن الطفل ملحد بطبعه، بأنه لو كانت صحيحة حتى ولو بنسبة ضئيلة، فكيف أتى بعقل الإنسان الأول، اختراع وجود آلهة وقوى عظمى يحتاج للتضرع لها، ولماذا أنشأ أديانًا تكبل حريته الفطرية، التي لا تجعله يشعر منذ طفولته بأن هنالك حاجة لأن يكون هناك إلهًا لهذه البشرية، يراقبه ويتحكم به؟

وعلى ذكر الغائية، وارتباط كل شيء في فطرة الإنسان بطبيعته في سن الطفولة، فجدير بالذكر، أن من الأشياء التي يملكها الإنسان في طبيعته ويختلف فيها مع سائر مخلوقات الكون بشكل ملفت للغاية، هو عدم قدرته على مقاومة اشتهاء كل ممنوع، فإذا أتيتِ بطفل في عمر السنة أو السنتين، وقلتِ له كلمة لا على أي شيء، ستزداد رغبته في فعل نفس الشيء أضعافًا. بينما إذا لم تلفتي انتباهه لها أو تجاهلتِ تعامله مع هذا الشيء بدون محاولة المنع، فسيتركه بسبب الشعور بالملل على كل حال..

المنع والتحريم يحرِّك رغبة غريبة داخل الإنسان، تمنحه لذة في فعل شيء ما، أي شيء، مهما كان تافهًا أو غير مغرٍ

للشخص العادي، مجرد أن تخبره أنه ممنوع، سيقاتل من أجله .. نحن من نعلم أطفالنا بعد ذلك كيفية الخضوع والاستسلام للمنع دون عناد، لأن الرادع يكون أقوى من أن يتحملوه، فيخضعوا في النهاية؛ مما يتسبب في فعل نفس الشيء الممنوع في الخفاء، وبلذة أكبر!

لا يمكن أن يكون كل هذا التعقيد العقلي والنفسي الذي يتفرد به الإنسان وحده أن يكون مجرد صدفة وجدت مع تطور خلايا مخه وبدون هدف واضح منها . بل إن تلك التعقيدات تخضع بشدة لنظرية، وتشير إلى وجود خالق أبدع في الإنسان وحده أكثر من أي شيء في هذا الكون، ليختبره ما إذا كان سيستخدم عقله بشكل سليم، وسيستطيع تركيب قطع "البازل " والوصول إليه، أم لا! لا أعتقد أن الإختبار روحانيًا أو دينيًا، إنما الاختبار اختبار العقل أولًا وأخيرًا. هذا العقل الذي يتحكم في النفس وفي اتخاذ القرارات وتشكيل الصورة الكاملة للطريق الذي سنمشي فيه حتى النهاية بعد أن نكون قد اخترناه بأنفسنا..

إن الاختبار لا يمكن أن يكون اختبار كبح الشهوات الحيوانية، بل إنما اختبار إعلاء الصفات البشرية، إعلاء العقل، إعلاء الإنسانية!

يحاول شيوخنا عبثًا أن يجدوا إجابات أيضًا لأسئلة طفولية، يعتقدون أنها تؤرق الملحدين، مثل: كيف تثبت أن هناك روحًا؟ فيكون الرد هو: "وأنت كيف تثبت أن هناك عقلًا!!" كل الأسئلة التي يتخيلها المؤمنون ويردون عليها في مخيلاتهم، ليست إلا أسئلة طفل لم يتجاوز العشر سنوات، ثم منعوه من طرحها، فلم يستطع في حياته إلا أن يثيرها في عقله اللاوعي، ثم يستغفر لأنه يعتقد أنها أسئلة كافية لتجعله يكفر بدينه، بينما هي ليست أسئلة من الأساس، ولا تحتاج كل هذا العناء، فهناك أشياء تُدرك بالعقل وأخرى تقدَّر بالقلب، وعلى حسب ما تفضل أنت إعماله أكثر، وهذا كله بينما أتغاضى عن المستوى الثقافي للفرد بالطبع.

ما يُدرك بالعقل فقط، هو ما تستطيع تقديره حسيًّا، بأن تراه عيناك وتسمعه أذناك وتتذوقه بفمك . وإذا لم يستطع شيء لمس حواسك الخارجية، فهو لن يكون في نطاق اهتماماتك . أما كل ما يُدرك بالقلب، فهو ما وراء الحواس، وما يمكنك الشعور به بالفطرة، ولا تحتاج لدليل مادي لمعرفته.. المشكلة كلها تكمن في أننا نملك نوعين من البشر . النوع الأول يعمل عقله فقط، فيكفر بكل ما لا تدركه حواسه، متناسيًا أن عالمه صغير جدًّا، وبأنه مجرد بشر، لن يستطيع معرفة كل شيء

ولمس كل شيء في هذا العمر القصير الذي يملك. أما النوع الثاني فهم من يعملون قلوبهم فقط، ويضعون عقولهم على أرفف مليئة بالأتربة، ويخافون حتى طرح تلك الأسئلة الطفولية، إلى أن يصلوا لمرحلة الإيمان الغيبي بكل شيء، وهنا يأتي دور الجهل الديني والشعوذة والتحكم السياسي بهم، عن طريق استخدام أي جملة بداخلها كلمة دين...

ليس من البديهي قول إن فطرتنا التي خُلقنا عليها أن نعبد ما لا نراه. إن الإنسان دائماً ما يفضِّل أكثر أن يعبد ما تراه عيناه وتلمسه حواسه وإن لم يعترف بذلك . أتعتقدين أن الوثنيين كانوا بهذا الغباء، أن يعبدوا ما صنعت أيديهم، ويعتقدون بأنه يتحكم بهم ويضرُّهم وينفعهم؟! ليس هذا هو الواقع، بل إنهم يعرفون أن هناك إلهًا عظيماً لكنَّهم لا يرونه، فصنعوا ما يعتقدون أنه سيقرِّبه إليهم. وقدَّسوا هذه التماثيل، التي هي بمثابة وسيط بينهم وبين الإله الحقيقي، الذي يجهلون ماهيته.

وهكذا فعل المسيحيون بصنع تماثيل للمسيح وأمه، كي يركعوا ويصلُّوا لما لا يستطيعون رؤيته. تجدينهم يقدسون القسيسين، ويبكون بحرقة على موت أحدهم . يعترفون لهم، يتناولون منهم، يتباركون بهم ويطلبون منهم أن يكونوا وسطاء بينهم وبين الرب الذي في السماء، فهم يثقون بهم أكثر من ثقتهم

بالإله ذاته لأنهم لا يرونه . حضرت مناقشة حادة يومًا بين مسيحيين اثنين، أحدهما يمسك هاتفه ليرسل صورة قديس متوفى على الإنترنت، ويطلب من الناس أن يطلبوا منه ما يريدون كي يستجيب لهم الرب، فاعترض الآخر على هذا الفعل واستنكره لأنه ليس واقعيًّا ولا عقلانيًّا أبدًا، فكفَّره الأول وقال إنه لا يمكن أن يكون على نفس مذهبه وأنه لا يفهم كيف تجري الأمور.

لا تعتقدي بهذا أن المسلمين أنفسهم بمنأى عن كل هذا، فأراهم يقدسون الشيوخ ولا يقدرون على مجادلتهم . يذهبون لقبر النبي، ويدعون الله الذي خلق الكون كله قبل ولادة النبي بمليارات الأعوام، بل يقدسونه أكثر من الله، ويستبيحون دماء كل من تسول له نفسه أن يقلل من شأنه، مع أن دينهم ينص على أن الإسلام أعظم من أي شيء لأنه دين الله الذي كتبه على إبراهيم، أي أنه لا يقتصر على الرسالة التي أُنزلت على محمد -صلى الله عليه وسلم - لكنهم كعادة البشر منذ الأزل، يفضلون أن يتقربوا لله بما يستطيعون فهمه أكثر من ذاته التي أخفاها عن العالمين. فيكون قويَّ الإيمان بينهم، من شدة ورعه وتقواه، يأتيه النبي في منامه. لكنني سأعترف لكِ بشيء، أنا يأتيني الله في نومي ويتحدث إليَّ، لا يمكن أن يحاسبني أحد

على رؤياي ويقولوا كيف لي أن أجرؤ على قول شيء كهذا؟ !
لكنها حقيقة تحدث معي دائماً منذ صغري . لا يأتيني أنبياء ولا رسل، ويتجلى لي بصوت عذب، من خلقهم وخلقني.

إذا أحبني الله بشدة لكي يتجلى لي حقًّا بصوته ويتحدث معي، هل أعتبر هذا الحلم من الشيطان، أم أن عقلي اللاوعي قد خلق الله لأنه احتاجه بشدة، أو لأنه أحبه بصدق؟ ! وإذا كان الشيطان لا يستطيع أن يأتي في صورة النبي، هل يستطيع أن يأتي في صورة من خلق النبي؟ وإذا كان الله يتحدث معي حقًّا، فماذا تعني تلك الرؤى؟ ربما الإجابة الصحيحة، هي أن الله يكمن بداخلي، ليس أنا فقط، لكنَّه يُعرف فقط، لمن عرف ذلك، بدلًا من تقديس البشر المنزلين والأديان المختلفة، ويبعدون أكثر عن كون الله أقرب ما يمكن للإنسان في حقيقة الأمر.

كثير من المسلمين لا يبالون بدماء أي إنسان طالما لم يؤمن بنفس ما يؤمنون به، ويكون مصير أي شخص يحاول هدم الأصنام التي صُنعت بعد موت الرسول بقرون، مثل مصير من ينتقد الدين، بعد أن تركه. لكنهم لا يفهمون الفرق بين النقد والانتقاد، فعندما يكون شخص منغمس فكريًّا في مجال ما، ويجد به أخطاء يريد أن يجعلها أفضل، فينقده، ليس كالذي

يكره شيئًا فينتقده، لأن النقد يكون عن دراسة في المجال، ويكون على أسس وأسانيد، ليساعد في تطوير هذا المجال، أما الانتقاد، على عكس النقد، لا يكون عن دراسة حقيقية، ويهتم فقط بإظهار السلبيات. أي أن النقد هو إظهار للإيجابيات، بينما الانتقاد هو إظهار للمساوئ... مع الأخذ في الاعتبار اعتراضي على استباحة دماء هذا أو ذاك؛ لأن اعتقادات البشر المختلفة هي التي تخلق روحًا للحياة ولا يمكن حكرها على نوع واحد، وإلا نكون قد ضربنا بطبيعتنا عرض الحائط، وخالفناها.

لا أفهم أبدًا لماذا يقتلون باسم الإله ! أهذا ما يريده؟ أيؤلمه عدم إيمان أحدهم به، فيرضى بأن يقتله شخص يؤمن به، دون أن يعلم أنه كان سيؤمن به يومًا؟ أخلقنا وأنزل أديانًا كي يقتل كل منا الآخر باسمه؟!

يعتقد البشر منذ الأزل أن الفلسفة كفر، لأنها تتطلع لكل ما يخافون منه، وهو استخدام العقل في التساؤل عن أشياء، تبدو في حينها وكأن ليس لها إجابة، فتصبح هرطقة وضلالًا لمن يشعرون بالأمان في كيانهم الصغير الذي اقتنعوا أنه مركز الكون كله.

ولكن الفلسفة ليست إلا طرح الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها بالتأمل. مثلها مثل أي علم، يكتشف هذا نقطة، وبعد موته يكتشف آخر نقطة أخرى بعيدة عن الأولى، وبعد موته أيضاً يكتشف آخر كيف يرسم خطًّا مستقيماً باستخدام هاتين النقطتين، فيكون اكتشافاً. لولا التساؤل لما ظهر علم، ولما عشنا الآن نفس تلك الحياة، بكل الآليات التي نمتلك، ولما عرفنا الكون. فأول من تساءل عن ما هو الكون، وما هي الأرض، وما هو الإنسان، ولماذا هو موجود في هذا المكان؟ لم يكن إلا فيلسوفاً، لكن قلة ظهورهم في كل عصر يجعل منهم فريسة لمجموع التابعين الذين لا يريدون بينهم من يتساءل عن أكثر مما يعرفون.

سأحكي لكِ قصة. تخيلي معي أنه كان هنالك زمان بعيد، به الوثنيون كثر، والمسيحيون الذين اعتنقوا الديانة الجديدة على الأرض ذوو نفوذ وثقة بما آتاهم . كانوا جميعاً يعيشون في سلام. ربما يضايقون بعضهم البعض بكلمات، ولكن لم تكن هناك دماء في الطرقات بين بيوتهم . وفي يوم من الأيام تطاول المسيحيون على آلهة الوثنيين، فراحوا يضربون تمثالاً، ويستهزئون به، ثم يسألونهم عن قدراته، ولماذا لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟ فعمل كبير الوثنيين على حث شعبه على

الانتقام من هؤلاء الفجرة بقتلهم لكي يأخذوا حق آلهتهم ويموتوا في سبيلها، كي ينعموا بعد الموت. فهلل الجمع ”كما يفعل دائمًا أي جمع“، وذهبوا يقتلون هؤلاء، وأصبحت الشوارع مليئة بالدماء . فرد عليهم المسيحيون بأسلحتهم، وقتلوهم وكسّروا أصنامهم، وهدُّوا معابدهم فوق رؤوسهم، وذلك أيضًا لأنهم من على حق وسينصرهم المسيح. فما باتت المدينة إلا خرابًا وبحر دماء، بين من كانوا في الصباح جيرانًا وأصدقاء.

فكري الآن وأنا أحكي لك ذلك، أنك لا تؤمنين بدين أي منهما، فستشعرين تلقائيًّ بأن كلا الطرفين أغبياء، وبأنهم كلهم في النار، وأن كل هذا كان محض عبث. ولكن إن كنتِ مع أحدهما، فستشعرين بأن من آمن معهما كانوا على حق، فهم غاروا على دينهم كأي مؤمن تقي، وكان من الواجب عليهم أن يثأروا من أجل ربهم. أليس كذلك؟

هكذا هو الإنسان يا عزيزتي، هو وحده من يملك الحقيقة المطلقة، هو وحده من يكون الرب في عونه على أعدائه، هو وحده من يغلق عقله على أي حقيقة تحمل في طياتها أنه ومن عاداه في الأصل واحد فيتقبله. في يوم من الأيام كان يتباهى اليهود بكونهم شعب الله المختار الذي اصطفاه على العالمين، وقتل أطفال المصريين جميعًا من أجلهم، ودمر من

البشرية كثيراً لكي يحميهم وحدهم. وعندما أتى هتلر بجيوشه ليقتلوهم ويحرقوهم ويذيقوهم العذاب، كان يرى اليهود شارات قاتليهم، محفوراً عليها جملة "الله معنا"، لأنهم كانوا أيضاً مؤمنين أنهم أبناء الرب المختارين. فمن كان الرب في صفهم حينها فعلًا؟ الإنسان كائن مغرور جدًّا، والفيلسوف كائن حائر جدًّا، بحيث لا يجد بوسعه إلا المشاهدة من بعيد، ليحلل طبيعة الإنسان ويكتشف ذاته وعالمه أكثر، دون انحياز لأي جهة، دون الكره لأي مختلف عنه، لأنه لا يعرف إلا أنه في الحقيقة لا يعرف أي شيء!

الفطرة كما تحتم علينا معرفة الله، هي أيضاً تحتم علينا فرض الإنسانية بيننا والحكم بدون عدة موازين، بل بميزان واحد لأننا كبشر في النهاية واحد لا محالة .. الناس ليسوا بحاجة لمن يدعوهم إلى الدين، بل بحاجة ملحة وشديدة لمن يدعوهم إلى تعاليم الإنسانية..

الناس ليسوا بحاجة لأن تحدثهم عن الملائكة والشياطين، بل عن الشر الذي يسكن داخلهم، وعن الخير الذي يُقتل فيهم مع ولادتهم، بنشأتهم على حب النفس، أكثر من أي شيء آخر .. الناس ليسوا بحاجة لتقول لهم إن الخمر حرام، وأن الحجاب ضرورة أكيدة؛ حيث يولِّد الشعر في حد ذاته شهوة جنسية

عظيمة! بل هم يحتاجون بشدة لمعرفة أن السبَّ واللعن والحكم على الآخر يجرح مشاعر الآخرين ولو تظاهروا بغير ذلك. وبأن تكفير الآخر كفر في ذاته، وبأن الحب هو الإنسان، وإذا كفر الإنسان بتعاليم دين إنسانيته أولًا، لن يكون له دين مطلقًا وإن التزم بمظاهره التي لا تُغني ولا تُسمن من جوع!..

إن كان ديني يحرض على القتل والكراهية، لن تستوعبه إنسانيتي أبدًا؛ لأنها ستظل أقوى من شهوة دخول الجنة وإن كانت على تعاسة ودماء الآخرين. منذ عرفت معنى الإنسانية، والأخلاق التي نولد بها، ونعرفها بفطرتنا، لم يستطع أي دين أن يشملني. آمنت بكل الديانات، أو بكل جيد ذكر في أي دين، لأن العقل يقول إن الله لم يخلقنا إلا لفعل الخير، وليس للتصارع وسفك الدماء، تحت شعار "نحن في الجنة وأنتم في النار"!

يعتقد بعض الناس أن الأديان هي الوحيدة المشرعة للأخلاق، وأنه بدونها سيعيش الإنسان كالحيوانات تمامًا، ومع أنني لست مع إنهاء الأديان كالملحدين، لكن هنا نحن نقف أمام معضلة إنسانية، يجب مواجهتها بالحقائق . فالأخلاق فطرة إنسانية، وجدت ووضعت قوانينها قبل نزول الأديان الإبراهيمية كلها بآلاف السنين.

الشر أيضًا والخروج عن الفطرة والاعتداء على حقوق الآخرين وعدم الأخلاق، موجود في كل المجتمعات المتدينة وغير المتدينة على حد سواء، "بدون التطرق لنسب، تثبت من منهم أقل أخلاقًا من الآخر، لأن نشأتنا، والأجواء المحيطة بنا هي ما تخلق مجتمعات سوية أخلاقيًّا أو منحدرة أخلاقيًّا كذلك، وليس وجود الأديان من عدمه".

على سبيل المثال لا الحصر، كان سقراط، ذلك الفيلسوف الذي عاش بين (469 ق.م -399 ق.م) قد قال إن الفضيلة علم والرذيلة جهل. وقد اعتبره التاريخ أول مؤسس لعلم الأخلاق، ومع ذلك، كان في عصره غير محمود، لأنه كان ضد العادات والتقاليد التي اخترعها أناس مرتاحون في قبورهم. كان أيضًا يحارب بضراوة السفسطائيين، الذين كانوا يحملون أفكارًا هدامة لقيم المجتمع اليوناني في حينها. لكنها طبيعة البشرية، أن لا تقدر من يقف في الوسط حاملًا شعلة نور للمتطرفين من أقصى اليمين وأقصى اليسار ليتحدوا سويًّا. فمات بعد أن حُكم عليه بالإعدام، ولكنه قد خلف لنا أوائل الفلاسفة الذين وضعوا كثيرًا من الأمور في نصابها وبشكل أوضح وأكثر تنميقًا .

وقد كان أفلاطون -أول مؤسس لمدرسة فلسفية في التاريخ - تلميذًا لسقراط، تلك المدرسة التي تخرَّج فيها أرسطو، وهو أول

من وضع علم الأخلاق بشكل ممنهج. قد عرَّف الفضيلة، بأنها تقوم قوى الإنسان بأداء وظائفها بشكل سليم، وبأنها مهارة عقلية يتمتع بها الإنسان، والتي تجعله بفطرته يتعرف على الفضائل الأخلاقية . كانت الفضيلة عند أرسطو هي الأخذ بأوسط الأمور، وهذا يا صغيرتي ما حاولت أنا فعله طوال حياتي، بين أناس لا يستطيعون رؤية أي شيء وسط فيما بينهم، بسبب العمى البصيري الذي تسببه الكراهية!

مشكلتنا كبشر هو أننا عندما نشعر بالبرد القارس، نتمنى النار نفسها، علّها تدفئنا. من أقصى لأقصى، هكذا طبيعتنا. كما للثلج عيوب، للنار عيوب، لن نتمنى الابتعاد عنها، إلا إذا غصنا في وسطها، لنرجع نطلب الثلج من جديد. لماذا هو صعب أن نتمنى غرفة معتدلة الحرارة، ونسعى للوصول إليها، عندما نكون في الثلج أو النار، باستخدام عقولنا البشرية، وكفانا إعادات مملة وكارثية للتواريخ كلها؟!!

القوانين الحاكمة للإنسان هي الرادع الأساسي لنشوز البعض عن فطرته الخيّرة. في أي مجتمع، إذا أزلنا القوانين والدساتير و الشرطة القائمة على مراقبة مدى التزام الناس بتلك القوانين، ستحل الهمجية والعشوائية في المجتمعات بشكل بشع. هذا ما نراه بأم أعيننا في دول العالم أجمع، بدون قانون رادع لا

يستطيع عامة الناس الالتزام، مهما كانت أديانهم، وهذا هو الواقع الذي لا جدال فيه، إلا إذا كان المجادل أعمى حقًّا!

ربما يشعر المرء إذا ترك دينه، أن بإمكانه شرب الخمر دون الشعور بالذنب، ولكنه لن يشعر بأنه أخيرًا لن يكون مكلفًا بمساعدة الآخرين، الذين يحتاجون مساعدته، أو أنه أخيرًا سيدخر المال الذي كان يخرجه لوجه الله، لأن الإنسانية ليست مرتبطة بالدين، إلا إذا كان الشخص أصلًا لا يملك منها شيئًا، فعندما كان مؤمنًا كان يخرج قليلًا جدًّا من المال كرهًا، أو ربما يفعل ذلك فقط عندما يستطيع مراءاة الناس بما فعل. إن كان خيرًا في نفسه، ويقدّر احتياج الناس لبعضهم البعض، فلن يفرق معه أن يذهب إلى الجنة على حساب المساكين والفقراء، لكن سيفعل ذلك لأنه يعلم أنهم مثله تمامًا، وأنه إذا وُضع في مكانهم، كان ليتمنى أن يجد من يساعده!

لذلك، أتعجب من الذين يتركون أديانهم، فينادون بأن جميع الناس يجب أن يكونوا مثلهم، ثم يتمردون على كل القوانين التي تحكم الإنسان، دينية كانت أو غير دينية.

بدون القانون يعيث الإنسان في الأرض فوضى، وهذه هي طبيعته. نحن نعيش في دولة تكثر بها الهمجية أكثر من أي شيء آخر، فما ضرُّ الملحدين أن يؤمن الأغلبية بأن هناك ما

يخافون منه بعد موتهم، كي يقلل من حدة همجيتهم؟ إذ إنهم هكذا، وهم يعرفون أن هناك إلهًا سيعذبهم بأخطائهم، فما بالك إذا أقنعته أنت بأنه ليس هناك إله ولا عذاب!!

إن كنت قد قرأت أي تاريخ يومًا؛ فستعرف أن العامة لا يحتاجون إلا للأديان، كما للقوانين الدولية الرادعة، وأنك لن تستطيع أن تخلق مجتمعًا غير ديني كاملًا، يحترم الإنسانية بدون عقاب. إذا كنا لن نمتلك قوانين، فاترك لهم دينهم ليعطي أملًا واحدًا لهم في نفس الوقت، فليست الأغلبية يقتلون باسم الدين، بل فقط يريدون أن يعيشوا بسلام وهدوء، فاتركها لهم كما عرفوها، ولا تتعامل مع اعتقادك على كونه دينًا تبشيريًّا آخر، يجب نشره ليعم الخير والسلام، فلا أحد نجح في ذلك قبلك إلا وأتى للأجيال التي تليه بالكره والخراب، مهما كانت نيته سليمة!! أولم تقرأ التاريخ يومًا؟!

إن الأغبياء فقط هم من يعتقدون أن القواعد والقوانين يجب التخلي عنها تمامًا، ليصل الإنسان لما يريد بكل حرية. لو كانت كذلك لما وضعناها لأنفسنا من البداية. بل إنني أجدها الجزء المرح في حياتنا؛ حيث إنها تمثل العوائق التي يستمتع بوجودها الإنسان ليصل رغمًا عنها إلى ما يريد . فالإنسان، ذلك الكائن المعقدة تركيبته، لا يستطيع العيش إذا كانت الحياة بلا أي

عوائق، وكأنه لا هدف ولا سبب لها من الأساس. الذكاء هو أن تكون حرًّا في وجودها، وأن تستطيع الوصول، رغم وجودها وتطبيقها أيضًا، لما يرضيك وما تتمنى.

نحن نولد بضمير حي، يمكن لمجتمعنا أن يقتل معاني قليلة به على حساب معاني أخرى، يعطي لها تركيزًا وأهمية أكثر. عندما يكون الطفل صغيرًا جدًّا، ولا نستطيع أن نخيفه من عذاب الله لأنه لا يفهم، هو بطبيعته يخاف غضب أمه، ويحب أن يرضيها بدون فهم كامل منه لماذا تريد هذا أو ذاك، وتغضب من هذا وذاك. وعندما يكبر قليلًا بضمير حي غير مشوه، يشعر بمشاعر الآخرين، عرفهم أو لم يعرفهم، فلا يستطيع مثلًا أن يسرق مال شخص آخر؛ لأن أول شيء سيخطر بباله، أنه لربما احتاجه جدًّا، وسيتسبب له هذا بمشاكل كالتي تحدث معه أحيانًا. سيشعر بمشاعر الآخر، قبل أن يتحدث عنه بسوء، فلربما لم يقصد ما حدث كما ظهر له من الخارج، فلماذا يسوِّئ سمعته بين الناس وهو شخص جيد بالفعل بداخله؟! لكنه فقط لا يعرف، كما لا يعرفه أناس كثر، ويعتقدون فيه ما ليس فيه، فيتأثر بذلك لأنه بعيد كل البعد عن فهمهم الخاطئ له؟

الرادع الحق الوحيد للإنسان هو التربية الإنسانية السوية، التي تجعله يعرف أنه لا يقطن هذا العالم وحده، وأن مشاعر

الآخرين مهمة تماماً كمشاعره، ويحدث هذا عندما ينشأ منذ طفولته بين أناس يهتمون لما يشعر به بحب، وليس بخوف أو ترهيب..

الخوف والحب لا يجتمعان أبداً يا صغيرتي .. أنا عندما كنت أخاف أبي كثيرًا، كنت لا أستطيع أن أعرف معنًى لحب الأب. لكن عندما توقفت عن الخوف منه، استطعت رؤيته من الداخل، والشعور بكلمة حب تجاهه، وإن لم تكن قوية..

إن من أساطير المتدينين، أن يقولوا بأنه من الأفضل للملحدين أن يؤمنوا بالله، لأنهم إذا ماتوا ولم يجدوه لم يخسروا شيئًا، ولكن إن ماتوا ووجدوه فقد كسبوا آخرتهم. أي إيمان هذا الذي يبنى على الخوف والأخذ بواجب الاحتياط، أي إيمان هذا الذي يمكن لشخص أن يتصنعه كي يتقي عذاب الإله، إن وجد؟ ! إن هذا ليس إيمانًا، بل معادلة حسابية فاشلة . من عجائبهم أن يقولوا لأي شخص ينتقد الدين، إنهم بذلك سيؤثرون على ضعاف الإيمان والقلوب. إذ أي إيمان هش يكون ذلك الذي يخاف من النقد وأحاديث غير المؤمنين؟ أثبّتناهم على وضع محدد ونعرف أنهم هشاش بداخلهم، فنخاف عليهم من نسمة ريح إذا تأتي تزلزلهم، ثم نفتخر بهم وبعددهم أمام الغرباء، الذين لا يعرفون ما في قاع آبارنا، ونسمي هذا إيمانًا؟!

أيكون المؤمن مؤمنًا إذا لم يفكر أبدًا ولم يتلقَّ الضربات أبدًا، ليثبت على إيمانه؟ أيكون المؤمن مؤمنًا إذا ما كان مغيبًا أعمى البصر والبصيرة بما أملوه عليه من يوم ولادته، حتى يخافوا عليه من كلمات لم يسمعها من قبل لأن لديها القدرة على أخذه بعيدًا عن القطيع وسيقلل هذا من عددهم واحدًا؟ ! أيكفي الله، أن يكون المؤمن لا يعرف شيئًا، كي يستحق الجنة؟! أين الاختبار هنا، وأين هو الإيمان أصلًا بدون اختياره؟! إذا كنت أعبدُ الله لأنني أخاف منه فقط، فلن أكون مؤمنة أبدًا . فالإيمان هو الحب، وإذا أحببت الله حبًّا عميقًا خالصًا، لن أخاف منه، بل سأخاف من أن لا أكون على قدر مسؤولية هذا الحب، أي سأطيعه لأنني أحب أن يكون راضيًا عني، وليس لأنني أخاف من النار التي أعدها لي من قبل أن يخلقني . سأعبده لأنه يستحق أن يُعبد، لا لأنه يحتاج ذلك، أو لأنني طامعة في جنة ما، لكي أحتاج للأخذ بالاحتياطيات، التي تجعلني أؤمن خوفًا من أن أكتشف بعد الموت أن عدم إيماني كان خطأً، لأنه ما من خطأ أفجع من هذا!

أحب الله حبًّا ليس كحب المؤمنين لدينهم، وليس كحب الجاهلين لجهلهم، وليس كشوق الصالحين لجنةٍ، وليس كخوف التائبين من ملاقاة عذابهم . أحب الله حبًّا غير مشروط، فأنا

أحبه لذاته، لأني أعرف أنه موجود، ولأنه يستحق ذلك، ليس لأنني أخاف من أي نوع عذاب، أو أريد الذهاب لحدائق أبدية، آكل فيها وأتنعم...

إذا كان الله يحبنا كالحب الذي وضعه في قلب كل أم لطفلها، فيالا حظّنا أننا قد خُلقنا!! وإذا كان خلقنا ليحكم بيننا بالعدل، فيالا حظنا أيضًا، لأن عدله لن يكون أبدًا كعدل الأرض. فهو من خلقنا بطبيعتنا وعقلنا المعذب وأرواحنا المنهكة، وحكمه لن يكون بقسوة حكمنا على بعضنا البعض . وهنا يأتي سؤال، يسأله الملحدون، أو من هم في شك من أمرهم، على أية حال، فيقولون: إذا كان الله مطلق القدرة، فهل يستطيع أن يخلق شيئًا أقوى منه؟ إذا كانت الإجابة بنعم، فلن يصبح هو الأقوى في حينها، وإذا كانت الإجابة بلا، فيكون في الأساس ليس مطلق القدرة!!

و أنا أرى أن صيغة السؤال أصلًا غير صحيحة تمامًا...

الله خالق القدرة، فإذا خلق شيئًا، فلن تتعدى قدرته اللا محدودة أصلًا، لأنها لا تملك نهاية لكي يخلق ما يتعدى تلك النهاية. هنا يحكم السائل بمقاييس قوانين فيزيائية تحكمنا نحن البشر الفانين، محدودي القدرة، والذين لا تعي عقولنا سوى أن لكل شيء نهاية، فلابد من بداية ونهاية للخالق أيضًا.. هنا إذن

الإجابة بنعم، يستطيع خلق ما هو بمثل قدراته، ولكن سيظل هو الخالق، والآخر المخلوق، حتى ولو امتلك صفاته...

يستطيع الإنسان أن يصنع إنساناً أليًّا مقاتلًا من حديد، يفوق حجمه حجم الإنسان ثلاثين مرة، ويستطيع سحق الإنسان الأضعف منه دون أن يشعر حتى. لكن سيظل هو مصنوعًا بيد البشري العاقل مطلق القدرة بالنسبة له، لأن الآخر سيكون طوع يديه، وليس حاكماً عليه!

صنع الإنسان الحاسوب على صورته، كما خلق الله الإنسان على صورته، لذلك يعتقد الإنسان أحياناً في نفسه الألوهية بشكل مباشر، وغالبًا يظن في نفسه ذلك، ولكن بشكل غير مباشر وبدون إدراك!

يعمل الحاسوب بنفس طريقة عمل العقل البشري تمامًا، حيث يحفظ المعلومات بنفس الطريقة في ملفات منفصلة، كل ملف يحوي ملفات تعنيه أصغر فأصغر بشكل منظم، لتسهيل إيجاده عند احتياجه والبحث عنه. يملك برامج تعمل قوانين الرياضيات والفيزياء المعلوماتية المسجلة مسبقًا كما الإنسان...

خلق الإنسان الحاسوب، برغم أنه عاش ملايين السنين دون الحاجة إليه، ولكن عندما حان الوقت، قد صنعه لأنه يستطيع

ذلك، أو لأنه يريد، فلا نستطيع أن نحكم خلق الخالق لنا، لأنه يحتاج لنا ولعبادتنا، فنسأل ما الفائدة من ذلك!

ولكن هنا تظل نقطة، هل خلق اللّٰه الإنسان ليتسلى بشقائه على الأرض؟

هنا يكون الفيصل بين الإيمان المتوارث عن إجابات سهلة، وصلت إلينا عن الأجداد، وبين من يبحث عن إجابته بنفسه. لأنك لا يمكن أن تكون شخصًا مؤمنًا إيمانًا تامًّا، بأن اللّٰه غنيٌّ عن عبادتنا، وخلقنا فقط لنعبده في آن واحد، وأنت في كامل قواك العقلية. لا يمكن أن تؤمن بأن اللّٰه أعظم من أن يخلقنا ليتسلى، ويشاهد حياتنا اليومية على الأرض، حتى نأتيه في النهاية ليعذبنا، أو يضعنا في جنة أبدية، بينما تؤمن أننا كبشر ضعفاء إلى أقصى حد، رغم غرورنا، فمن أجل أنانيتك تفترض أنك وحدك من يجوز عليه الرحمة لأن الخالق عظيم يحبك، وسيدخلك الجنة إن اخطأت، بينما تفترض أن من فكَّر خارج حدود صندوقك، أو ولد لأبوين على غير دينك بالصدفة، لن يُقبل منه، وسيعذب إلى أبد الآبدين، وتفترض أنك بذلك طبيعي الفطرة!!

إن اللّٰه في كل شيء، ليس في السماء، اللّٰه في عقولنا وقلوبنا وبداخلنا. هو في الزهور والرياحين والنجوم والشموس وفي

الهواء وكل الطبيعة. إن أعطى لنا مشاعر نشعر بها نحو من نأتي بهم إلى الدنيا، تجعلنا نحبهم برغم أي شيء هم عليه، ونغفر لهم أي شيء، لأنهم منَّا، وصفاتهم قد ورثوها منَّا في الأساس، فنتفهَّمهم أكثر من أي شخص آخر، ولا نحاسبهم على ما وضعناه فيهم بأيدينا، سيكون كذلك تمامًا معنا.

لا، لم يخلقنا ليعذبنا للأبد، ولا لأن يتسلى برؤية سيناريو قد وضعه لنا مسبقًا.. ولكننا وبعقولنا وأنفسنا من أعجب عجائب الخلق، ومن أروع ما هو موجود في هذا الكون الذي يتغنى به أبناء الصدفة الطبيعية. فإذا هم تفكّروا في أنفسهم، سيجدون أن بداخلهم كونًا أعظم من هذا الذي يرونه، وسيكتشفون عنه أكثر وأكثر كل يوم! هناك آية في القرآن تقول "وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" الذاريات ٢١. فإذا نظرنا في أنفسنا حقًّا، لن نجد متسعًا من الوقت لنتفكَّر في الكون الخارجي، لعظم هذا الذي يسكننا ولا نعرف عنه شيئًا، فكل الأسئلة إجاباتها بداخلنا، ولكننا نحن من نتكاسل عن طرح الأسئلة الصحيحة، وفناء أعمارنا في إيجاد الإجابات المناسبة.

عوضًا عن ذلك، تكون أسئلتنا طفولية وساذجة، يكبر معنا حجمها الكاذب كلما كبرت أجسادنا، بعد أن منعونا في طفولتنا من طرحها. وبمبدأ الممنوع مرغوب، تمسك بتلك التفاهات،

عقول ظنت في نفسها النضوج، فقط لأنها تمردت على جهل مجتمعاتها، ثم خضعوا لإجابات أخرى جاهزة أعطاها لهم الغرب، فصدقوهم لأنهم يبدون أفضل حالًا . اتبعوا، مثلما رفضوا يومًا اتباع إجابات أهليهم السهلة أيضًا، فها هو العالم أمامنا، إما هذا أو ذاك، فإما الانصياع الساذج للبصق على أكتافنا اليسرى، عندما تأتينا أسئلة الشياطين، أو الانصياع الساذج، لإجابات من هم مختلفون عنَّا تمام الاختلاف، لأنه لابد أن يكون نجاحهم العملي والاجتماعي مبنيًّا على تلك الإجابات، بينما في الحقيقة، كل تلك الأسئلة وكل تلك الإجابات من هنا أو هناك، لم نستخرجها لأنفسنا بأنفسنا، في كل الأحوال!

كل شيء في جسم الإنسان مصنوع بدقة متناهية، لا يمكن أن تسمح بفكرة أن تكون مجرد صدفة غير مخطط لها، وعدمية وبدون هدف. لكن بعض الملحدين يسألون : كيف يكون قد خلق الله الإنسان بتلك الدقة الشديدة، بينما هو في الحقيقة لا يتحمل أي شيء، وبكتيريا غير مرئية يمكنها القضاء عليه، وأن الطبيعة تطور مع الوقت أمراضًا وفيروسات جديدة، كي لا يستطيع جسم الإنسان مقاومتها؟ كيف يقتنع المؤمنون بأن الكون خُلق لهم وبأنهم معجزة؟

ولكنه تناسى -عمداً أو سهواً- أن كل ما يحيط بنا في الطبيعة يدل على أن الأرض خُلقت للإنسان، و إلا لكان بضعفه وتدخله في كل ما لا يعنيه من أوائل الكائنات المنقرضة. تناسى عند كل بحث علمي يقرأه، أن يتعجب من دقة تركيب العين البشرية، التي تشبه الكون نفسه، ومن تكوين المخ وإضافة عليه نكهة العقل البشري، الذي لا يملكه من الكائنات غيره. ووجود غطاء لهذا المخ، مكون من ست طبقات، ثلاثة أغشية رقيقة طباقًا، تحت عظم الجمجمة، وواحدة بينها، وبين الجلد...

وماذا عن نشأة الكون؟ لا نستطيع أيضًا أن نصفها بالصدفة، عندما نقرأ للعالم العظيم ستيفين هوكينج، ما يشرح فيه، أنه لو كان توسَّع الكون بعد ثانية من الانفجار العظيم، أقل بجزء من مئة ألف مليون مليون جزء، لانهار الكون على نفسه، قبل أن يصل إلى حجمه الحالي، ولو كان أكبر بجزء من مليون جزء، لكان توسعه سريعًا بشكل لا يسمح بتشكل النجوم والكواكب.. ربما جاء هذا في كتابه "التصميم العظيم "، الذي حاول فيه إرجاع نشأة الكون للصدفة البحتة، لأنه ملحد، وأنا لست بعالمة لأناقش العلوم. قد ذكر في صفحة ١٤٢ من نفس الكتاب، هذا النص، ليؤكد مغزى الكتاب، قائلًا : "طالما أنه يوجد قانون كالجاذبية، فالكون يستطيع، وسيقوم بخلق نفسه من لا

شيء ... الخلق التلقائي هو سبب وجود شيء بدلًا من لاشيء... ليس لازمًا أن نقحم إلهًا ليبدأ عمل الكون "... ولكننا نستطيع أن نرى بوضوح أن كل شخص يفسّر نفس الشيء على حسب معتقداته الشخصية، وكما قلت لكِ، إن الإنسان مكوَّن من قلب وعقل، إذا ما أعملتِ أحدهما وأهملتِ الآخر، أصبح أحد شقيك مائلًا.

هناك فرق عظيم بين العلم وفلسفة العلم . القوانين وعلم الفيزياء أشياء محايدة، لا تستطيع إقرار عدم وجود إله أو العكس. نفس القوانين التي استدل بها هوكينج لدعم إلحاده، استدل بها آينشتاين لدعم اعتقاده بوجود إله أعظم لهذا الكون، وتأكيد أن سبب ربوبيته، هو قوانين الفيزياء، والطبيعة، ونشأة الكون. فتلك القوانين ببساطة، هي طريقة الله في خلقه، وهي التي تساعدنا في التعرف عليه، إذا ما كان قلبنا حيًّا. ثم إنه من أوائل الاكتشافات الفلسفية على الإطلاق، في تاريخ البشرية، هو أن الفكرة لا تأتي من العدم، وطالما أن فكرة إله خالق موجودة، فلا يمكن أبدًا نفي وجوده، لوجود الفكرة في عقل الإنسان الأول، الذي صاغها على شكل أساطير وآلهة اختلقها من وحي الطبيعة التي تحيط به، في كل الحضارات.

الحقيقة العلمية التي أثبتت أن الأرض لا تساوي ٠.١ من الكون، من الممكن أن تؤخذ بوجهتي نظر مختلفتين تماماً . فيقول ملحد إنه ليس من المعقول أن يكون هناك إله قد خلق كل هذا الكون، الذي لا تعد الأرض فيه حبة رمل في أكبر صحراء عرفتها البشرية، ثم يهتم هذا الاهتمام البالغ بالكائنات الحية الصغيرة جدًّا التي تسكنه. وأقول أنا، بالرغم من أن اللّٰه قد خلق كل هذا الكون العظيم، قبل خلق البشر، إلا أنه قرر أن يخلق كائنًا ليكون خليفته في تلك البقعة الصغيرة، ورغم حجمه الصغير، إلا أن به ما لا يوجد في العالمين، النفس. نفس تعتقد في ذاتها الألوهية، رغم ضعف الجسد الذي تسكنه، فيختبر هذا الكائن قليل الحيلة، الذي يملأ قلبه الكبر، أن يعرف قدر نفسه الحق، ويعرف حجمه الحقيقي في ملكوت اللّٰه، ويكسر ذلك الكبر في جميع أشكاله، حتى لو كبر بأن يظن بإيمانه أنه أفضل.

إن معرفة الإنسان بضآلة حجمه في الكون، وبأنه مجرد رقم واحد وسط مليارات، هو المفتاح ليتغلب على كبره .. فنحن البشر خلقنا من اللّٰه، وبنا جميع صفاته، ونحن من نتحكم في انتقاء بعضهم على بعض.. وبنا صفة الكبر ضارية بداخلنا، وهذا ما يجعل الاختبار صعباً، لأنه من الممكن لأي إنسان إذا صدق

نفسه، أن يعتقد بأنه إله . هذا الإله بداخلنا جميعًا، وإن لم نسيطر عليه ونواجهه بحقيقة أنه ليس كذلك، ولن يكون، فسيتحكم بنا ويجعلنا ننازع الله في صفة، لا يجب أن يملكها إنس ضعيف الجسد...

في بداية الخليقة، وقبل أن تحدث أول عملية قتل بين البشر كان هناك اثنان، طلب الله من كليهما تقديم قربان له، فواحد أعطى أفضل ما عنده والآخر أعطى الفائض والتالف . بطبيعة الحال، قبل الله القربان الجيد، ولكن الآخر رأى في ذلك تفضيلًا وتفرقة، وكأنه لا يعي ما فعل، ولا يدرك أنه لم يعطِ الله حق قدره... هكذا يحدث معنا كل يوم، ولطالما كان هذا هو الاختبار الذي يجب أن نتخطاه في سلام ليتقبلنا الله عنده...

المعجزة الحقيقية من وجهة نظري، ليس التكوين الدقيق للإنسان والكون كله، بل أن يكون الإنسان أضعف مما يكون، ويعيش فوق كوكب يعتبر من أصغر الكواكب، واصطدام أي نجم -ممن نمعن النظر إليه في السماء- أكبر من حجم الأرض به يكفي لإنهائه تمامًا. لكن مع ذلك، ورغم معرفة الإنسان جيدًا بكل ذلك، إلا أن به صفة يختص بها تضاهي صفة العقل ولغزه بكثير، وهي الكبر .. كلنا كذلك، مهما تواضعنا، نمتلك غريزة عجيبة مرتبطة بالأنا التي شرحتها لك من قبل، وهي أننا

نرى في أنفسنا آلهة، يحاول الجيِّد منَّا أن يخبئها خلف التواضع، ولكن ذلك التواضع يجعل الآخرين يبجلونه أكثر فأكثر، فيعجبه ذلك فيتمادى. فالإنسان حقًّا أكثر الكائنات إعجابًا وإجلالًا لنفسه، يسعى دائمًا للمجد بأن يقدسه الآخرون، يأتي باعتقاداته ويصرِّح أن من دونها وحدها ستفنى البشرية، ويكون مصيرها الهلاك دنيويًّا، وما بعد ذلك، إذا آمن بها...

لا نستطيع، لأننا نعيش في زمن ثارت فيه الناس على فكرة وجود خالق للكون، أن نقول بأن كل الذين أخلفونا لم يكونوا يملكون أي قدر من الذكاء! تعددت الديانات والعقائد، ولكن الأصل في الإنسان بفطرته التي خُلق عليها، والتي يكذِّبون وجودها، أن يعرف أن هناك خالقًا عظيمًا . نحن نعلم أن لنا عمرًا واحدًا، قصيرًا كان أم طويلًا سيقضي وينتهي، ولكن لنا أرواح تأبى بشدة أن تفنى، ولا يمكن لهذا أن يكون محض صدفة أو مجرد حلم بعيد المنال. ما أن تكون الفكرة موجودة لدينا، تكون في نفس الوقت ذو جذور حقيقية، وقابلة للحدوث. مثل أن كل شيء يخترعه الإنسان، كان في وقت ما مجرد فكرة أو حلم، لكننا تأكدنا أن مجرد وجود الفكرة، يعني أنها موجودة بالفعل أو ستوجد . لكن الملحدين يريحون أنفسهم بقول إننا بعد موتنا سنكون كما قبل أن نولد تمامًا، لا شيء. ألا

يبدو هذا بعيداً كل البعد عن الفلسفة وعن فطرة الإنسان؟! ثم من قال إنك أنتِ مثلًا لم تكوني موجودة قبل أن تأتي بجسدك إلى عالمي؟ أنا أعرفك من قبل أن أقابلك وجهًا لوجه، بل ومن قبل أن أقابل أباك أيضًا!

أعرفك وأتحدث معك وأتخيلك. مجرد وجودك في خيالي يوماً، كان هذا وجوداً كافيًا لك.. وها أنا الآن، مثل ما كنت أنتِ يومًا، مجرد فكرة، في عقلك، تحول دون محوي من العالم، وإن لم أكن فيه حقًّا.. نحن لسنا أجساداً تتكون في الأرحام وتتحلل في القبور، نحن الوجود نفسه، وموتنا لا يعني انتهاءنا، وإلا كان وجودنا مجرد عبث، لا يعني أي شيء حتى لنا أنفسنا...

قررت منذ زمن أن لا أعلّمك أيًّا من الأساطير التي تعلمناها نحن في صغرنا وختموا بها على عقولنا قبل أن نعي أي شيء. لم أعلمك تلك التخاريف، مثل غلق الفم عند التثاؤب لكي لا يبول الشيطان في فمك، وكأن أي عقل يصدق هذا، لن يتلبسك الشيطان! إذا دخلتِ دورة المياه بأي من القدمين . لن تجري وراءك بقايا الطعام إذا ما أنهيتِ وجبتك، ولن تُعلق السافرة من شعرها في النار وكأنها لم تكن سوى شعرها، وكأن الدين هو قماش فوق الرأس!...

والسقف الذي يواجهه حذاء مقلوب، لا يمثِّل وجه الله. وأن الله لا يفكر بسطحية عقول البسطاء . أخلق جل جلاله العقول المفكرة والعالمة والمخترعة والخارجة عن المألوف، ليكون تفكيره بتلك الضآلة؟! علّمتك أن تعبدي الله، لأنه يستحق أن يُعبد، ليس لتدخلي جنة أو تتجنبي نارًا. فنحن البشر ضعفاء في ملكوته، كما النمل في ملكوت البشر، عددًا غزيرًا وأحجامًا ضئيلة، لا نملك من أمرنا شيئًا، وهو العزيز الرحيم الذي يحبنا ويريدنا أن نعي مدى فقرنا وضعفنا تجاهه، ونواجه أنفسنا بذلك لنكسر فينا الروح، التي تجعل البعض منا يعتقد بأنه نصف إله، وبأنه يملك العالم في يده..

علّمتك منذ طفولتك، أن تميِّزي بين الثقة بالنفس والثقة بالروح. فالثقة بالنفس مدعاة للفخر والغرور. أما الثقة بالروح، فهي سبب النجاح الأسطوري الذي لا يحققه سوى القلة، لأنها مدعاة للاتحاد مع العالم كله، بمعرفة أنك لست شخصًا واحدًا، يتميز عن الجميع بشيء ليعلوهم قيمة، بل إنك جزء لا يتجزأ من الكل، وأن الكل واحد، وأن قوتك الداخلية التي تستطيعين بها تحقيق كل شيء، لا تأتي، إلا عندما تتحد روحك التي هي جزء، مع روح العالم، الذي هو كل. أنتِ لستِ نفسًا اسمها حياة سيف العالِم، تفعل أشياء جيدة تدعوها للتفاخر بذاتها، لأنك إذا كنتِ

كذلك، فنهايتك ستكون أبدية حالما يذوب جسدك في التراب . أنتِ روح، تكونت قبل تلك النفس، ولن تذوب أبداً، وقوتها العظمى، تأتي من تحقير النفس وذاتها، وإجلال الكون، بكل ما ومن عليه، لأن الجميع منك أنت.

بدون فكرة وجود الله، لا يصبح لكل ما نعيش معنى، وتصبح تلك الأرض بما عليها محض هراء، ومزحة سخيفة، والأسخف هو الاستمرار فيها .. وإن آمنتِ يوماً بلا وجودية حتمية بعد الموت، لأصبح المنطق الوحيد المقبول هو عدم المضي قدماً، مع ازدياد المتاعب وثقل الأحمال على أكتاف البشر الضعفاء . حينها يكون الانتحار فكرة موضوعية جدًّا، حيث لا شيء يحمل هدفًا سامياً في كل الأحوال. العمر مُنتهٍ على أية حال، وكل ما فعلنا سنتركه خلفنا، ونذهب في أي وقت . إذن هي ليست إلا تحصيل حاصل، وتعجيله ليس إلا راحة، لأن هذا المكان بما فيه، ليس به ما يستحق عناء البقاء!

لولا وجود حياة بعد الموت، لما كان للحياة قبل الموت معنى.. فكل شيء ينتهي، فما فائدة أي شيء إن لم يكن مرتبطًا بما هو أسمى وأبقى؟ ما فائدة العمل وجمع المال وبذل الجهد، بعد أن يترك الإنسان كل ما فعل خلفه ويتحول إلى تراب، وكأن لم يكن له وجود أبدًا؟!.. ما فائدة الحياة برمّتها إذا كنا قد خُلقنا

فقط من أجل سنين معدودة، ونهايتها السريعة جدًّا لا مفر منها، ثم لا شيء بعدها؟! ذلك يتنافى تمامًا مع الروح البشرية، ولا أستطيع تخيل بشر يتقبل أن تكون حياته كلها، ليست إلا تلك المزحة السخيفة التي نعيش، ثم لا يكون شيء !.. إذا يوم أنا صدّقت أن ليس هناك ما بعد موتي، فسأجلس بلا هدف، أفعل لا شيء، فأي شيء سأفعله إلى زوال على أية حال، أنا إلى زوال ومعي كل شيء فعلت . تلك الأرض نفسها ستزول، فلماذا نحن ولماذا نفعل ولماذا نتعب أو نحاول؟!

وعلى عكس ما يحاول دائمًا الملحدون، بوجود خالق عظيم للكون، بأن يثبتوا أن عدم الإيمان به لا يعني أنهم غير مرتاحي البال ومطمئنين، ألا إن الواقع يشير لعكس ذلك، فاعتراض الفطرة دائمًا ما يؤدي لهلاك الإنسان . كان هناك يومًا كاتب مصري مشهور يدعى إسماعيل أدهم، حضّر رسالة الدكتوراة في العلوم في موسكو، وعمل مدرسًا للرياضيات في أنقرة فيما بعد. عاد إلى مصر عام ١٩٣٦ وأشهر إلحاده . ألف كتابًا أسماه "لماذا أنا ملحد"، وعبّر فيه عن ارتياحه النفسي لهذا الاتجاه، وأنَّه مطمئن، كالمؤمنين بوجود الله تمامًا . لكنه انتحر عام ١٩٤٠، وترك في جيبه ورقة، يقول فيها، إنه فعل ذلك لزهده في الحياة ولكرهه لها!

هذه ليست حالة فردية، بل إن في أكثر البلاد انتشاراً للإلحاد، توجد أكبر نسب للانتحار . هذه النقطة لا تؤخذ عليهم، حيث نصفهم تماماً بالمختلين، ولكنهم فقط نسوا جزءاً مهما جدًّا في تكوينهم البشري، وهو أن في فطرتهم وعقلهم يوجد إله، ولو لم تكن تلك الفطرة موجودة، لما أنشأت آلاف الأديان وملايين الآلهة التي يستهزؤون بها على الأرض، بل إن وجودهم مؤشر قوي جدًّا على وجوده لأن الفكرة لا تأتي أبدًا من العدم، فقط يجب إعمال القلب، إذا ما كان العقل عالماً بما يكفي، ليحدث ذلك التوازن الذي يحتاجه الإنسان!

حتماً تلك الروح التي بداخلنا لن تسمح بأن تُمحى كما التراب الذي منه الأجساد! حتماً لسنا إلى زوال، وإن كانت أجسادنا كذلك. وبالطبع، كل ما نفعل من خير أو شر مربوط بهدف أعظم، ووجهة محددة، وتأثيره لن يزول إن زالت الأجساد، فالروح باقية لا محالة، وإن قبلنا بعكس ذلك، فقد قبلنا أن نكون حيوانات، وإن قبلنا أن نكون لسنا أرقى منهم في شيء كهذا، فلنقبل أن نعيش مثلهم، بلا هدف، نأكل ونشرب، ونتكاثر وننام، ونخرج الفضلات، ثم نصبح نحن فضلات، ولا نفعل أكثر ولا نكون غير ذلك....

تلك الروح التي تميزنا عن الحيوان والتي تجعلنا نحلم ونحاول الوصول، التي تضيف إلينا حب العلم والاكتشاف والاختراع، التي تجعلنا نبدع ونصنع فنوناً، التي تجعلنا إنسانًا، لن تقبل أن تنثر بين الرياح كالتراب الذي نحن منه، ولن تقبل أن تكون نهايتها كنهاية مخلوقات أخرى.. فقد قلت لملحد ناقشني بتهكم شديد من قبل، أن هناك أكثر، وهناك حياة بعد الموت رضيت أم أبيت، ولكن أرجو منك إذا أنت أبيت أن تصمت للأبد، فكل ما تقول بلا معنى ومناقشتنا تلك بلا هدف وأفكارك وكلك لا شيء من الأساس؛ لأنك ستموت قريبًا وتصبح لا شيء، وبعدك سينتهي العالم، وكأنه لم يوجد ولا أنت وجدت، فلمَ عناؤك معي، ولمَ كل تلك الجدية؟ استمتع، فليس لك إلا أيام معدودة، وحاول ألا تبالي بما يهتم به الخالدون أمثالنا...

في مصر الفرعونية القديمة كانوا يعتقدون، أو يؤمنون، بوجود بعث بعد الموت للحساب . كانت الأسطورة تقول، إنه عندما يقف الإنسان أمام الميزان، يوضع قلبه في كفة، وفي الكفة الأخرى توضع ريشة الرب، وإذا رجحت الريشة، ذهب إلى الجحيم، بينما إذا رجح قلبه، ذهب إلى الفردوس . هذه الأسطورة القديمة التي تبعد عن الأديان التي نعرفها الآن آلاف السنين، لم تكن من وحي، ولم يأتِ بها نبي لهم، وإلا كان ذكر.

فالفراعنة لم يتركوا شيئًا إلا وسجلوه كتابيًّا . حتى أن هناك رسومات ليوم البعث الموصوف هنا، تجعلك ترين المشهد بدقة، تشبه كثيرًا إيماننا نحن أصحاب الديانات الإبراهيمية، وخاصةً الإسلام. لكنها كانت ذات طابع غير عنصري، بل وإنسانيًّا جدًّا، حيث يكون المسبب الرئيسي لدخول الجنة أو النار هو مقدار صلاح قلوبنا، بغض النظر عن معتقداتنا المختلفة.

هنالك آية في سورة الشعراء، قد عشقتها منذ زمن، لأنها أنهت اضطرابي النفسي حول من سيدخل الجنة والنار، وهي "إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ". وهي متوافقة تمام التوافق مع المشهد الفرعوني الجليل، الذي يمكن فيه لحجم ريشة أن تفوق حجم قلب الإنسان معنويًّا، لما فيه من فراغ إيماني وإنساني.

سألت مرة معلمتي سؤالًا قد جال بخاطري وأنا في سن صغيرة. ظننت أن الإجابة عليه ستكون سهلة، لمعرفة معلمتي بالدين جيدًا. فعلى كل حال أنا لا أسأل فيما هو خارق للطبيعة، بل سؤالًا كان بالنسبة لي لابد وأن له إجابة عند الكبار .. "إذا كان من يعملون صالحًا يدخلون الجنة، ومن يعملون سيئًا يدخلون النار، ماذا عمن لم يفعلوا هذا ولا ذاك؟ فقط عاشوا في حالهم لا يؤذون، ولا يفعلون خيرًا، أين سيذهبون؟ " فكان ردها المنفعل صدمة قد كتمتني بعد ذلك عمرًا حتى نضجت،

فقالت لي ”في داهية!“. ومنذ ذلك الحين، وقد تعلمت درساً لم أنسه أبداً، هو أن الكبار أغبياء، وإذا كان عليَّ أن أجد إجابات، فيجب أن أجدها بنفسي!

كنت أفكر كثيراً في القسيسين والرهبان الطيبين، الذين يحبون الله ويعيشون دهراً محاولين إرضاءه، فقط لما يشعرون في هذه الدنيا من غربة، لأن بجانب الرب هو بيتهم الحقيقي . أما الأرض،فمجرد مرحلة انتقالية يؤدونها، وبداخلهم شغف نحو انتهائها. يقولون بأنهم سيدخلون النار ولكن لم يبد الأمر بالنسبة لي منطقيًّا.. أيعذب الله من عاشوا وماتوا من أجله، فقط لأنهم ليسوا مسلمين؟! من هذا الرب؟! ألم يخلق جميع البشر؟ إذن فلماذا يكون عنصريًّا إلى هذا الحد ويفضِّل أناساً على غيرهم، ونوعًا على نوع، كما يفعل البشر فيما بينهم؟ أليس من الممكن أن كل ذلك وهم؟ فاليهود أيضًا يعتقدون بأنهم الوحيدون الذين على حق والوحيدون الذين يحبهم الله ويفضلهم على العالمين. والمسيحيون أبناء الرب، وهم أيضاً، رغم تظاهرهم بغير ذلك في الشرق، يعتقدون بأنهم الوحيدون الذين سينعمون بالملكوت.. كيف يمكنني أن أعرف إن كنت على حق ولا أكون من التابعين فقط الذين قالوا في القرآن:

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾؟(الزخرف٢٢)

إن كان الدين بالوراثة لما استنكر الله أفعال الأولين . أم يريد هو أيضًا أن يفكر كل الناس، ويصلوا إليه بالتفكير، والخروج عما ولدوا وتربوا عليه، بينما المسلمون ليس مسموح لهم بالتفكير لكي لا يكفروا!! ليس منطقيًّا إطلاقًا.. ففي هذا الزمن الذي نحن فيه، انتشر الإلحاد، ونرى الناس على مواقع التواصل الاجتماعي يستنكرون ظهور الملحدين في بعض البرامج التليفزيونية، ويصفقون لمذيعة بلهاء لا تفقه شيئًا، أنها قد تعصبت وطردت الضيف الكافر، ويقولون "لماذا يأتون بهم؟ ألا يعلمون بأن هناك نفوسًا ضعيفة، من الممكن أن تتأثر، ويضعف إيمانها؟"

بماذا يفكِّرون؟ إن كان الإسلام قد تم توريثه للشخص، فإن قرر التفكير فيما أتاه قد يكفر، أليس هذا قمة اللا إيمان.. أليس هذا قمة عدم الثقة في الدين نفسه؟!! أليس هذا هو الاختبار الذي وضعه لنا الله، أن نفكر ونأتيه عن يقين، ومن لم يفعل فلن يفعل، ولن يصل لذلك بمجرد تقليد ما تربى عليه؟.. فالكفر بالنسبة لي، ليس إلا عدم التفكير، قبل الإيمان..

الصراع حول وجود الله أو ماهيته قائم في حضارات تبعد عن جميع الأديان التي نعرفها، وتختلف فيما بينها اليوم بآلاف الأعوام . قد اخترع البشر آلاف الأساطير التي أراحتهم من أسئلتهم الوجودية حينها، وأصبحت تلك الأساطير أدياناً في حد ذاتها بالنسبة لهم. البشرية سعت كثيراً حول معرفة الله، وكيف خلق الإنسان، والكون، وماذا يحدث بعد الموت. وعلينا نحن أن نعرف ولو قليلاً عن الأديان الأكثر شيوعًا فيما حولنا، وأن نتعمق في قراءة ما مضى ولم يعد له أثر كذلك . كلما عرفتِ التاريخ عامة، كلما عرفتِ من أنت، ولماذا أنت وشعرت بجذورك وتوسعت رؤيتك للعالم الذي ظننتِه يومًا صغيراً جدًّا أو بأنكِ تعرفين عنه ما يكفيكِ إلى أن تتركيه. معرفة التاريخ تجعل لنا جذوراً، وتجعلنا جزءاً من شيء أعظم منَّا بكثير، فنحن لسنا أعوامًا تنقضي، بل نحن البشرية. نحن جزء لا يتجزأ من كل ما فات، وكل ما سيأتي، بعد أن نكون نحن كل ما فات، ولكننا نساهم بشكل ملحوظ فيما سيحدث من بعدنا ولن نشهده . يجب أن تعرفي يا صغيرتي أن كل البشر واحد، وكل منهم يعتقد أن ما يعرفه عن العالم هو الصحيح الذي إذا اتبعته البشرية كلها حتمًا ستكون أفضل حالًا..

هل تعرفين أن هناك ما يقرب من ٢٥ مليون سيخي؟ هل تعتقدين أنهم أغبياء جدًّا؟ ماذا تعرفين إذن عن السيخية، سوى ربطات رؤوسهم الكبيرة، وبأنهم يرفضون حلاقة الشعر حتى يصل شعر الرجل منهم إلى كعب قدمه أحيانًا؟ هل تعرفين أنه دين، من ابتدعه هو في الأصل شخص مسلم، قد ملَّ التفرق في مجتمعه الهندي بين أصحاب الديانة الهندوسية والديانية الإسلامية، فدعا لدين جديد يجمع أفضل ما في الديانتين، لأنه أراد بشدة أن تتوحد أمته، وأن يتوقف العداء والكراهية فيما بينهم لاختلاف العقائد؟

والآن، ماذا تعرفين عن الديانة المجوسية؟ لا يا صغيرتي، ليسوا عبدة النار الذين رأيتِهم من قبل في مشهد من فيلم عربي قديم، مرتدين عباءات سوداء ويشبهون الشياطين ويسجدون أمام النار...بل إنهم تابعون لشخص يسمى زرادشت، كان فيلسوفًا إيرانيًّا ظهر بين ٦٠٠ عام وألف عام قبل ميلاد المسيح. الديانة الزرادشتية هي من أقدم الديانات التوحيدية في العالم. من كثرة التشابه بين تلك الديانة وبين الإسلام، طرح بعض الناس سؤالًا عما إذا كان زرادشت نبيًّا ممن ذكرهم الله في القرآن بأن هناك أنبياء قد قصهم على النبي، وهناك أنبياء آخرون لم يقصصهم عليه. فالمجوس يعتقدون ببساطة أن

هناك حساباً بعد الموت، وأن الصالح سيذهب للجنة بجوار زرادشت، ومن كان غير ذلك سيذهب للنار بجوار الشياطين. ويعتقدون أن الفاني هو الجسد وليس الروح، وأن الروح ستبقى في منطقة وسطى بين النار والجنة في منطقة تدعى البرزخ . واعتقادهم راسخ بالجنة والنار، والصراط وميزان الأعمال. هم يعتقدون أيضًا أن هناك قوى للخير تمثل الملائكة، وتساعد الإنسان في أن يكون صالحًا، مثل الأمانة، والكرم والشجاعة، والإخلاص، والعفة، بينما قوى الشر والتي تمثل الشياطين مثل النفاق والخيانة والجبن والبخل والظلم والقتل .

أما عن خرافة عبادتهم للنار، فكان ذلك لأن معابدهم البيضاء الجميلة، لا تخلو أبدًا من الماء والنار، فهما يمثلان لهم الحياة، حيث تمدهم النار بالحكمة، أما الماء فتمثل مصدر هذه الحكمة. هم يفضِّلون لبس الأبيض، ولديهم خمس صلوات في اليوم، عند الفجر وعند الظهر وقبل غروب الشمس وعند غروب الشمس وفي الليل، ويلزمهم الوضوء لكي يصلوا.

أتعرفين يا صغيرتي، أنني في صغري، عندما حاولت شرح الفهم العربي الخاطئ عن المجوسية لشخص متدين، سبنّي وقال لي كيف تجرؤين على مقارنة دين الإسلام بعبدة النار؟ كل ما حاولت توصيله هو معلومة أنهم ليسو أصلًا عبدة نار !!

هل لكِ أن تري كيف خاب أملي فيمن عشت وسطهم؟ حتى كرهت التحدث مع أي شخص، لأن الناس لا تسمع سوى أصوات عقولها هي فقط. إذ أقول له حقيقة فيعتقد بها أنني أريد أن أثير فتنة.. كم يحب هؤلاء دفن رؤوسهم في التراب، وكم يحبون الكذب، ويخافون الحقيقة، كأنها وحش سيخرج عليهم ليلتهم كل ما يعيشون عليه!

تعرفين جاليليو جيداً، وتعرفين أنه عالم وفلكي وفيزيائي، ولد في إيطاليا -موطن التعصب الديني في هذا الوقت- في القرن الرابع عشر والخامس عشر . أثبت بنظرياته وملاحظاته أن الأرض مجرد كوكب صغير، يدور حول الشمس مع باقي الكواكب. الأمر الذي كان ينافي ما هو مكتوب في الكتاب المقدس، وما يعتقده كبار العلماء أيضًا في حينها . استسلم لطلب الكنيسة له بألا يكتب عن هذا الأمر أبدًا. لكن بعدها بستة عشر عامًا كتب جاليليو عن نفس الأفكار، وحاول إثبات في كتاباته أنها لا تتعارض مع الكتاب المقدس؛ خوفًا مما سيحدث له إن قال عكس ذلك. لكن الأمر لم يمر بسلام أيضًا رغم توخيه الحذر، فهم لم يتقبلوا فكرة أن ينفي أحدهم ما تعلموه منذ يوم ولادتهم وهو بأن الأرض مسطحة ولا تدور ولا تتحرك و هي مركز الكون. الغريب في الأمر أن كل علماء هذا العصر

كانوا يقرِّون بتلك المعتقدات كحقائق علمية، والكل اعتبر جاليليو مهرطقًا وضد كلمة الرب . قد حاولت الكنيسة إرغامه على الرجوع في كلامه، لكنه أبى ذلك، حتى حُكم عليه بالإقامة الجبرية في منزله، إلى أن وافته المنيَّة ولم تقدَّر مجهوداته، حتى قرنين من الزمان بعدها...

يا عزيزتي، إن هذا العالم الذي نعيش فيه يحتوي على آلاف الأديان والعقائد، ومن أراد الله حقًّا سيعرفه بأي طريقة كانت وبأي طقوس. هناك ٢ مليار ونصف مسيحي، ومليار ونصف مسلم، ومليار ونصف بوذي كذلك، ومليار هندوسي، وملايين آخرين تابعين لأديان آسيوية وأفريقية قديمة لم نسمع بها من قبل. هل يخلق هذا الإله العظيم النار من أجل جميع البشرية ما عدا طائفة واحدة داخل دين واحد؟ هل الجنة صغيرة لهذا الحد؟ عبدت الله حق عبادته فوجدته في جميع الأديان، ولكنَّهم يفضِّلون عبادة الدين نفسه من دون الله، ولو توحد جميع البشر في معرفته، لكان أفضل لهم من هذا الشرك المغطى بغطاء، يسمونه الوحدانية!

لن يرتقي البشر بمعتقاداتهم وإنسانيتهم إلا عندما يعرفون كيف السبيل لإدانة النفس، ومواجهتها بحقيقتها عارية، بدون تفضيل جنس أو عرق أو فصيلة على أخرى، زاعمة أنها الوحيدة التي

على حق وما عاداها إلى التهلكة . عندما يبدأ الإنسان في مراجعة قيمه الإنسانية، سيستطيع بعدها أن يصحح أخطاء ولد عليها، أو اعتنقها في كبره عن جهالة. لكن العرب أبعد الناس عن مواجهة النفس، ومواجهة الواقع الذي هو جليٌّ كالشمس في وضح النهار، من كل أطيافهم، مسلمين كانوا أو مسيحيين أو ملحدين..

أريد أن أرى عربيًّا واحدًا يدين نفسه، ولو لمرة واحدة!

أريد ولو لمرة واحدة، أن أرى ملحدًا عربيًّا يعترف بأنه غير نافع أبدًا، بل فقط يفتخر بمنافع الغرب، وكأنه بإلحاده أصبح فجأة منهم. أو أن يعترف أنه يدَّعي الإنسانية والحرية، بينما في الحقيقة هو متطرف حاقد على الدين، خاصةً الذي خرج منه، ولا يعترف بحرية معتنقيه، بل بغبائهم، ولا يتركهم بدون استهزاء بمقدساتهم، التي تعني لهم الكثير...

أريد أن أرى مسلمًا عربيًّا عاديًّا، يعترف بأنه يملك بداخله شخصًا داعشيًّا، لو سنحت له فرصة حقيقية للخروج، لن يتأخر... أريد أن أرى مسيحيًّا عربيًّا يقول إنه لا يستطيع الشعور بالمحبة التي أُمر بها، لأنه أقلية في مجتمع جعله يعرف الكره أكثر من المحبة التي يتصنعها، بينما عندما يختبئ خلف شاشته

الذكية، يلعن دين الأكثرية، ويدرس كل شبهات هذا الدين، ليحقِّر منهم.

أتمنى لو أنني يومًا رأيت شخصًا، أي شخص من أي جهة كانت، أي عقيدة كانت، أن يملك الجرأة ليواجه نفسه، ويقول نعم أنا كذلك، بدلًا من تزييف حقيقته التي يراها الجميع ممن حوله، ويعمى عنها هو. لا يعرف أن عدم الاعتراف هذا يجعله يبدو كالأحمق والأعمى وسط المبصرين، ولكن المثير للدهشة أن كل المبصرين ممن حوله، هو يراهم بوضوح جدًّا، ولكن يرى أيضًا كم أنهم عميان!..

لا يتطور مجتمع أو فرد أبدًا إلا عندما يرى في نفسه ما يراه الآخرون، بل ويلاحظ العيوب التي يملكها قبل أو مع ملاحظة الآخرين لها، كي يتمكن من تحليلها والتخلص منها إذا لزم الأمر، أو على الأقل ليكون معترفًا بها، ويضحك مع من يسخرون منها، بل ويسخر من نفسه قبل أن يفعلوا هم ذلك، بدلًا من استنكار سخريتهم وإعلان أنها عنصرية وكراهية، وتصل في بعض العقائد إلى استحقاق القتل دون أدنى مشكلة إنسانية مع ذلك. فكيف لشخص أن يرى فينا ما لا نراه، بل ويمزح بشكل لطيف على غبائنا، فنواجه هذا المزاح بالتطاول عليه بالقتل أو السجن، لأننا الأقوى ولأننا لا نملك حسًّا فكاهيًّا أبدًا.. ألا يمكننا أن نكون

خفيفي الظل قليلًا، عندما يتعلق الأمر بأي شيء نعتقد أنه صحيح مطلق، أو يمس هذا الأمر غرورنا البشري الأحمق؟!

مما رأيت حولي، أغلب من ألحدوا من جيلي، هم من تربوا على الطريقة الدينية من وجهة نظر أهليهم ومدارسهم . لكن كيف لهم أن يتوقعوا وهم من أجيال لم تتعلم الحكمة في مجتمعهم المنغلق، أن هذا الجيل سيولد في عالم متعولم، كل الأفكار فيه تسبح في سماء واحدة. كيف لهم أن ينجِّموا بأن هذا الجيل سيستخدم جزءًا في جسده دفنوه هم منذ قرون ويسمى في العلم الحديث بالعقل، عرفه هؤلاء الملحدون، ولكنهم لم يتعلموا من أحد كيف يستخدمونه، لأنها تعتبر سابقة من نوعها. فكيف لهم هم أيضًا أن يتعلموا البحث بموضوعية، بدلًا من الهمجية التي تشربوها من كل من حولهم، كيف لهم بأن يواجهوا الواقع بحكمة ليست موجودة في كل حكيم مقدس عند الأكبر منهم سنًّا، كيف لهم أن يعرفوا أن من العقل استقبال كل المعارف والثقافات والأفكار بعقل رحب، لكي يتمكنوا من الوصول للحقيقة، بدلًا من أن يرفضوا أن يتبعوا ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، فيصبحوا أيضًا تابعين لآباء وأجداد غيرهم، وتصبح أفكارهم أيضًا مقدسة وغير قابلة للنقاش، لأن كل المختلف عنهم متخلف؟!

ومن ثم يرفضون هم أيضًا التفكير فيما يتعارض مع معتقداتهم، وهذا ما يسمى بالتقبل السلبي. فهم بالفعل تقبلوا ما كان عليه ممن سبقوهم، وتقبلوا ما تعلموه وتقبلوا وتعاملوا بما رفضوه. لم يقل لهم أحد إن من أسباب النجاح أن يقرأ المرء لأشخاص لا يتفق معهم أيديولوجيًّا. لم يقل لهم أحد ألا يضحكوا على أفكار الآخر، وألا يردوا بشتم وإهانة على كلام لا يتفقون معه، وألا يصفقوا بحرارة لكل من يقول فقط ما يريدون هم أن يسمعوه . فالمؤمنون والملحدون، في أي مجتمع متخلف سواء، وتقبل الآخر والإنسانية التي يزعمون ليست من شيم المجتمعات المتخلفة في كل الأحوال.

إذا كان هناك رب، فليس من حق أحد أن يتجاهل وجوده ليريح نفسه ثم ينسب نفسه إلى عالم متقدم. وكأنما هم لا يفعلون غير الإيمان بعدم الإيمان. وإذا كان هناك رب، ليس من حق أحد أن يتحدث باسمه بدلًا من أن يرى الناس فيه بدون كلام، ما يريد هذا الرب أن يكون فينا جميعًا. فإذا كان هناك رب فهو بالطبع خالقنا جميعاً، هو بالطبع لا يفكر بنفس ضآلة حجم عقولنا نحن، وهو بالتأكيد لا يفضل بعضنا على بعض...

سأقص عليكِ قصة شهيرة جدًّا لكريستوفر كولومبس مكتشف القارة الأمريكية . عندما جاء بطاقمه وقابل الهنود الحمر،

والمعروف عنهم أنهم يقدسون القمر. هددهم - بعدما أخبره الفلكيون الذين معه في الطاقم، بأنه سيحدث خسوف كلي للقمر بعد أيام- بأنه سيسرق منهم القمر إن لم يقوموا بتزويد طاقمه بالغذاء والمؤن التي تساعدهم في تمضية تلك الفترة أحياء. لم يصدقوه أول الأمر، ولكن عندما حدث الخسوف بالفعل واختفى القمر عن أنظارهم، ظنّوا أنه صدق وعده وسرق القمر. عادوا إليه وتوسلوه أن يعيد لهم القمر، في مقابل أن ينفذوا أوامره كلها.

في الليلة التالية كان قد عاد القمر إلى تمام اكتماله. ظنوا بذلك أن كولومبس هو المسؤول، وأنه هو من أعاد لهم القمر الذي قام بأخذه منهم في الليلة الماضية. بذلك كان قد كسب حربه عليهم فكريًّا، بما يستطيعون فهمه، كالأطفال تمامًا، لأنهم لم يريدوا التخلّي عن أفكارهم البالية . ربحوا طقوسهم الدينية المقدسة، بينما في الحقيقة قد خسروا قارة بأكملها، وأصبحوا يعيشون فيها كالعبيد لأسيادهم، ومواطنين درجة عاشرة. على الأرجح لو ظهر في وسطهم عاقل، يعلّمهم الخدعة التي وقعوا ضحايا لها، وبأنهم في ضلال، وبأنه يوجد شيء اسمه خسوف يحدث، وأنه أمر طبيعي، لقتلوه لهرطقته وجهله!

تبًّا لجميع البشرية طالما التفكير حرام، والخروج عما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم وإن كان عين الخطأ كارثة فضلًا عن كونه حرامًا! أسوأ ما يمكن أن يفعل الإنسان بنفسه هو أن يتخذ من السطحية أسلوبًا لمناقشة الآخرين، وأن يتخذ من مشاعره ومعلوماته المحدودة قاموسًا لحقائق ثابتة. هذا كل ما يفعله قاطنو بلادنا، المخترقة نفسيًّا، قبل أن تكون مخترقة فكريًّا ودينيًّا وعلميًّا ... وإن اتخذوا الدين أسلوبًا فاشلًا في الحياة فلا يستطيع أي دين أن يعلِّم الإنسانية، إذا قرر المجتمع قتل كل معانيها، ولن يصبحوا على قدر كافٍ من الآدمية، إذا ظلت عقولهم لا تفكر أبدًا… أرى أن الذين يشتمون ويستهزئون وينشرون طاقات سلبية في الهواء لكرههم الشديد لدين بعينه لا يقلون سفاهة عن المتشددين من هذا الدين.. التطرف ليس له دين، بل مرتبط ارتباطًا تامًّا بشخصية الفرد وبيئته . إن كانت بيئتك إسلامية فاسدة، وأردت التنصل منها، باستخدام نفس الأسلوب في مواجهتها، أصبحت بكل بساطة لا دينيًّا فاسدًا، تشبه من تكره أكثر من اختلافك معهم، فكلكم بالنهاية متطرفون متعصبون، معتقدون تمام الاعتقاد برشد عقولكم وغباء كل غريب عنكم!..

يظن الكثير من الناس أن انتشار الإلحاد في أوطاننا، حرب ممنهجة وممولة على الإسلام .. ولكن الحرب ليست على الإسلام، بل على الأغبياء ممن يدينون به ولا يعرفون كيف يردُّون على انتقاد المتمردين، وأنه ليس بحاجة للدفاع عنه في كل الأحوال.. كما ينقص مسيحيو الشرق الكثير لكي يعلموا أن مناقشة الإسلام، وانتقاد ما به من تشويه، قائم بيد أصحابه، لا يعزز من دينهم في شيء . في أي نقاش بين مسلمين وملحدين، يأتي في المنتصف بينهم مسيحيون يعتقدون أن هذا يرفع من شأن دينهم هم، وبأن كراهية العالم والمفكرين على وجه التحديد لإرهاب باسم الإسلام، والتحريف الذي أتى من تفسيرات القدامى لآيات القرآن، يضع الإنجيل والمسيحية في مكانة أفضل، متناسين عن عمد أن حاضرنا هذا هو تاريخهم . فكم من الحروب أقيمت باسم الرب المسيحي، وكم من قتلى، وكم من احتلال، وكم من جرائم ارتكبت في حق الإنسانية من أجل الصليب!...

يظنون أن شيوخ هذا العصر الذين يتحكمون في عقول الأغلبية، والذين يرفضون أي نقاش في الدين، ويعتبرون أقل انتقاد هو حرب على الإسلام، وازدراء للدين، هم الأول من نوعهم، بينما سبقتهم إلى ذلك بكثير الكنيسة، في عصور قديمة،

حيث تحكموا في كل شيء . كان رجال الدين هم أصحاب الرأي في الدنيا والدين. ظنّوا أن كل من خالفهم أو أراد فكرًا منفصلاً، ودينًا بعيدًا عن الأمور الدنيوية، مهرطقين وكفّارًا ويحاربون الرب وفي النار . وكم من أناس أعدموا لرفضهم للمسيحية التي كانت آفة عصرهم، كما يرفض البعض الآن الإسلام!...

لا تكيلوا بمكيالين. أظن أن من حق ملحد خرج عن الإسلام أو مسلم أن يتحدث فيما يفقه، ولكن ليس من حق أصحاب ديانة أخرى مليئة بالتناقضات، بل وبالخرافات أيضًا -كأي دين - أن يقللوا من شأن دين آخر، ظنًّا منهم أن دينهم أفضل حالًا، فتلك ليست حقيقة إطلاقًا. المسيحية إن بدت مسالمة أكثر وهادئة في طباعها وبين أصحابها، وليست تحت ضوء الانتقاد عالميًّا، فهذا ليس إلا لسبب واحد، هو أن أغلب أصحابها قد تخلوا عنها منذ زمن، وأن البلاد التي رفعت راية الصليب في أزمان بعيدة، أبعدت الكنيسة عن كل شيء، ولم يعد الرب موجودًا إلا بين حوائطها.

لم يعد لهم صوت لكي يزعجوا أحدًا، ولم يعد هذا الدين مشكلة دنيوية؛ لأنه لا يتدخل بشيء . أقصوه؛ لأنه عندما علا صوته، دمر الإنسانية من قبل .. عرفوا أنه لا مكان له في

السياسة والدنيا، فوضعوه في مكانه. اذهبوا يا أهل الشرق إلى الدول المسيحية، فلن تجدوا سوى ملحدين كفروا بدينكم ويعتبرونه الآن ضد العلم، أي ضدهم، ويا لقلة المتدينين هناك! ولهذا السبب فقط لم تعد المسيحية مجالًا للنقاش وانتقاد أحد، فظننتم أنها قوية، وبأن هذا يعطيكم الحق لنقد دين آخر هو الشغل الشاغل للعالم في زمننا هذا، أكررها، حاضرنا ليس إلا ماضيكم، وها هو التاريخ يعيد نفسه، ليس أكثر من ذلك، فأفسحوا الطريق لأصحاب الفكر الحقيقيين لمناقشة الدين، ولكن طالما تدينون بدين إذا فتحنا عليه أبواب النقد لن تسلموا أبدًا، فالزموا الصمت أفضل، لأنكم لستم بأفضل حالًا من المسلمين الذين تنتقدونهم من الأساس...

التطرف الديني في بلادنا الإسلامية هو السبب الوحيد والأوحد الذي أنشأ تلك الضجة الواسعة ضده، من مسلمين تركوه، أو من أصحاب الديانات الأخرى. أما أنا، فلن أسمح لأحد أن يحرم من ديني ما تمليه عليَّ إنسانيتي. فبغض النظر عن اعتقاداتهم، التي جعلت من الدين مادة للنقد، قررت أنا عبادة الله، وترك الدين لعقل يتدبر، قبل أن يصدق كل ما يقوله له شيوخ أقصى ما فعلوه هو الحفظ والتسميع!..

كما أن العيب ليس في الوطن بل في قاطنيه، فالعيب ليس في دين أبدًا، بل في صانعيه وقاطنيه وأصحابه، يرتفع برفعتهم ويزهو من صلاح شأنهم، أو يكون كالتراب المنثور، لا يُمسك باليد، ويدخل في أعين الناس يعميها إن كان أصحابه لاهين أغبياء..

من يلحدون في زمننا هذا هم لا يفعلون أكثر مما فعل أسلافهم من البشر، فهكذا خلقت طبيعتنا. الإيمان يكون أسهل بكثير، عندما نرى ما نؤمن به بالعين المجردة . في كل زمان كان يكفر الناس ويتبعون الشهوات وينسون أن أجدادهم كانوا يؤمنون. ولو لم يكن الكفر طبيعة بشرية لما بعث الله نبيًّا بعد نبي لأقوام آمن أجدادها من قبل ثم كفرت ذريتهم من بعدهم بالتدريج..

والعيب ليس في أولئك ولا هؤلاء، بل العيب كل العيب فيمن في وسطهم، من أخذوا أديانهم تركة عن أهليهم، الذين سبقوهم إيمانًا عن يقين، ثم أصبحوا لا يفقهون فيه شيئًا حتى ذبل ومات ولم يجد فيه من بعدهم منطقًا يتمسكون به حتى تركوه لما يستطيعون فهمه... نحن في زمن الوارثين، وما أكثر من يعيدون التاريخ بعد التاريخ ويرجعون إلى طبيعتهم البشرية ويكفرون بأديان آبائهم التي أخذوها وراثة وأصبحت بين أيديهم

هباء!.. لا هؤلاء يفهمون ما يؤمنون به، ولا أولئك يفقهون ما يكفرون به، ولا الإيمان بمن خلقكم في السماء يحتاج عناءً وإرهاقًا، ولا البحث عنه يحتاج إلحادًا. عبادة الله لا تحتاج أديانًا مشوهة، ولا اختلافًا في مذاهب وأحكام، بل قلبًا خاشعًا يتقيه في نفسه، وفيمن حوله يومًا يلاقيه اشتياقًا.. مهما آمنتم لتريحوا أنفسكم من التفكير في العذاب، بدون إنسانية ورفق لن يكون لكم مكان بين المؤمنين يومها، ومهما ابتعدتم عن الأديان لتريحوا أنفسكم من الانضمام لوارثي أديان عن جهالة، لن يقيكم هذا يومها حقيقة واحدة، هي أنه وبعيدًا عن الأديان، موجود.... ولا يريد منا حقًّا سوى ما كان مشتركًا بين كل من بعثهم، لا نقتل، لا نسرق، لا نظلم، لا نزني، أي ببساطة نعيش ككل إنسان سويٍّ نفسيًّا!

الملحد العربي والغربي الذي نشأ في مجتمعات متدينة فتطرف في إلحاده وكرهه للأديان ليس مريضًا نفسيًّا كما يحب المتدينون أن يصفوهم، فالتاريخ يثبت لنا أن كل مختلف هو للعامة مريض، بينما المرض يقبع في نفوس الجميع حقيقةً. ألا يمكننا أن نتقبل بعضنا البعض وألا نحكم على الآخر لاختلافه معنا؟.. إذا كانت هناك حقيقة واحدة، يجب علينا أن نعرفها

جميعًا، فهي أنه لا أحد يعرف، كلنا لا نعرف، وكلنا فرحون بما بين أيدينا، وكلنا متطرفون لإثبات أنه فقط الحقيقة المطلقة.

إذا ما فهم يومًا أي بشري أن الاختلاف نعمة، وأن تقبل الآخر إنسانية، وأن اختلافي معك لا يعني أنني على حق وأنت على باطل، فعدم اتفاقك مع كلامي لا يعني أنني على خطأ، وعدم موافقتي على كلامك لا يعني أيضًا أنك مخطئ، فقط يجب على كلانا أن يعي هذا جيدًا. ربما ستكون الأرض مكانًا أفضل للحياة، ربما تتوقف الدماء ويعم الحب، ربما يعي الجميع أن إلهًا خلقنا وخلق كل الجمال الذي فينا ومن حولنا في الأرض والكون لا يريد أن تسيل دماء أي شخص في سبيل الدفاع عنه، لأنه لا يحتاج لشخص ضئيل مثلنا أن يدافع عنه في كل الأحوال!

يجب على كل شخص احترام وتقدير معتقدات غيره، مهما كانت مختلفة عنه إيجابًا أو سلبًا، فلن يظهر إنسان على وجه الأرض يحمل معتقدًا صحيحًا لأنه ليس الإله، هو ليس إلا إنسانًا يفكر ويؤمن بما توصل إليه من أفكار فبحكمة الله لم يخلق لنا حقيقة مطلقة، سوى وجوده، لكنه خلق لنا عقلًا يفكر لنتوصل به إلى حقائق نسبية . فإذا تركنا مجالًا لعقولنا -التي جعلتنا نؤمن بالكامل بأشياء نعتقد فى صوابها رغم اختلاف الأغلبية عليها- لتنمو، سوف نؤمن جميعًا باحتمال صحة وجود ما تختلف

معه أفكارنا الشخصية، واحتمال وجود الخطأ فيما نعتقده نحن الحقيقة المطلقة! وهذا هو رأيي الشخصي الذى أيضًا كغيره يحتمل الصواب والخطأ....

وإذا أردتِ أن تعرفي إجابتي عندما سألتِني إذا ما كنت مسلمة أو لا، فأقول لكِ إنني لم أولد كذلك، وقضيت الكثير من عمري وأنا لست كذلك، فقبل أن أسلم اعتقدت أن كل من على غير ديني كافرًا، وبعد إسلامي اكتشفت أن كل البشر من الله، وأن حكمي على غيري بالكفر هو نفسه ذاك الكِبر الذي لن يدخل من ملك منه ذره في قلبه إلى الجنة.. قبل أن أسلم كرهت كل اليهود وحلفت لو رأيت منهم أحدًا لأقتله، ثم بعد إسلامي عرفت أن الخلافات السياسية شيء، والعلاقات الفردية الإنسانية شيء آخر، وأن ديني يحثني على التعامل الحسن مع كل الناس بدون كره أعمى لفصيل بأكمله منه الجيد والسيئ.. قبل أن أسلم أقسمت بالله، وبعد دخولي الإسلام قلت "صدقني" و"بأمانة" لأني اكتشفت أن الحلف منهي عنه كما في المسيحية تمامًا.. قبل أن أسلم عبدت الله لأنني أردت أشياء ولأنني خفت من النار، وبعد أن دخلت الإسلام عبدت الله، ليس لأي شيء سوى أنه يستحق أن يُعبد.. قبل الإسلام ظننت أن ملبس الناس ومظهرهم عبادة ثم بعد إيماني عرفت أن قلب الإنسان السوي

المحب العطوف الذي يتمنى الخير لغيره، والذي يتقي الله في خلق الله هو العبادة الحقة، مهما اختلف من الخارج شكل الملبس. قبل أن أسلم ظننت أن شارب الخمر والزاني في النار، ثم عرفت الإسلام وعرفت منه أن الله يغفر الذنوب جميعًا مهما عظمت، وأن له وحده في النهاية الحكم على الناس . قبل أن أسلم اعتقدت أن الله ينجِّح عباده المؤمنين، وأتعجب من نجاح المسيحيين والملحدين في حياتهم ! بعد إسلامي اكتشفت أن النجاح لكل مجتهد وليس له علاقة بدين.. قبل أن أسلم صدقت أن للكلاب نجاسة، ثم بعد إسلامي عرفت أن النجاسة في عقول من قالوا ذلك، وأن الاعتناء بأي روح وحمايتها من المهالك هو قمة الدين .. قبل إسلامي صدقت أن للرجل أن يتزوج أربعًا، وأن يضرب زوجته، وأن قوامته تفضيل، وبعد أن دخلت الإسلام عرفت أن كل ما يتعارض مع الفطرة التي فطرنا الله عليها لا يمكن أن تكون من عنده . قبل أن أسلم اعتقدت بأن الإسلام أتى منذ ألف وأربعمائة سنة على يد محمد، وبعد دخولي الإسلام، عرفت أن هذا الدين نزل الأرض على يد الله مع نزول آدم. قبل أن أسلم ظننت أن وراثة الدين تجعلك منه، وبعد إسلامي عرفت أنه لا دين يورث، وأن من لم يفكر ويصل لله بعقله وقلبه هو ليس إلا عالة على ذلك الدين .

قبل أن أسلم اعتقدت بأنه يجب على العالم كله أن يكون مسلماً، وبعد إسلامي فهمت أن في الاختلاف حياة .. قبل أن أسلم ظننت أن في كل شيء حُرمةً، و بعد إسلامي رفضت أن يحرِّم عليَّ أحد أي شيء تقبله إنسانيتي. قبل أن أسلم اعتقدت أن التفكير وكثرة التساؤل يؤدي إلى الإلحاد، ثم عرفت أن التفكير هو الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الله.. قبل أن أسلم عبدت الإسلام، ثم بعد إسلامي عبدت الله ولم أشرك به شيئًا… كل زمان وله تداعياته، وإذا ارتضيت لنفسي الإسلام بمعايير هذا الزمان دينًا، فسأكون ارتضيت النار سكنًا أبديًّا.. فمنذ عرفت الله وآمنت به وبجميع كتبه ورسله، لم يستطع أي دين أن يشملني، فكانت الإنسانية هي الملجأ والشيء العقلاني الوحيد الذي قبله قلبي!

لكي أختصر لكِ كل ما تحدثت عنه بعشوائية في هذه الرسالة الطويلة، سأضعها في نقاط واضحة:

١- أن القوانين الصارمة، التي تحتِّم العقاب على الأفعال الخاطئة وغير الإنسانية، هي العامل الأكبر في تحقيق نظام مجتمعي متكامل، حسن الظاهر بما يكفي، لنعيش به في أمان.

٢- الأديان تمثل قوانين أيضًا، وتضيف إليها روحانيات تحتاجها النفس البشرية بشدة، وتعطي أملًا للحياة، وإلا لما اخترعوا الأديان والأساطير منذ آلاف السنين.

٣- أن وجود وتطبيق قوانين الأديان "الجزء السمح منها "، يضفي روح طمأنينة، ما بين المجموعات والأفراد في المجتمع، ويصنع خوفًا من عمل الشر، حيث لا يرانا أحد، وهذا يساعد على فكرة تقويم النفس التي يحتاجها الإنسان.

٤- في المجتمعات الملحدة، هناك قوانين بشرية صارمة، وقلما نجد أناسًا يأكلون حقوق الآخرين، أو يقومون بالاعتداءات والتصرفات اللاإنسانية. ولكن هذا أولًا فقط لكونهم مجتمعًا متحضرًا، ثريًّا، يعيش في مناخ صحي لنفسية الإنسان، فلا يكون هناك مكان لخلق العنف، أو الاحتياج إليه . ثانيًا أن هذه المجتمعات تكثر فيها بشدة عمليات الانتحار، لعدم الشعور بحاجة للحياة. كما ذكرنا مسبقًا . إن النفس البشرية تنتشي بالألم أكثر من الراحة، وإذا عاشت بدون أي حروب نفسية أو عقائدية حتمًا ستفتقد شعورها بغاية وجودها أصلًا، فتفضل ترك الدنيا للاشيء، على عكس الرهبان مثلًا والراهبات، الذين يتركون الدنيا من أجل مساعدة الآخرين أو التعبد لله ورفع روحانياتهم..

٥- كل هذا لن ينطبق إلا بتقديم الجزء المضيء من الأديان . فسبب إلحاد الملحدين الأول، هو الجزء المظلم، الذي يحث على الكره والقتل والعنصرية. إنما إذا أعلينا الجزء الروحي في الدين، على أي جزء آخر، سنصل لمرحلة الإنسانية التي لا يشوبها غرور الإنسان، والتي أيضًا لا تفقده حسه الروحاني الفطري، والذي بالتخلي عنه، لا يصبح لحياته معنى، ويصبح ماديًّا هشًّا، وقد فقد جزءًا كبيرًا من إنسانيته . إذا أعطينا مثالًا هنا، فسيكون للديانة المسيحية، التي كانت في الماضي الديانة الرسمية لأغلب بلاد العالم، ولا سيما القوية منها. عندما امتزج الجزء المظلم في الدين بغرور الإنسان، أصبحت المسيحية باطشة حاكمة، تقتل البشر وتغتصب أرواحهم وأراضيهم دفاعًا عن الرب، بينما الآن، وبعد أن أصبحت ليست ذات قوة ولا سلطة، وركز أصاحبها على الروحانيات والصلاة وأن الله محبة، أصبحت طبائعها وطبيعة معتنقيها أهدأ وأقرب لسبب وجود الدين، أكثر من الماضي. بينما حاضر المسلمين الآن هو ماضي المسيحيين، فهم يشعرون بقوتهم واقتراب اليوم الذي سيحكم فيه دينهم العالم، ويتغلب على كل المعتقدات، وأن أوطانهم ملك لدينهم فقط، ويخضع كل مَن مِن غير دين لقواعدهم . وهنا، للمرة الثانية، اختلط الدين بغرور الإنسان الفطري،

وأصبح هناك سفك للدماء باسم الله، وكراهية وتكفير وعنصرية باسم الله، وانقضى عهد الجانب المضيء من الدين، وتلاشت الإنسانية التي منها ولها فقط وجدت الأديان!

باختصار، يجب على الملحدين فهم سيكولوجية البشر وفطرتهم التي تحتاج لقوانين الأديان وروحانيتها ليكونوا أسوياء، ويجب على المتدينين أن يعرفوا أن غلبة الجانب المظلم من الدين على الإنسانية، والخير وتقويم النفس وجدت أو لم توجد، قوانين بشرية، فهي لا تكفي للعامة أبدًا..

يجب عليكِ أن تبحثي عن الله في كل شيء، وفي نفسك . فالإيمان الحق لا يأتي إلا بالشك، فبالشك يولد اليقين وبالبحث، والتفكير يوجد الحق.. ستعرفين عن يقين أن الله موجود عندما تشعرين به بداخلك، عندما تعرفين نفسك وتعرفين الناس من حولك. عندما تتعمقين في علوم النفس البشرية، ستعرفين أنه موجود. سترينه في كل شيء حولك، فهو غير مختفٍ . ربما لا تستطيع العين المجردة أن تراه، ولكن عقلك وقلبك يعرفه عن ظهر قلب.. لا أستطيع إثبات أن الحب موجود بشكل مادي، ولكنه في فطرتي وفي قلبي ونفسي وأعرف يقينًا أنني أعيش به . هكذا هو إثبات وجود الله، بغض النظر عن ماهيته وتكوينه..

عيشي حياتك للحياة، وليس في انتظار الموت من أجل جنة، فهي واحدة لن تتكرر. عيشيها بشكل صحيح، أخلاقي وعقلاني وإنساني. اجعلي الناس تحبك وتتفاءل بضحكاتك. ساعدي كل من يحتاج مساعدة دون أن تعرفي لأي فصيل ينتمي، فقط لأنه من نفس فصيلتك، هو إنسان. أضيفي شيئًا مهمًّا للبشرية قبل موتك. لهذا خُلقتِ، ولهذا مُيِّزتِ عن باقي الكون، بعقلك المعجز الذي ليس له مثيل.

إذا ما اكتشفتِ يومًا يا صغيرتي، أن أي شيء علمته إياك كان خاطئًا، فلا تترددي بإلقائه في حاوية القمامة. ذلك لئلا ترثي أي خرافة كانت . كوني أنتِ . أعملي عقلك في أي شيء قبل اتخاذه لا جدال فيه. لا تأبي باختلافك عمن حولك، فلكل زمان طاقة جديدة، تشع من أناس قلائل، يتغير بها شكل العالم من بعدهم. قد مُلئت الأرض بما يكفي بعقول تبث الشر والحقد والكراهية والعنف والأنانية، ولا تهتم لدماء غيرهم؛ فتعيش أوطان فوق دماء أوطان أخرى. كوني أنتِ النور بين الظلمات.

إذا كنت أريد منكِ أن تتعلمي مني شيئًا واحدًا فقط عن ظهر قلب، هو ألا تكوني مثلي ! كوني شجاعة، فبالشجعان فقط تتبدل الأقدار... كوني الحياة في أبهى حللها، أيتها الحياة التي عشتها وحدي، وقد حان الوقت الآن ليعيشها غيري...

وإذا ما أردتِ يومًا أن تجدي إجابة، فعليك أولًا بطرح الأسئلة، الكثير منها، لأن الإجابات لا توجد إلا عندما تتكون الأسئلة التي تحويها أولًا. ستكونين مختلفة، وستمرضين بداء المعرفة، فلا تخافي، لأنه من أعظم الأمراض البشرية على الإطلاق وأندرها..

سأراكِ في كل مكان، وسأكون معكِ في كل لحظة إذا ما احتجتِ احتضاني، أو إذا احتجت أنا للاختباء بداخل أحضانك أيتها الصغيرة، فقد سنحت لي الفرصة أخيرًا لتحقيق حلمي، بالعيش بداخلك، وأكون أقرب إليكِ، فجانبك لم يكن كافيًا أبدًا بالنسبة لي"!

أطبقت الأوراق ووضعتها في الظرف . وضعتها في الدرج المخصص لأوراق أمي كلها، بما في ذلك كتاب مذكراتها الذي لم أكمله، بل وأخاف من فتحه مجددًا، ووصيتها التي لن أحتاجها في هذه الفترة في كل الأحوال، والتي لا أتخيَّل أنني سأحتاج إليها، أو أفتحها مرة أخرى في حياتي أصلًا.. كم أشتاق إلى أمي، وكم أحقد عليها في نفس الوقت، لأنها تركتني وهربت!.. لماذا لم تأخذني معها إلى أمريكا وتركتني مع هذا الرجل الذي جعلها تعيسة؟ ! متى ستأتي لتأخذني، ولماذا لا

تتصل بي وتخبر خالتي أن تكذب عليَّ عندما أقول لها إنني أريد التحدث إليها، فتدّعي أنها ليست معها؟!

سأغلق عيني قليلًا، لعلني أراكِ، لعلني أستطيع التحدث معكِ، فاشتياقي اليكِ يجعل صحوي بلا فائدة أو طعم! لم أذهب إلى المدرسة لأسابيع، ولم يهتم أبي النائم طوال الوقت بي أبدًا . لا نتحدث أو نتشارك الطعام منذ ذهبتِ .. سأعمل جاهدة على إنهاء هذا العام الدراسي، لأتبعك أينما كنتِ . فأنا لست حياة بدونك يا أمي، ولا يستطيع أن يشبهني شيء أكثر من القبر المعتم في غيابك!

أخذت من غرفتها حاسوبها الإلكتروني المتنقل، ودخلت به إلى غرفتي. أغلقت الباب على نفسي، وغرقت في مشاهدة الصور القديمة لها معي منذ ولادتي، وما قبل أن تقابل أبي أيضًا. بدت سعيدة ومشرقة دائمًا. لم يلاحظ أحد أبدًا البيمارستان الخاص بها، والذي عاشت فيه وحيدة.. لطالما سمعت هذا التعبير في لغتنا العامية، حيث يصف به الناس أي مكان به ضجيج وعشوائية كما يفعلها المجانين، فيقولون "ما هذا المورستان؟" عندما قرأتها في كتابها بحثت عنها. اكتشفت أنها كلمة فارسية الأصل، وتعني مشفى أو محل المريض . كانت موجودة في العصور الوسطى، في الشرق الأوسط للعلاج ودراسة الطب .

كانوا يفصلون فيها بين دور العجزة، والمستشفيات العامة، ومصحات العزل المخصصة للمجانين . كانت هذه سابقة للمسلمين في هذا الوقت، الذي ساد فيه الظلام الديني على أوروبا، وكانوا في خضم حروبهم بين العلم والإيمان، والحرية والقمع الكنسي الذي مورس عليهم بشدة . ومع مرور الوقت وتدهور أحوال وإهمال البيمارستانات، وهجر المرضى لها، لأنها أصبحت قديمة، أصبحت تستخدم فقط لعزل المجانين، ومن الطبيعي أن يصدر دائمًا منها صخبهم وصرخاتهم...

أعتقد أن وصف أمي لـ"مورستانها " دقيق جدًّا . فهي مشفى يعالج الناس من أمراضهم، وينشئ مناخًا صحيًّا للآخرين، وأنا أولهم، ولكنها أيضًا، وبعد الإهمال والهجر اللذين عانيتهما، أصبح بداخلها ضجيج مدوٍّ، بما حبست فيه من أفكار اعتبرها الجميع مجنونة. صدقتهم، وأغلقت باب "مورستانها" على هذا الجنون الذي عانت من صخبه وحدها، مهما كان من حولها قريبين منها، فقد كانت من الخارج مشفى طبيًّا عظيمًا، ومن الداخل، بيمارستان!

فكرت في فكرة أن أبعث إليها ببريد إلكتروني وأنا أتصفح حاسوبها، فلعل وعسى تراه من هاتفها الذكي، أو من حاسوب ليلى. لعل وعسى تحدثني وتشعرني بوجودي بها!.. كتبت لها:

" عزيزتي، أمي..

كيف الحياة بدون حياة معك، ماذا تفعلين الآن، كيف هي أمريكا، هل اقتربت من الشفاء، أم اقتربتِ من إنهاء إجراءات مجيئي إليكِ؟ أرجوكِ أجيبيني!

حياتك، حياة."

انتظرت أيامًا لم تطُلْ على الكرة الأرضية وساكنيها، ولكنَّها بالنسبة لي طالت كدهر بأكمله . عندما فتحت حاسوبها بعد عودتي من المدرسة مباشرة، وجدت بريدًا جديدًا قد وصل لنفس عنوانها البريدي، الذي بعثت منه إليها. لم أصدق نفسي ! قبل أن أفتحه، هرعت إلى أبي لأسعده، لعله يريد التحدث إليها معي، فأنا أرى حالته تسوء يومًا بعد يوم في غيابها!

كنت أظنه لا يحبها، ولهذا اضطرها للابتعاد عنه، من مذكراتها . لكنني رأيت في عينيه حزنًا لم أحزنه أنا نفسي . أحيانًا أسمع صوت بكائه عاليًا جدًّا، عندما يذهب للخلود إلى النوم. أنا عرفت عنه منذ طفولتي، أن أمي كان يزعجها جدًّا بروده العاطفي، لأنه لا يبكي أبدًا مهما حدث، حتى أنها سألته يومًا ما وأنا صغيرة: "ألن تبكي أبدًا، حتى عندما أموت؟" ولكنه ابتسم ولم يجبها مما أزعجها أكثر. لم أكن أعي جيدًا ما يحدث حينها، لكن

رغم ما عرفته عنه، أصبح يبكي كل ليلة، ويحاول في الصباح أن يصطنع الابتسامة أمامي.

ترك عمله المسائي، ولا يفعل أي شيء سوى النوم ومشاهدة التلفاز وتوصيلي من وإلى مدرستي، وأحيانًا استقبال الضيوف، مثل جدتي وأصدقائه، ويفعل شيئًا آخر، هو طلب الطعام لي من المطاعم، كلما جاء موعد وجبة. الغريب أنني لم أصادفه يأكل! لا أستطيع فهم كل ما هو فيه، إلا لو كانت طلبت منه أمي الانفصال عنها. وإلا فلماذا هو كذلك، بينما أنا لا أهتم سوى بمحاولة الوصول إليها، والذهاب لها لأنني أعرف أنها لا تريد أن تقطع علاقتها بي، مثلما يشعر هو!

دخلت إلى غرفته، ووجدته مستلقيًا على السرير يشاهد فيلمًا في التلفاز. لا يبدو على وجهه أي تعابير . شعرت لوهلة أنه صنم. تمثال مصنوع بدقة على أيدي محترفين، من الشمع . أرعبني حقًّا، خاصةً عندما حرك هذا التمثال، غير النابض بالحياة، عيناه تجاهي، وأنا واقفة عند الباب، بدون حتى أن تتحرك رقبته أو عضلات وجهه .. أخذت بضع ثوانٍ للتحكم بنفسي، وتذكرت أن ذلك هو أبي فقط وليس شخصًا خياليًّا خرج لتوه من فيلم رعب، ليثير ذعري، وقلت له:

- أمي بعثت لي ببريد إلكتروني على عنوانها الشخصي، ردًّا على بريد آخر من نفس العنوان، كنت قد بعثته إليها، لعلها تراه، وترد عليَّ!

ظل صامتًا قليلًا، ولكنه حرك رقبته تلك المرة تجاهي، وقد ارتسمت على وجهه أخيرًا تعابير، تظهر ملامح وجهه الشاحب، الذي أصبح يشبه الأموات قليلًا..

- ماذا قلتِ؟! سألني في دهشة..

- أنت سمعتني يا أبي.. أريد أن أقرأ الرسالة معك، لكي تكتب لها أنت أيضًا هذه المرة. لابد أنها تنتظر ردّي، ومن المؤكد أنك قد اشتقت إليها!

- اقتربي وأريني عما تتحدثين!

جلست بجانبه على طرف السرير، واقتربت من جسده كي يرى معي الشاشة الصغيرة جيدًا، ولكن أزعجتني كثيرًا رائحته.. ماذا حدث؟! كان أبي دومًا يتحمم في اليوم ثلاث مرات، ويغضب أمي باستهزائه من عدم فعل ذلك مثله . كانت ترد عليه دائمًا بأنه لا يمتلك شعرًا طويلًا ليعرف كم من الصعب تعرضه للبلل دائمًا، وبأن هذا يتلفه أيضًا. لكن الآن، أن تفوح منه رائحة كهذه، فهذا أمر لا أستطيع تقبله أبدًا .. اكترثت أكثر في تلك اللحظة

بسعادتي البالغة بوصول رسالة من أمي، وما إن فتحتها حتى قرأناها سويًّا، كلٌّ في سريرته..

" حياتي، حياة...

ها أنا أمضي الأيام انتظارًا لك ولأبيك. لا أستطيع التنفس هنا بدونكما.. تمر عليَّ الأوقات وكأنني جثة هامدة، ولكنني أعمل على الاستشفاء والعودة إليكما معافة لنكمل حياتنا سويًّا في سعادة وهناء. أريدك فقط أن تهتمي بدراستك، لأنني أريد أن تكملي تعليمك هنا بجانبي إذا طالت فترة علاجي. أعتقد أيضًا أن أباكِ ترك أعماله في وطننا، تجهيزًا لرحيله معك، كي يكون بجانبنا دائمًا، فكلانا لا يريد سوى أن يراكِ في أفضل المستويات. أنتِ حياتنا الوحيدة. أنتِ من سيجعل لأسمائنا معنى بنبوغك، حتى بعد فراقنا - لا قدر الله -.. أنا معك دائمًا .. أراكِ قريبًا..

مع عشقي..

أمك".

أغلقت الحاسوب، وبادرت أبي بالحديث قائلة، بروح سعيدة ووجه مبتسم:

- ها قد تأكدت أنها لا زالت تحبك، وتنتظر كلينا لنذهب إليها . لم يعد هناك ضرورة لهذا الوضع الذي أنت فيه.. اذهب وتحمم وأنا

سأحضر لكلينا عشاءً جميلًا، من الأشياء التي ملأت بها جدتي مطبخنا، الذي لم ندخله منذ فترة طويلة. اتفقنا؟

لم يعبِّر أبي عن أي ردة فعل. لم أستطع أن أرى فيه السعادة التي غمرتني، ولا أستطيع فهم السبب أبدًا . لكنه وبدون أن ينبس ببنت شفة، قام من مكانه واتجه إلى دورة المياه المخصصة لغرفته فقط. نظرت اليه بابتسامتي نفسها، وذهبت إلى المطبخ لأحضر العشاء، فقد هلكت معدتي من الأكل السريع..

خرج أبي وقد أعددت مائدة الطعام. جلس أمام الطعام، ثم نظر لي وأنا أجلس بجانبه، ولم تعد تزعجني رائحته ثانيةً، فقال لي:

- كيف لم ألاحظ من قبل أنك تشبهينها لهذا الحد؟

- هل حقًّا؟ سألته.

- لا أستطيع مقاومة رؤيتها في عينيك، وطريقة كلامك.. الغريب أنني لم أرَ ذلك من قبل. هل سكنتك؟!

- هي بداخلي منذ ولادتي بالفعل يا أبي. كانت تقول لي ذلك دائمًا.. أجبته رغم أنني لم أفهم سؤاله بوضوح، ثم تابعت كلامي قائلة:

- هيا تذوق طعامي وقل لي رأيك.

ظل ينظر لوجهي بشكل متواصل مخيف. لاحظ ارتباكي لهذا، فابتسم وبدأ بتناول الطعام، وقال لي:

- سلمت يداك، إنه لذيذ جدًّا يا رغد..

رغد!! هل جُنَّ أبي تماماً وظن حقًّا أنني أمي؟! لا أفهم لماذا يلاحقني الاختلال العقلي من قِبل كلٍّ من والديَّ؟ كنت أظنه العاقل الوحيد في هذا البيت! ولكني لم أعلق على ما قاله . ربما كان أبي أضعف منِّي نفسيًّا بكثير، فبينما أنا تحملت غيابها، وأدركت وقعه عليَّ، ثم واجهته، كما علمتني أمي دائمًا أن أكون واعية لكل ما يحدث بداخلي كي أتغلب على أي شيء برؤيتي الواضحة لنفسي البشرية، لم يكن أبي عالمًا ولا فيلسوفًا، ولم يقرأ كلمة في علم النفس في حياته . هو فقط رجل طيب محب وضعيف؛ لأنه لا يعرف نفسه جيداً، ويرى الأمور من منظور ضيق جدًّا، علي عكسي تمامًا...

تناولنا عشاءنا، وقمت بغسل الأطباق . بعدها دخل هو في هدوء وبدون أي كلمة أخرى إلى غرفته مجدداً. عندما أنهيت ما أفعله، دخلت إليه وسألته عمَّا إذا كان يريد أن يقول شيئًا معينًا لأمي، قبل أن أدخل غرفتي بحاسوبها، لأبعث إليها برسالة جديدة قبل نومي، لكنه قال لي إنه سيتواصل معها على طريقته فيما بعد!

قبَّلته لأول مرة منذ فترة طويلة جدًّا وتمنيت له أحلامًا سعيدة . عندما تمنى لي نفس الشيء في المقابل، أخبرته بأنني سأحلم بالذهاب إلى أمي قريبًا... ردة فعله كانت غريبة، فقد أمسك يدي وقبَّلها، بينما أحنى رأسه تمامًا فوقها، ولكنني استطعت رؤية تجاعيد جبهته وهي تتزايد، وكأنه يشعر بالأسى والرفض لما قلته، وكأنني قلت له لتوِّي، أنا سأتركك إلى الأبد!.. لا بد وأن أبي قد جُنَّ! يجب أن أبحث في كتب علم النفس عن حالته لأحاول مساعدته على الشفاء. على الأقل لأنني أعرف أن أمي تحبه جدًّا ولا تريد أن ترى فيه سوءًا أبدًا. دخلت غرفتي لأرسل رسالة لأمي وأنام في هدوء، ولكن مجددًا، سمعت صوت بكاء أبي.

مضت شهور قليلة. تغير كل شيء، إلا حالة أبي، التي ساءت يومًا بعد يوم، حتى أتت جدتي وسكنت معنا لتعتني به، رغم محاولاته العديدة لإبقاء كل الناس بمن فيهم أنا، بعيدًا عنه... لم يصبِّرني على تلك الأيام الصعبة إلا أنني وأمي أصبحنا نتحدث على تطبيق للمحادثات عن بعد كل يوم.. أحكي لها عن أيامي وعن حالة أبي وتشجعني على الاعتناء به، وتطمئنني بأن حالته السيئة تلك لن تطول، لأنه حالما يذهب إليها عمَّا قريب سيكون بخير، وأفضل حالًا مما كان قبل سفرها .. لم

توافق ولو لمرة أن تجعلني أرى نورها عبر كاميرا الهاتف أو الحاسوب. كانت تدَّعي أنها تخجل من شكلها المريض وكأنني أكترث!!

كم أزعجتني حالة أبي، وكم أزعجني أنه وأمه لا يرياني ! حتى عندما اقترحت أن نقوم بزيارة لطبيب نفسي، من أجله، نظرا إليَّ ببرود، ثم نظرا إلى بعضهما البعض وتجاهلا كلامي !.. أشعر بوحدة عظيمة تنهش كل جميل زرعته فيَّ أمي من قبل. الشيء الوحيد الذي يجعلني أصمد هو محادثتي اليومية معها، وأمل الوصول إليها، خاصةً بعد أن أخبرتني ليلى بأنه يمكنني الذهاب قبل انتهاء العام الدراسي الحالي، لأقوم بالامتحان في مدرسة عامة بجانب منزلها. لم أعد أستطيع النوم منذ عرفت ذلك، وأريد أن أذهب في أقرب وقت ممكن... رغم ذلك، كلما ذكرت لأبي أنني سأذهب إلى هناك، كان يصرخ في وجهي ويقول لي إنه لن يسمح لي بالابتعاد عنه أبدًا. لم أفهم لماذا لم يرد أن يذهب، أو ربما أنا أنانية للغاية! حتى أنني لم ألاحظ أنه لم يعد يستطيع الحراك، والتزامه الفراش يصعِّب عليه السفر، وأنا بقولي أني أريد الذهاب إلى أمي يعتبر تجاهلًا وعدم مبالاة له. من المؤكد أنني أزيد آلامه!

❁❁

(٧)

راسلت أمي هذا اليوم لأتحدث معها في موضوع قد اخترته أنا تلك المرة بدلًا منها، وبعد أن ألقينا السلام سألتها:

- لماذا تعتقدين يا أمي أن كل مشاكلك النفسية تكونت لأنك ولدتِ أنثى في مجتمع عربي؟! أنا ولدت بنفس ذاك المجتمع، ولم تتكوَّن عندي نفس المشاكل. لا تؤرقني أقوال الجهلاء، بأن الرجل ليس مثل الأنثى، مثلك، بل إنني فقط أشفق عليهم !

فقالت لي:

- لأنك يا حبيبتي لم تولدي لأحدهم . كان أبوكِ رجلًا عظيماً، يعرف الحب ولا يعرف كيف يعطيه. لم يشعرك يوما أنكِ ناقصة وأنك أتيتِ إلى الدنيا عالة عليه يجب أن يتخلص منها، أو أن يحبسها قبل أن تأتي له بعار، لأن هذا هو كل دورها في الحياة. كان سنداً لك وعوناً كما يجب أن يكون الأب لابنته . يشجعك ويحفزك ويفتخر بك. لا يتحدث عليك مع أي شخص

عن خوفه منكِ، رغم براءتك، ولا يتهمك بما ليس فيكِ، لأن كل توقعاته من أنثى، أن تأتي بفاحشة، بعد أن يخدعها الذئب بكلماته المعسولة. لم تولدي مثلي لشخص لا يعرفك، ولم يجرب أن يضمَّك يومًا عندما تبكين . كان كل ما يشغله هو تغطيتك لأنك خُلقت للجنس ومراقبتك؛ لكي لا تقعي فيما خُلقت من أجله، قبل أن يعطيك بيده لمن يفعل ذلك بك بدون فضيحة!

لم تحبي الفلسفة منذ صغرك، ووجدت عند قراءة كتب، عظيماً يناقش من ماذا صنعت الأنثى ولمَ هي مصدر الشر في الكون، مثل عندما كتب نيتشه في كتابه "هكذا تحدث زرادشت" عن المرأة قائلًا : "إن حب المرأة ينطوي على تعسف وعمى البصيرة عن كل ما لا تحبه ... المرأة كائن غير قادر على الصداقة، فهي لا تزال كالقطط، أو الطيور، أو الأبقار على أفضل الأحوال". ولم يكن الأول، فقد كان أرسطو من قبله الأكثر تعسفًا وسذاجة في آرائه عن المرأة، فمن أشهر أقواله : "المرأة لا تصلح إلا للإنجاب" وكأنها ليست بشرًا بل فقط بهيمة.. بينما يعبر أستاذه أفلاطون في "جمهورية أفلاطون" عن المرأة قائلًا على لسان سقراط: "إن إعادة الروح الإنسانية إلى المرأة، لا تتم إلا بالانتفاع الكامل منها في الدولة والمجتمع، وهذا في

حد ذاته لا يحدث إلا إذا حُررت المرأة من السجن المنزلي التقليدي، والدور المرسوم لها قبل ولادتها.“

أترين يا صغيرتي لماذا عليَّ أن أكون حقل تجارب أصلًا، يتفلسف حول طبيعتي المتفلسفون ما بين مع وضد؟ لماذا صعب على الرجال كاملين العقل أن يروا المرأة إنسانًا، يكبر على ما نشأ عليه، ويتصرف حسب الطبيعة التي فُرضت عليه من صغره، عوضًا عن أن يكون مجرد كائن مبهم، يحاول الباحثون في أسرار الكون فهم تكوينه، وكأنه أتى إليهم من الفضاء؟! إذا كنت غبية بقدر ما كانوا أغبياء سأبذل جهدًا ذهنيًّا وأضيع وقتي في إخراج نظريات حول طبيعة الرجال، بل أعمم تلك النظريات لتشمل جنسًا بأكمله . بدون مجال للاستثناءات أيضًا..

وإن كانت هذه أقوال قدماء الغرب نحو المرأة، وقد استطاعوا تخطّي عقبة التفرقة الجنسية البلهاء تلك، فلا زلنا في شرقنا هذا في نفس المأزق الذي كانوا فيه من آلاف السنين، ولم نتخَطَّه بعد. بل إن كان هناك ما تخطيناه، فهو الحد الأقصى المسموح به للإنسان لأن يبقى حيًّا في ظلمات الجهل...

لم أسمح أنا لأن يعلمكِ أحد أنك أكثر أهل النار، وأنك ناقصة، وأن الملائكة لا تدخل البيت لأنك تجلسين بشعرك مكشوفًا .

وأنك إن تدخلتِ بسياسة دولة ستفشل. وبأن كل هذا من عند الإله الذي صنعكِ بيده ويعرف أنك عكس ذلك، وأن عقلك ينضج قبل عقل الرجل، وأن بإمكانك الاختراع وإضافة علم، وريادة قارة، بعقل لا تتدخل به العاطفة التي مُيزت بها عن الرجل، فأضافت لك ما ليس عنده، ولم تؤثر بذلك على رجاحة عقلك وحكمك على الأمور فيما تعلمتِ وفيما تفقهين..

أنتِ ولدت لأم علمتكِ أن النوع الجنسي ليس إلا وهمًا، وبأن الصفات الشخصية تُكتسب من المجتمع ومن التربية فقط. فإذا وَلدتِ ذكرًا وربيتِه على أنه ضعيف ومنكسر، وهكذا خلقه الله وكتب عليه، سيكبر ضعيفًا منكسرًا . أو إن علمتِه أنه فاشل فسيصبح فاشلًا لا محالة.. فكم قابلت أنا ذكورًا عاطفيين لدرجة البلاهة، وكم قابلت نساءً قويات لا يخفن في الحق لومة لائم ولو على فلذات أكبادهن!..

ولكنني تعلمت ذلك وعلمته لنفسي بعد أن أشبعوني عقدهم النفسية وأنا قطعة لحم لا أفقه شيئًا رغمًا عني. طبيعتي التي حتمت عليَّ التفكير قبل التصديق، والمواجهة بعد مراقبة كل شيء حولي، أنقذتني من اتباع الجهل، بينما أنتِ أخذتِ الخبرة جاهزة، دون معاناة نفسية تلاحقك أينما ذهبتِ، وقد حرصت على ذلك.

عشتُ طويلًا أعتقد أن عقلي عقل رجل، وجسدي جسد أنثى! لا يعني هذا أنني أظن في قدرات عقلية، يمتلكها الرجال دون النساء. أو أن هناك فسيولوجيا ما تنقصهن عن الرجال . لكن في مجتمعاتنا الشرقية، أتفه جلسة للرجال الفارغين تماماً، لهي أفضل بكثير من أفضل جلسة عند النساء . كم كرهت الجلوس وسط أشخاص لا يتحدثون إلا عن وظائفهم الفسيولوجية، لا يتحدثون سوى عن الأشخاص، إن كانت في غيبة فتيات أخريات، أو مرار العيش مع أزواجهن، أو مسؤولية أولادهن ! لا يجدن الحديث إلا عن قصص الحب الفاشلة، وأشهى المأكولات، وأفضل نوع حفاضات في السوق . فقط أجاريهن، وبداخلي يريد الهرولة هروبًا لأقرب غرفة بها النوع الآخر. ففي أسوأ الحالات سيتحدثون عن خطبة الجمعة التي لا أحضرها، لأعرف ما يدور بداخل رؤوس شيوخهم، أو عن صعوبة العيش في طبقة كادحة كربِّ أسرة، أو حتى الروايات السياسية الخيالية المروج لها بينهم قصداً، على شاشات الإعلام الفاشل، ولكنها أيضًا تساعدني على رؤية الكثير من عيونهم، وربما تسلِّيني قليلًا!

يبني شرقنا تهافته على التقليل من شأن المرأة مقارنة بالرجل، على أسس دينية؛ مما يعقِّد الأمور أكثر نحو فهم أعمق ورؤية واضحة للواقع كما هو. ما أضحكني كثيراً، هو إصرار المدافعين عن هذه النظرية التي تقول إن النساء ناقصات عقل، بأن هذا يكمن في كون المرأة عاطفية أكثر من الرجل، وتحكم على الأمور بقلبها أكثر من عقلها ! بينما في الواقع التفسير كان واضحاً جدًّا عندما سألت النساء رسول اللهِ: وما نقصان عقلنا؟ فقال: أليست شهادتكن بنصف شهادة الرجل؟ فهذا من نقصان عقلكنَّ. وإذا كان الأمر نابعًا تماماً من عاطفة المرأة، لقيل هذا منذ زمن، ولكنهم فقط الآن يريدون أن يثبتوا أي شيء بتأليف أشياء ليست لها علاقة بصحيح الأمور.. إذن، لنفند السبب وراء نقصان عقل المرأة، والذي هو أن شهادتها بنصف شهادة الرجل، ونتخيل مشهداً بسيطًا جدًّا...

لنأتِ بعالمة الكيمياء "دوروثي هودجكن "، والحاصلة على جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٦٤، لاكتشافاتها العلمية، التي أضافت لعالم الرجال كاملين العقل. ولنضعها في مجلس مع رجل دين، نشأ في علوم الفقه والتفسير، لتحدثه عن علومها . من سيكون في هذا المجلس أنقص عقلًا وهو لا يفهم أقل مصطلح علمي تنطق به أمامه؟ كيف سيقول لها إنها أقل منه

عقلًا، وأنها نصفه في كل شيء، حتى إذا وقفا أمام محكمة للشهادة، كيف تكون شهادتها بنصف شهادته فقط، لأنه ذكر وهي أنثى، بينما كل الواقع أنها أعقل منه بمئات المرات؟! كيف تقول لها إن ديتها إذا ما قُتلت بنصف ديته، لأنها أنقص منه في كل شيء؟! هل هكذا تقاس الأمور، وهل لأنهم يصنعون من نسائهم مجرد جاهلات عورات، يقطنَّ المنازل لتلبية حاجيات أزواجهن الجنسية، تكون حجة على نساء العالمين، بأنهن مثل نسائهم، بعد أن صنعوا هم منهن لا شيء؟!

هل الغرب متخلِّف إلى درجة أن يضع مرأة في منصب قاضٍ، بينما هم يعرفون جيدًا أنها ستحكم بعاطفتها، بينما تنفذ القوانين الصارمة، التي بدورها هي السبب الرئيس لتماسك المجتمعات الغربية، حيث لا يوجد محسوبية؟ ! هل تكون كل نساء العالم أنصاف بشر، بينما كل رجال العالم كاملين عقل، حيث عندما نحتاج لرأي مهني في علوم الاقتصاد، للحكم في قضية ما أمام المحكمة، نأتي برجل تخرج في المدرسة في المرحلة الثانوية، ليدلنا على المعطيات الصحيحة في الحكم، لأن ذكورته عامل يكفي للبت في رجاحة حكمه و آرائه، بدلًا من أن نأتي بعالمة مثل "إلينور أوستروم " التي حازت على

جائزة نوبل في الاقتصاد عام ٢٠٠٩، لأنها أنثى، وبالتأكيد مهما علت، تكون بالضرورة أنقص من هذا الأول عقلًا وحكمة؟!..

- أتمنى يا أمي أن يكون في الشرق تساوٍ كامل بين الرجل والمرأة..

- لا، يا صغيرتي. إن أغبى النساء من تتطلع للمساواة المطلقة بالرجل، فهي بذلك تعزز من مكانته، وكأنها بالفعل أقل منه، وتريد أن ترتقي لمستواه .. مشكلة شرقنا يا عزيزتي هو التطرف الفكري في كل شيء. فهناك تجدين، إما نساء يعلنَّ بكل وقاحة أنه لن يفلح قوم ولُّوا أمرهم امرأة، وبأنها ناقصة عقل، أو تجدين نساء يتشبهن بالرجال في الملبس وطريقة الكلام ويعلِنَّ بكل وقاحة وجهل أيضًا أن النساء مثل الرجال تمامًا في كل شيء !.. ألم أقل لكِ إن الوعي والإدراك هو العقل، وأنه لا وجود لخير إلا في أواسط الأمور؟

- ما هو الوسط بينهما إذن؟

- الوسط هو أن نفهم تمامًا، بأن الرجال والنساء مختلفون على نحو ما، لا يمكن نكرانه أو تجاهله.. وإن كانت المرأة في يومنا هذا استطاعت إثبات أن بإمكانها الوصول لكل المناصب، والعمل بكل الأعمال، حتى الحرفية، التي تحتاج قوة عضلية، فهذا لا يعني أنها أشياء يمكنها التطبيق على كل النساء أيضًا .

أحيانًا تكون للضرورة، لكن طبيعة المرأة أن تعطي بجانب ما يعطيه الرجال أشياء كثيرة، مثل الجمال والأمومة والرقة.. تريد معظم نساء العالم أن يأخذن حقوقهن ويصبحن مثل الرجال في كل شيء، وهذا تقليل من شأنهن عظيم . في وطننا العربي، تجدين من يرفعن شعار حرية المرأة، هن الأكثر تعقيدًا والأكثر تشبهًا بالرجال، وكأنهن يقلن للعالم، لن نفلح حتى نصبح مثلكم، حتى في طريقة الملبس والكلام. هذا ليس أمرًا طبيعيًّا وسويًّا مطلقًا، بل الطبيعي أن تحبي نفسك كأنثى، وتتحدثي وتمشي وتلبسي مثل أجمل النساء، ثم لا تسمحي لأي شخص مطلقًا أن يقلل من قدراتك . وهذا لن يحدث إلا عندما تثبتين بالمواقف والنجاحات أنكِ إنسان كامل، لا يحق لشخص أقل منك عقليًّا أن يتحكم بك وكأنك طفل، لمجرد امتلاكه عضوًا ليس موجودًا في جسدك، وأن تفتخري دائمًا وأبدًا بكونك أنثى، بدلًا من أن تتملقي لرجولتهم الزائفة، التي هم أيضًا ظُلموا بها عندما تعلموا عنها كل أشكالها الخاطئة والبشعة..

- كيف يكون الجنس مجرد وهم إذن؟

- الجنس وهم؛ لأنه وبحسب كل ما شاهدت من حولي، وأنا في صراع الأنثى التي بداخلي، وتريد أن تختفي، ليتم تقدير

الإنسان الذي هو أنا كما يجب، كان أنني رأيت كثيرًا من الرجال عاطفيين، إلى درجة لم أستطع أنا نفسي تحملها. عندما نظرت إلى ما وراء الظاهر، وجدت أن نشأتهم كانت كذلك، فكبروا ذكورًا هشين، يبكون سريعًا على أي شيء، ولا يستطيعون تحمل أي قدر من المسؤولية، أو مواجهة الظروف القاسية التي قد يتعرضون لها.. بينما وجدت على الجانب الآخر، نساءً رجالًا - إذا كانت هذه مجاملة - يعملن ويصرفن على أولادهن وأزواجهن، الذين يجلسون في المنزل، بل وبجانب هذا يقومون بدور ربات المنزل، والأم بشكل كامل ! كما أنني رأيت رجالًا بداخلهم أمومة عارمة، أكثر من زوجاتهم القاسيات على أطفالهن. ورأيت نساءً يستطعن قيادة مشاريع بكل حزم، ورجالًا لا يقدرون على إكمال عملهم الصغير على أكمل وجه، كما طلبت منهم رئيستهم في العمل!

إن الشخصيات والطبائع تُتوارث وتُكتسب على حسب نشأتنا جميعًا كبشر. فأنا مثلًا أنثى، ولكنني تربيت على يد رجل علمني بشدة أن البكاء ضعف؛ فما بكيت يومًا! هناك نساءٌ عقلانيات، ورجال عاطفيون، وكلنا على حسب طريقة نشأتنا، والظروف التي تعرضنا لها منذ صغرنا. لكنني أجد أن الطبيعة الإنسانية هي الشيء الذي يجب أن يعمَّم بين الناس . فالرجال في

شرقنا يخشون البكاء لظنهم أنه ضعف، بينما في الحقيقة، إظهار المشاعر عند الحاجة لذلك هو قمة القوة . "بعيدًا عن الذين ييكون ليل نهار من الرجال والنساء لأنهم يثيرون اشمئزازي"..

إذا تعلمت امرأة علم الفيزياء، فالبطبع ستكون أفضل فيه من الرجل الذي تعلَّم القانون، والعكس صحيح .. هكذا هو أن الجنس وهم.. كل ذكر في هذا الكون يحمل بداخله أنثى، وكل أنثى كذلك تحمل بداخلها ذكرًا. ما يحدد تفوق ظهور نوع على آخر في شخص ما، هو التنشئة والمكتسبات الاجتماعية، التي تجعل كلًّا منهم يتعامل على أساس الصفات التي أشبعوهم بها، على أنها طبيعية، ومن شذ عنها سيصبح منبوذًا بشكل تلقائي!...

ما يجب أن تعرفه مُحاولات الدفاع عن حقوق المرأة في مصر، أنها تضع نفسها ونوعها في خانة أقل، وكأن النساء مثل الحيوانات تحتاج لمن يدافع عن حقوقها. كأن المرأة تحتاج إلى أن ترتقي لأن تكون ذكرًا، فيلبسن هن مثل الرجال، ويقصصن شعورهن وكأنهنَّ يُعلِنَّ للعالم أنهنَّ ضعيفات، وأنهن يحتجن لأن يقلدن الرجال ليصبحن أفضل، أو لإثبات أنهن لسن أقل!!

النساء لن تصبح يوماً مثل الرجال، ولا يحتجن لأن يصبحن مثلهم. كل نوع خُلق بشكل وتفاصيل مختلفة، ويجب لهذا أن يُقبل.. يجب على النساء أن يؤمنَّ بأنهنَّ لسن أقل بالفعل، لكي تقف محاولات التقليد المثيرة للشفقة . النساء يملكن العقل الذي يحتجنه لتقديم العلوم والإضافة إليها وبجانبه، ويزيدها على ذلك، امتلاكها لحس مرهف وعاطفة لا يمتلكها أغلب الرجال، وليس هذا لينقصهن، بل فقط يزيدهن صفة إنسانية أخرى إلى جانب العقل. لا يمكن أن يخلق الله كائنًا بهذا الكمال والجمال ثم ينبذه وينعته بالناقص وهو صانعه ومتقنه! يخطئ من يقول إن المرأة قوتها في ضعفها، فضعف عضلات جسدها ليس بضعف على الإطلاق، ولكن الضعيف في أي الجهتين هو من ذبل عقله ومات. وأغلب العقول في مجتمعنا قد واراها التراب. تصديق النساء وتقبلهن لأن يكن ناقصات عقل ودين، هو قمة نقص العقل.. مجتمعكن جعلكن ناقصات عقل ودين، وقد ولدتكن أمهاتكن عكس ذلك.. حاشا لله أن يخلق الجمال بناقص، والدهاء بأبهى حلله في كائن غبي ! تخليتن عن نعم كثيرة لتخضعن للحال القائم في مجتمع منحل نفسيًّا، وأصبحتن ناقصات عقل ودين حق، يدافعن عن حقوق ناقصين عقل ودين وآدمية ورجولة !

كلنا بشر، وكلنا لنا قدرات، وإن اختلفت أو تغيرت نسبتها بين الرجال والنساء.. تستطيعين أن تصلي لأي شيء تريدين لأنك تملكين كل شيء يؤهلك لذلك، لكن حماقتك وصوتك العالي المهتز، لشعورك الداخلي بأنك ينقصك شيء، يثبت للعالم الذكوري أنك ضعيفة... ثقي بأنوثتك واعترفي بعدم احتياجك لأن تكوني مسخًا من جنس آخر لكي تصلي لنفس منصبه . توقفي عن الحقد ورغبة الانتقام النابعة من كرهك لمن يملكون العالم بأيديهم، وحينها فقط سوف يتوقف العالم عن وضعك في خانة، أنتِ أول من رسم خطًّا فيها... كوني إنسانًا كاملًا، عاقلًا، يعرف قدراته ومميزاته ويعترف بما لا يملك من صفات النوع الآخر، لأنك تملكين ما لا يملكون هم، ولكنهم لا يرون بذلك عيبًا مثلك.. كوني أنثى، فالبنت لم تكن يومًا مثل الولد ولا تحتاج لذلك!

كل ما يجب على النساء فهمه هو أنهن بشر، يستطعن فعل أي شيء طالما تعلمنه بشكل مناسب، ولكن لا يعني هذا أن عليهن التوقف عن كونهن إناثًا والتخلي عن طبيعتهن الرقيقة، المختلفة عن طبيعة الرجال ليقمن بأعمالهن.. وإذا ما اختارت المرأة، أية مرأة، أن تعمل في بيتها لأن تلك رسالتها السامية، فيجب أيضًا أن تتعلم مسبقًا كيفية القيام بهذا الدور، لتقوم به

على أكمل وجه وهي تنشئ جيلًا جديدًا، بدل تلك العاهات التي نراها كل يوم، والتي قام بتربيتهن امرأة لا تعرف حجم وظيفتها في تربية أبنائها... بل فقط هي تعلن أنها لا تستطيع القيام بأي دور آخر، لأنها ضعيفة وقليلة العقل، وبالتالي تجلس في البيت وتربي ذكورًا أضعف منها عقلًا بكثير!..

قابلت يومًا ما سيدة من أقاربي لديها ثلاثة أطفال، في سن المراهقة. كانت تتفاخر بأنها تعمل وتنفق على نفسها . كانت موظفة في إحدى الشركات، ولم تكن تجد شغفًا في عملها، ولم تكن تحتاج إلى ماله، لكنَّها فعلت ذلك لكي لا يُطلق عليها لقب ربة منزل. رأيت أولادها، منهم المنفصل عنها نفسيًّا تمامًا، ومنهم المضطرب، وكان هذا طبيعيًّا في مثل هذه السن. لكن استفزني أن جميع أقاربها لاحظوا أن أولادها ليسوا ناجحين، وينقصهم الذوق العام في التعامل مع الآخرين . أدركت أنهم فقط يحتاجونها، وهي لا تفكر سوى بمظهر اجتماعي فارغ، وصعب عليَّ أنني أيقنت أنها خسرت أولادها، من قبل أن يكبروا وتتفاجأ بذلك، فيما بعد، يومًا ما.

قلت لها عندما اعترضت بشكل واضح على مكوثي في البيت من أجلك، ونصحتني إن احتجت لمراعاتك بأن أعيّن مربية لك في المنزل وقت غيابي: "كم يؤلمني النساء اللواتي يفضِّلن

عملًا بائدًا من أجل بضعة نقود تُصرف كلها قبل نهاية الشهر، على عمل ذي قيمة لا تُقدَّر بأثمان العالم أجمع . يذهبن إلى عملهن ويتركن العمل الأهم والأسمى، لتقوم به امرأة غيرها، إما مقابل مال أو لقرابة.. منظومة مختلة كليًّا، لا يمكن أن يكون صحيحًا أن تعمل امرأة لتربية أبناء غيرها لكسب المال، بينما تعمل أمهاتهن أعمالًا أخرى لكسب المال أيضًا، الذي لا قيمة له مقابل التخلي عن أعظم دور من الممكن أن تقوم به أي امرأة!...

المرأة إنسان، ليست أقل أو أكثر من الرجال في شيء، عندما يرتبط الموضوع بالطموح والمستقبل. اعملي إن كان لديكِ حلم وهدف لا ترين نفسك بدونه . لن تكوني أبدًا أمًّا جيدة إلا بتحقيق ذاتك. إن وجدتِ ما تعيشين له، ولا يفعله سواك بمثل مهارتك، فافعليه وطوري ونمي من نفسك، وستجدين أنك أفضل الأمهات. ليست كل أم قابعة في منزلها بدون هدف حياتي سامٍ، تعرف معنى وقيمة التربية. بل إن أكثرهن، ينجبن وينشئن أطفالًا بالصدفة البحتة، ولا يضفن بإنجابهن هذا أي شيء للبشرية . المرأة التي لديها هدف، تعرف جيدًا قيمة الأشياء، وبطموحها لن تتخلى عن أهم جزء في كينونتها، وهي

الأرواح التي أتت بها إلى الدنيا.. عندما تجدين نفسك وتتجحين، ستكونين أمًّا ناجحة..

ولكن، إن لم يكن هناك من الأساس ما تطمحين للوصول إليه، وروحك ليست متعلقة بهدف معين، لا يمكن أن تكتملي بدون تحقيقه، فلا تتخلي عن عمل أعطاه الله لك، تبني به حياة كاملة ومجتمعًا. لا تسفّهي من قيمة أمومتك، فهي كل شيء . إذا اخترتِ يومًا أن تأتي بأناس لا يفقهون شيئًا إلى هذه الدنيا الظالمة، فاعلمي أنك بذلك قد اخترتِ وظيفة ليس بعدها وظيفة، ولا تساوي جنيهات شهرية أبدًا قيمة ما تتركين لامرأة أخرى أن تقوم به، لأنك بهذا تكونين قد ظلمتِ أطفالك أكثر من الدنيا نفسها..

اعلمي أنه عمل، ولن يقلل منك أن تكوني أمًّا تحمل رسالة للحياة، وهي تنشئة أناس أصحاء نفسيًّا وعقليًّا، في مجتمع مريض يحتاج لكل شخص جيد لكي لا ينهار تماماً . لا تستبدلي الذي هو أدنى بالذي هو خير وتتخلي عن عمل ذي هدف عظيم وسامٍ، لتكوني موظفة، تتقاضى مالًا، ينفد ككل شيء مادي آخر، وتدفعي هذا المال لامرأة أخرى لتراعي أطفالك . فأنتِ بهذا لا يصح أن يطلق عليكِ لقب أم..

إن كنتِ مضطرة إلى العمل لكي تأمني شرور الدنيا، فاعلمي أن تربيتك الجيدة، تأمنك مكر كل شيء قبل المال. إن كنتِ قد تزوجتِ من ذكر، لا يصح عند الكلام عنه ذكر كلمة رجل، فقد كانت غلطتك من البداية أن تنجبي منه أطفالًا، فالمرأة التي لا تتأنى في اختيار أبٍ لأولادها لا تستحق أن تصبح أمًّا لهم .. اصنعي مشروعًا ولو صغيرًا، حتى تكوني بجانب أبنائك، وتملكي وقتك بيدك، إن احتجتِ المال.

لكن إن كنتِ كما أرى، تعملين من أجل الوظيفة والقروش، وترمين أبناءك لأناس آخرين يراعونهم، وتعيشين دون هدف، لا في وظيفتك، وبالطبع لا في بيتك، لأنك لم تقدِّري قيمة الأبناء من البداية، فمثلك هو كل شيء خطأ في هذا العالم . لا أنثى تملك حلمًا وهدفًا واضحًا في الحياة، ولا تحتاجين للمال لتتركي أبناءكِ، ولكنك تفعلين وتتركينهم، وأظنكِ لو جلستِ معهم لن تعلميهم شيئًا أبدًا، فأنتِ فارغة، وما أكثركِ في هذا المجتمع!

الأمومة إذا كانت هي دور معظم نساء العالم، فيجب أن نعطي لهذا الدور قيمته الحقيقية، فأنا رأيت نساءً كثر، التزمن منازلهن، ولكن لم يقمن بإضافة أي شيء يذكر في تربية الأطفال، بشكل صحي، بل زرعوا فيهم عقدًا نفسية، ثم أخرجوهم إلى الشوارع، ليخرجوا هذا العته على مجتمع

بأكمله.. يجب أن تتعلَّم المرأة جيداً، تتعلم أي شيء تريد أن تعمله، مهما كان، فهي تستطيع. فقط يجب عليها عند القيام به، أن تفعله على أكمل وجه، حتى لو كان كونها ربَّة منزل!

طبيعة الانثى، والتي لا يمكنها مقاومتها، مهما حاولت، هو أن تحتاج لصنع عائلة، بها رجل يشعرها بالأمان والدفء، إذا وصلت إحداهن لسن الثلاثين وليس لديها شريك، ومهما كانت متفوقة في عملها بحيث يحسدها الجميع على نجاحها، لا تزال تشعر بأن ثمة ما ينقصها . مهما حاولت عدم الاكتراث، لا تستطيع إلا أن تفكر بتلك النقطة، فالنساء يحببن أن يشعرن بأنهن غارقات، وهناك رجل قوي ينقذها، ويخرج بها إلى البر، ثم يحتضن كل جسدها ليشعرها بالدفء. فبينما يحتاج الرجل لدقيقتين للوصول لنشوته الجنسية، وهذا هو كل التواصل العاطفي الذي يتطلع إليه، تحتاج المرأة لمعانقة حميمية أمام التلفاز لساعات، وتحتاج لنصف ساعة من القبلات، كي تأخذ احتياجها من العاطفة من حبيبها . المرأة مركَّبة، فبينما تملك جميع صفات الرجال، تملك أيضاً ما لا يعرف الرجال عنه أي شيء، وهذه اختلافات واضحة لا يمكننا أن ننكرها، ولكن لا يمكنها أيضاً أن تعيق المرأة أن تصبح أي شيء تريد أن تكون!

- ولكني لا أستطيع يا أمي إلا أن أرى أن النساء أعظم بكثير من الرجال. فبينما أنتِ أفنيتِ عمرك من أجل تنشئتي، أفنى أبي عمره في عمله فقط، الذي لا يستطيع به أن يترك أثرًا . وكم رأيت أنك أقوى منه بكثير، وتستطيعين تحمل الآلام عنه، بل وتداويه وأنتِ من به وجع!

- يا حبيبتي، هناك الكثير من الرجال، يحملون همَّ العالم فوق رؤوسهم، بينما نساؤهم لا يفعلن أي شيء مفيد، ولا حتى مع أولادهن. إن كان عليكِ تعلم شيء لا تنسيه أبدًا، من الآن فصاعدًا، فهو أن لا تعممي أبدًا جملة واحدة، على أي فصيل بأكمله، لأن هذا مؤلم فعلًا، خاصةً لو أن هذا التعميم أصبح مقدسًا!! الرجال الذين يعممون أن النساء أضعف وأقل شأنًا وعقلًا منهم، دون الشعور بأي نقصان في عقلهم هم، بقول ذلك، رأيت منهم الكثيرين، يشعرون بالجرح ويأخذون وضع الدفاع النفسي، عندما تتهمهم النساء بأشياء مطلقة، ولكنها في الحقيقة نسبية..

- أعطيني مثالًا.

- كانت هناك مقولة شهيرة للشاعر السوري نزار قباني، يقول فيها "سيدتي، كوني على يقين، أنا وجميع الرجال، كاذبون "، وتمسكت بتلك المقولة في فترة ما نساء كثيرات؛ حيث أصبحت

بمثابة حقيقة مطلقة، يعممنها على الرجال من مبدأ "وشهد شاهد من أهلها ". لكني صدمني رد فعل الرجال على هذا التعميم. رأيت منهم من استشاط غضبًا لوقوع الظلم عليه بجملة كهذه، بينما هو في حقيقة الأمر من أخلص الناس لزوجته، ولا يرى غيرها، ولا يحتاج أبدًا للكذب عليها لأنهما صديقان، وتعجبت ممن لم يلاحظ مدى التشابه بين جرحه هذا، وبين جرح النساء عندما نتهمهن بأنهن جميعًا ناقصات عقل، بل ويكون هذا التعميم إلهيًّا غير قابل للنقاش أيضًا، فقط قابل لإيجاد الحجج التي تثبته بأي طريقة، مثل أنهن جميعًا - بلا استثناء - لا يملكن ذاكرة قوية وينسين بسرعة، بينما في واقع الأمر المرأة ذاكرتها أقوى من الرجل بكثير، أو أن نقول بأن الطمث يؤثر على نفسيتهن، بينما هناك رجال كثر -وأنا شخصيًّا تعاملت معهم- ينقلب مزاجهم بسرعة فائقة، بل وغضب الرجال أسوأ من غضب النساء، لأنهم يميلون للعنف؛ وبالتالي إثارة غضبهم يمكن أن تتسبب في حروب ومجازر، بينما النساء فلا .. أعود وأقول إنني أكره التعميم، مرة أخرى، هذه مجرد أمثلة .. لكن تعالي لنعيد التاريخ أمامنا...

المغيبون الذي يحبون التقليل من شأن النساء، يقولون إن أول جريمة قتل حدثت على الأرض كان سببها امرأة ! احكمي

بنفسك أنتِ في ذلك .. أكان سببها امرأة، أم أن سببها عنف الرجال وشهواتهم وكبرياؤهم؟

- الثانية بالتأكيد!

- لماذا يا صغيرتي؟

- لم تفعل ابنة آدم شيئًا، بينما حسب الرواية التي أعرفها، كانت بالطبيعة من نصيب هابيل، وكان يريدها قابيل لأنها أجمل ممن قُسمت له، فعمته الغيرة لذلك وقتل أخاه!

- و الرواية الأخرى، ماذا تقول؟

- تقول بأن الله طلب من كليهما أن يقدما له قرابين، فتقبَّل الله قربان هابيل لأنه كان أجود وأصدق، ولم يتقبل قربان قابيل السيئ، فأقسم قابيل أن يقتل أخاه!

- إذن كانت أول جريمة قتل بشرية حدثت على وجه الأرض، كان سببها شهوة الرجال، وغيرة أحدهم من الآخر. ماذا ينقص من دلائل على أن الرجل ناقص عقل؟ هل التعميم شيء سديد؟ سيشعر الرجال بالاضطهاد إذا عُممت هذه الحجة في نقصان عقلهم. إذا كانت النساء أقوى من الرجال في المراتب الدينية، وقررن، لكرههن للرجال، أن يضعوهم كلهم في قالب واحد، مع كل رجال الأرض، بإلباسهم تهمة نقصان عقلهم بسبب دمويتهم وعنفهم الذي يذهب لب الرجل الحازم في

لحظة، لكان ذلك، ولصدَّقهن الناس؟ ! ولكنني أكره الغباء والتعميم غباء صريحًا . لن أعلن أن رأيي هو أن الرجال جميعهم ناقصون لأنه عين الخطأ!!

ولكن للأمانة، ومن باب الأخذ بالثأر، يقول التاريخ، إن من دمر العالم رجال، ومن استباح الدماء رجال، ومن أقام الحروب العالمية رجال. ثم أتت النساء الناقصات في الحرب العالمية الأولى، التي تخدم عقول الرجال المحبة للسلطة والدم، وتجري وراء شهواتها، وخرجت هي لسوق العمل لإنقاذ اقتصاد بلادهم، بسبب قلة عدد الرجال، لأنهم إما ماتوا أو كانوا في الحرب. فرغت المكاتب والمصالح والمصانع من عمَّالها، حتى أن زيادة الطلب على السلاح في هذه الفترة، أدت إلى زيادة عمل المصانع الحربية، والتي عملت بها النساء آنذاك لنقص الرجال؛ الأمر الذي أثار الجدل حينها لأنه عمل ذكوري جدًّا، ولكن كالعادة، أثبتت النساء جدارتهن بالقيام بأي مهام، وبأن ليس هناك ما يسمى بأعمال ذكورية كعقبة أمامهن. شغلن كل المناصب، من سائقات قطارات ومواصلات عامة، لضابطات شرطة، حرسًا بسلاح، وفي الهندسة الميكانيكية، وكل الأعمال التي كانت قبل الحرب حكرًا على الرجال، الذين رأوا أن المرأة

لا تصلح إلا للبيت. فماتوا هم من أجل الحرب، وأحيت النساء دولًا بأكملها!

بسبب هذا الحدث الجلل، بدأت ثورة النساء ومحاربتهن الأفكار الخاطئة عنهن، ودفاعهن عن حقهن في التصويت، وتقاضي نفس أجور الرجال، وشغل نفس المناصب، حتى بعد عودة الرجال من الحرب، وتخيلهم بأن كل شيء سيعود كما كان . لكن ذلك لم يحدث. ما زالت النساء تحارب غرور الرجال إلى الآن!

النساء قدن العالم بعد ذلك، ولم يفشل أي قوم حتى الآن، ولُّوا أمرهم امرأة. بل إن بلداننا العربية التي تعج بالرجال في الحكم والمناصب العليا، هي من أفشل دول العالم ثقافيًّا وصناعيًّا واجتماعيًّا، وليس هذا بسبب الرجال أو النساء . كما قلت لك إن النوع لا يحدد العقل والقدرة على النجاح، بل إننا فقط ننشئ أجيالًا فاسدة من الرجال والنساء، بينما هم ينشئون أجيالًا ناجحة من كلا النوعين، فلا يحدد نجاح شخص من عدمه في الحكم إلا عقله وحكمته، إن كان ذكرًا أو أنثى!

فقد قالت السياسية "أون سان سو تشي" زعيمة المعارضة في بورما، والحاصلة على جائزة سخاروف لحرية الفكر سنة 1990م، وجائزة نوبل للسلام سنة 1991م من أجل دعمها

للنضال ضد العنف: ”إن في المجتمعات التي يعرف فيها الرجال قدرهم الحقيقي، لا يُسمح فقط للنساء بالقيام بالأدوار، بل يكنَّ ذوات قيمة“.

وفي دولة باكستان المسلمة، وصلت "بينظير بوتو" إلى منصب رئيسة وزراء مرتين، وهي أول امرأة ترأس دولة إسلامية، والتي في فترة حكمها، استطاعت القضاء على الديكتاتورية العسكرية في بلدها، وحاربت من أجل حقوق المرأة . تم اغتيالها على يد انتحاري عام ٢٠٠٧. هل هذه المرأة العظيمة أنقص عقلًا أم مفجِّر نفسه الذي قتلها؟! هل لو قاد البلاد هذا الفكر، كان نشأ سلام أم العكس تماماً كما حدث من قبلها على يد رجل؟ من أشهر أقوالها : ”إن السلام هو أفضل وسيلة للانتقام“.

"فلورينس نايتنجيل " رائدة التمريض الحديث . ساهمت في تطوير مجال التمريض بسبب شغفها به. هي من تسببت في إنشاء أول معهد تمريض في إنجلترا عام ١٨٣٥. عندما قامت حرب القرم بين روسيا من جهة، وفرنسا وإنجلترا وتركيا من جهة، تساقط يوميًّا عشرات القتلى بسبب قلة التمريض، فذهبت إلى تركيا ونجحت في تحويل مبنى من مباني الجيش إلى مستشفى لائقة بمعالجة الجنود، وقد أخفضت نسب الوفيات

هناك من ٤٤٪ إلى ٢٪ بسبب مجهوداتها، وهي لم تكمل عامها الرابع والثلاثين. للمرة المليون، الرجال يتقاتلون، والنساء تبني ! كانت أول من نادت بضرورة وضع برامج ومناهج لتعليم التمريض وآداب المهنة، ومما لا شك فيه، أن مبادرتها أسهمت في إنقاذ أرواح لا تحصى.

"آنجيلا ميركل" أول امرأة تصل لمنصب المستشار في ألمانيا . تُعد أقوى نساء العالم، وهي تحكم أقوى اقتصاد أوروبي على الإطلاق. من أشهر أقوالها : ”لا أحد في أوروبا سوف يُترك وحيداً، لا أحد في أوروبا سيصبح مستقصى، أوروبا ستنجح فقط، عندما نعمل كلنا سويًّا “.. "مارجريت تاتشر " أول رئيسة وزراء بريطانية منتخبة عام ١٩٧٩، لُقبت بالمرأة الحديدية . حكمت بريطانيا لأحد عشر عاماً. قادت أوروبا في ظل التصدّي لسياسات الاتحاد السوفيتي. مكّنت الفئات الفقيرة من امتلاك منازل، وانتصر الجيش البريطاني في عهدها، على الأرجنتين في حرب الفوكلاند.

لم تكن الأولى، في بريطانيا، التي حفلت بنجاحات النساء في تطويرها إلى أن أصبحت من الدول العظمى، فهناك "فيكتوريا" ملكة بريطانيا وأيرلندا عام ١٨٣٧. طورت الاقتصاد البريطاني لتصبح الدولة الأغنى في العالم . بدأت على يديها الثورة

الصناعية، وفي عهدها أصبحت بريطانيا الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. "إليزابيث" كذلك قامت بإصلاحات اقتصادية غير مسبوقة، وقادت حركة تنويرية ثقافية ساعدت على ظهور شعراء وكتاب مثل ويليام شيكسبير. الإمبراطورة "ماريا تيريزا " التي هزمت تحالف خمس دول أوروبية أرادوا إنهاء حكمها . جعلت التعليم إجباريًّا، وازدهرت الثقافة والعلوم في عهدها، وتم إنشاء أكاديميات العلوم، وازدهر الطب، وأسست لمعالم الدولة الحديثة..

وفي الهند، شغلت "أنديرا غاندي" منصب رئيسة الوزراء لثلاث فترات، ولمدة خمسة عشر عاماً، حتى تم اغتيالها على يد أحد المتطرفين السيخ. كافحت غاندي من أجل نشر السلام في العالم، وساهمت في تطوير بلدها؛ حيث أصبحت في عهدها الهند متقدمة ومتطورة في شتى المجالات، بفارق ملحوظ عن قبيل حكمها. دافعت عن البلدان الفقيرة في العالم، وأسست عوامل الدولة الديموقراطية في الهند حتى وفاتها.

هناك الكثير والكثير من الأمثلة عن نساء قدن دولًا وتطورت على أيديهن، بعد أن خرَّبها جنون العظمة لدى الرجال، وعشقهم للديكتاتورية وقمع الشعوب. لكن دعيني أعطكِ أمثلة في العلم أيضًا. أبرزهن هي "ماري كوري "، عالمة الكيمياء

والفيزياء البولندية، التي رفضت الجامعة قبولها يومًا ما فقط بسبب أنها امرأة! بعد ذلك أصبحت أول شخص يحصل على جائزتين لنوبل على الإطلاق، من الرجال والنساء، في مجالين علوم مختلفين، وأول معلمة امرأة في جامعة باريس . من أقولها ”لا شيء في العالم يستحق الخوف منه، بل فقط يجب علينا فهمه“. "ليز ماتينير" عالمة الفيزياء النمساوية. كانت عضواً في الفريق الذي اكتشف الانشطار النووي، في الوقت الذي لم يُسمح فيه للنساء بالالتحاق بالجامعات في النمسا. لكن هذا لم يوقفها، وفي عام ١٩٢٦ أصبحت أول سيدة في ألمانيا تحصل على درجة بروفيسور في الفيزياء "ماري ستوبس " العالمة البريطانية التي كان لها دور كبير في تطوير التعليم الجنسي، وفي مجال تحديد النسل، والسعادة الزوجية وأساليب العلاج! وعلى ذكر التاريخ فقط، لأن الحاضر يعج بأسماء لا حصر لها، هنالك أيضًا نساء مصريات خضن نفس الحروب في هذا الوقت من القرن العشرين في شتى المجالات . هنالك العالمة المصرية "سميرة موسى" التي كانت بدورها أول امرأة في الجامعة المصرية. حصلت بعد ذلك على شهادة الدكتوراة من إنجلترا في الإشعاع الذري. تم اغتيالها في أمريكا في ظروف غامضة، بعد أن رفضت العروض الأمريكية لها بالاستقرار هناك

وإكمال أبحاثها العلمية تحت إشرافهم عام ١٩٥٢. "سهير القلماوي" أول امرأة مصرية تحصل على شهادة الماجيستير والدكتوراة في الأدب، انضمت للبرلمان المصري سنة 1967، وشاركت فى تأسيس معرض الكتاب . "مفيدة عبد الرحمن " أول محامية على الإطلاق في مصر والعالم العربي . نجاح مفيدة، التي ترافعت في أكثر من ٤٠٠ قضية، لم يوقفها عن أن تكون زوجة وأمًّا لتسعة أولاد، وعضوًا في البرلمان لأكثر من ١٧ عامًا، وعضوًا في اللجنة التي تولت التعديل على قانون الأحوال الشخصية في الستينيات . كما أن شقيقتها كذلك، "توحيدة عبد الرحمن" هي أول طبيبة مصرية يتم تعيينها في مستشفى عام، بعد أن عادت من بعثتها في بريطانيا ورفضت عرض أبيها بامتلاك عيادة خاصة، على أحدث طراز، لأنها أرادت أن تقوم بالعناية بالفقراء. تولت تعيينها في مستشفى كتشنر الخيري، الذي أصبح الآن المستشفى العام بشبرا، وتقدمت باستقالتها عام 1952 بعد أن لاحظت احتياج أطفالها لها، وتفرغت لتربيتهم. أما عن أول امرأة مصرية تصبح كابتن طيار، فهي بالطبع "لطيفة نادي" والتي هي أيضًا تعد ثاني امرأة في العالم تقود طائرة بمفردها في الثلاثينيات من القرن الماضي،

بعد آميليا إيرهارت في أمريكا، في وقت لم يتخرج فيه من مدرسة الطيران المصرية، سوى ٣٣ طيارًا فقط من الرجال!

وفي مجال الرياضة، جدير بالذكر، أن أبدأ لكِ بعبلة عادل خيري، أول سبَّاحة مصرية تعبر المانش، وهي في عمرها الثالث عشر فقط عام ١٩٧٤. وهي ابنة أول سبَّاحة مصرية عالمية، إيناس حقي. كما أنها الآن رئيسة مجموعة تطوير النظم المصرفية بالبنك التجاري الدولي CIB، وعضو مجلس إدارة جمعية خدمات موظفي البنك التجاري الدولي.!

وفي مجال الرياضة عالميًّا، كان هناك أعظم تحدٍّ وضعته امرأة لنفسها، حيث خاضت "معركة الجنسين" عام ١٩٧٢، بعد أن فازت على اللاعب "روبي ريجز" في مباراة لكرة التنس، وحصلت على ١٠٠.٠٠٠ دولار، بعد أن تحداها منافسها قبل المباراة قائلًا "إن الرجال رياضيون متفوقون على النساء"، كما قالت هي قبل المباراة: "أعتقد أن عدم ربحي لهذه المباراة سوف يعيدنا ٥٠ سنة إلى الوراء، وسيدمر نفسية النساء"، ولكن اللاعبة العظيمة "بيلي جون كينج" ربحت هذا الذكر المغرور. وأصبحت بعد ذلك أسطورة أمريكية في التنس، وفازت كذلك بعشرين لقب لبطولة ويمبلدون.

وجدير بالذكر، أنه في القرن التاسع عشر، ظهرت أول مناهضات حقوق المرأة في أوروبا، وهي الكاتبة الفرنسية "لأمانتين أورو لوسيل دوبين " أمضت حياة حافلة بالنشاط الفكري، والدعوة للحركات النسائية بوجه خاص . من أشهر أقوالها ”بإمكانك أن تكبِّل جسدي، تربط يديَّ، تحاكم أفعالي، والمجتمع يزيد من قوتك لفعل ذلك، ولكن بإرادتي، سيدي، لا يمكنك فعل أي شيء.“

وفي مناهضة حقوق المرأة في مصر، والتي ما زالت مستمرة حتى الآن، جنبًا إلى جنب مع المطالبة بحقوق الحيوان، جدير بالذكر مجهودات "دريّة شفيق" الناشطة في حقوق المرأة في أربعينيات القرن الماضي، وفضلها في تمكين المرأة المصرية من التصويت في الانتخابات بالدستور المصري، كما أنها ترجمت القرآن إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

- لا أستطيع استيعاب حجم المعاناة التي لا تزال تشعر بها المرأة العربية، بينما العالم كله قضى على هذه الأفكار تمامًا، ألا يشعر الرجال هنا بالخجل؟!

- يا عزيزتي، لا يرى الرجال هنا الأمر بهذا الشكل، فهم جميعًا منقسمون في هذا الأمر إلى نصفين، النصف الأول لا يرى في المرأة إلا سلعة جنسية، وأن التعامل معها بهذا الشكل ما هو

إلا حماية لها، وبالغطاء الديني لهذا الفكر، يأخذ الموضوع شكلًا مقدسًا، لا يمكن الجدال فيه، حتى تخاف النساء من الثورة على هذا القمع، لأنهن يعتقدن بأنها ثورة على الله المشرِّع لهذه الأمور. أما النصف الثاني، المدني، الذي هو متدين بطبعه بدون تعمق في نصوص دينية، بل فقط يتصرف بطبيعة العرف والتقاليد، ولا يتحدث في الأمور بشكل ديني، فهؤلاء يرون، بكل وقاحة، أن المرأة المصرية حصلت على كل شيء، وأنها تأخذ منهم المناصب التي هم أولى بها ، وأنها تفعل كل ما تريد، ولا يفهمون لماذا يتحدث البعض عن حقوق المرأة، بينما يشعرون هم أنفسهم، أنهم مهمشون ومضطهدون، بالنسبة للمرأة أصلًا.. أعتقد أن النصف الثاني يمكنني التعاطف معه، ولكنهم لا يفهمون كيف أن المجتمع المصري يقف ضد حقوق الإنسان بأكملها. كما يريدون هم أن يشعروا بكيانهم، تريد أخواتهم الإناث نفس الشيء، وهذا حق مكفول للاثنين . كما أن الوظائف التي تشغلها النساء لا تقاس بالجنس، بل تقاس بأن تلك المرأة التي تجلس على هذا الكرسي الفخم، بداخل مكتب إحدى الشركات العالمية، بينما أنت الذكر تجلس على كرسي خشبي في قهوة في شارع بيتك، ليس ظلمًا لك، بل الظلم الذي وقع عليك هو أنك لم تتعلم مثلها، ولم تملك واسطة مثلها،

وإذا تركت هي هذا المنصب، لن تحصل عليه أيضًا، وأن البطالة تطال الجميع، وأن النساء في مجتمعنا يا سيدي، من كل الطبقات الفقيرة والغنية، حسب خبرتي ومشاهدتي للأمور، ٥٠٪ منهن يعملن من أجل المال، وينفقن على بيوتهن بجانب أزواجهن، أو متفردات بهذا الدور، إما لأن مرتب المرأة وزوجها سويًّا لا يكاد يجعلهما على قيد الحياة، أو لأن هناك ذكورًا مثلك، متكاسلين ويفضلون العيش السهل على حساب شقاء نسائهم، ولا يعجبهم شيء في النهاية!

أما مشكلة النوع الأول ونسائهم أيضًا، أنهم يعتقدون تمام الاعتقاد بتفوق قدرات الرجل على المرأة، العقلية منها والجسدية. يجعلون من تخيلاتهم السخيفة، قواعد مقدسة، لا يتخيلون كيف يشذ عنها البعض، أو حتى يصرِّحون بعكس ذلك.

عندما ملك ذوو البشرة البيضاء الكون بين أيديهم، واستعبدوا أصحاب البشرة السوداء، في أزمان ليست ببعيدة، هل تعتقدين بأن السود اقتنعوا أن الله خلق البيض ليصبحوا أسيادًا، وبأنه يكرههم لهذا خلقهم بتلك البشرة، التي حددت على أساسها نقصان عقلهم، وعدم إمكانيتهم أن يصبحوا أي شيء سوى عبيد!! نعم هذا حدث، حتى أنه ظهر من السود أنفسهم من يكره السود، ويقلد البيض في كل شيء، في محاولة لأن

يرتقي للنوع الأفضل، وظهر زعيم أسود في أفريقيا، ارتكب جرائم في حق السود، من كثرة كرهه لهم... هل تعتقدين أن نساءنا اللائي يضطهدن أنفسهن، أنهن أول المرضى النفسيين، ضحايا العالم الموحش، الذي عندما يتحكم فيه نوع واحد، يشعر البقية بأنهم خلقوا بالخطأ، وكأنهم ليسوا بشرًا مثلهم؟ ! إنه الواقع، وهكذا علينا تقبله، ومواجهته بعقل سوي، وإن كان القلب قد ذبل!

لا يصح لأسود كذلك، يعيش في ظل ظلم البيض له في أمريكا، أن يقول لماذا خلقتني يا ربي أسود؟ ألأنني أقل من الآخرين، ولأُعامل بمهانة؟ تمامًا كما لا يحق لامرأة تشعر بالقهر في مجتمعاتنا، أن تلقي باللوم على خالقها لأنه خلقها أقل، بينما هي تشعر، بل وتوقن، أنها ليست أقل في شيء؛ لأن الله لم يخلق الاختلاف، ومعه ترتيب لمن أكثر أهمية من الآخر، ولم يخلق شيئًا ناقصًا، وليس له أن يُلام على تخلُّف كل فئة حاكمة، أو أكثرية يعتقدون أنهم أسياد، ومن دونهم خُلقوا ليكونوا أقل منهم وفي خدمتهم، فليس كل هذا إلا جغرافيا، وعقولًا بشرية تتعمد أن تبدو قدراتها مختلة، ليرفعوا من أناهم على حساب أنا الآخرين، لأنهم وجدوا أن الظروف المحيطة تساعد على أن يمارسوا شذوذهم الفكري. فعندما أجد امرأة

تريد حرية نوعها في أوطاننا هذه، لا تثير إعجابي بقدر ما أُعجب برجال يريدون لها أن تكون حرة، لأنهم حينها لا يكونون يدافعون فقط عن الحق، بل هم أيضًا يتخلّون عن حقوق زائدة مكتسبة ومتفق عليها، ولا يلومهم على الاستفادة منها بأسوأ الأشكال الممكنة، أحد!

فمعظم الرجال في شرقنا، بكاء المرأة بصوت عالٍ لا يخجل إنسانيتهم، لكن ضحكاتها تزعجهم !! تسوُّلها في الشوارع بأطفالها لا يغضبهم، لكن يثورون من أجل ساقيها إذا انكشفتا! يخجلون من سعادتها وفنِّها إذا ما رقصت أو عزفت أجمل الألحان، ولا يبالون إذا تعست وأضاعت عمرها كله بين صرخات مدوية، تحاول أن تفهمهم بها أنها إنسان . ليست قطعة لحم، ليست حلوى، ليست جوهرة، هي فقط إنسان، منه الغبي والعبقري، منه القبيح والجميل، منه الماكر والطيب، ذو النوايا الحسنة. به البريء والخبيث، به أولو العقل، وأولو القلب، ومن لا يملك هذا أو ذاك، به القوي والضعيف، به من يستطيع القيام بأدوار عن أدوار، به الكسول وبه النشط.. توقفوا عن جمع كل النساء في قالب واحد، لأن أعضاء البشر التناسلية لا تحدد هويتنا كما الحيوانات . ليس جميع الذكور رجالًا، ولا تنطبق عليهم نفس الصفات...

طوَّر العالم من نظرته للإنسانية، وأعطى كل ذي حق حقه، وساوى بين الغني والفقير، الرجل والمرأة، الإنسان والحيوان، الناضج والطفل، ولا يزال المسلمون يختلفون حول ضرب الطفل، وفرج المرأة، وصوتها، ولباسها، وسجودها لزوجها، ونقصان عقلها ودينها، فتالله لم يرَ العالم من ناقصي عقول ودين أكثر من هؤلاء الذكور البائسين، مثيري الشفقة، الذين ينتظرون الموت ليضاجعوا عذاراوات الجنة، الذين يثير شهواتهم كل تاء مربوطة، وكل لحم على شكل قطعتين متلاصقتين ! ها هو العالم يتقدم نحو إنسانية تسع الجميع، بغض الطرف عن اللون أو العرق أو الدين أو الجنس أو السن ... وها نحن كذلك، لا زلنا نعاصر عصورًا وسطى، قد واراها التراب، ونتحدث في حقوق المرأة وحقوق الحيوان، كموضوعين مماثلين مثيرين للجدل!

ألم يحن الوقت الذي نفهم فيه أن كلانا إنسان، وأن طبيعتنا -رغم اختلافاتها- واحد؟ ألن نتوقف أبدًا عن إلقاء اللوم على بعضنا البعض، في محاولة لكل منا أن يأخذ زمام الأمور، منفردًا محجرًا على الآخر، ظنًّا منه أنه أسفه وأحقر منه، فقط من أجل اختلافات أعضائنا التناسلية؟!

هل خلق الله الرجل ليكون عبدًا له، وخلق الأنثى لتكون أمة الرجل، فيألهه عليها، كما هو إله عليه؟!

رأيت نساءً عدة تدافع عن حق أزواجهن بالزواج عليها، من أجل تحقيق متعه الجنسية. حتى أن أطرف تعليق سمعته من إحداهن، عندما سألتها: لماذا خلق الله للأنثى مشاعر الغيرة كالتي عند الرجل؟ لماذا يغلي الدم في عروقها، إذا شعرت بأن زوجها يكنُّ مشاعر لأخرى؟ لماذا تشعر بالمهانة والانكسار إذا خانها زوجها؟ ولماذا لم يخلق الله مع آدم عدة نساء، إذا أراد أن تكون هذه سنته في الأرض؟ ثمَّ إن أولى البشر بالتعدد هو آدم؛ لأنه أول رجل ذو شهوات جامحة، خلقه الله من جهة، ومن جهة أخرى لكي يعمِّر الأرض، وينشر كلمة الله بين أبنائه، الذين كان سيزيد عددهم أضعافًا بالتأكيد. فكان الرد، هو أن كل هذا حقيقي، ولكن ربما يكون هذا اختبارًا للنساء، لكي تجاهد نفسها، وتفوز بالجنة، كما يجاهد الرجل في ساحات الحرب! وكانت هذه أول مرة يا عزيزتي، أعرف فيها معنى أن يحتقر شخص نفسه لهذه الدرجة، وأن يكون الإنسان حقًّا ظلّامًا لنفسه!

كم من الاختبارات التي لا يطيقها الرجل يجب أن تقع فوق عاتق النساء أكثر من هذا، كي يعترفوا جميعًا بأنها أقوى

بدرجات لا يستطيع الرجال رؤية آخرها، إذا رفعوا أنظارهم لهذا الدرج! كم سنظل نقهر النساء الأكثر إنسانية، ونضع الرجال في قوالب لا تتعدى مراحل الحيوانية، ثم نطالبهم بأن يصبحوا رجالاً؟!

الزواج سكينة وود ومحبة. أي رجل لا يقدِّر كون أنثاه إنسانًا مثلها مثله، لا تتحمل فكرة وجود زوجها في نفس الفراش مع أخرى، لن يعرف أبدًا معنى لكلمات الود والحب.

الرب هو نفس الرب، من آدم حتى محمد، وإن كان ظلَّامًا ومحبًّا للرجال وخالق النساء كالفاكهة ذوات الأطعمة المختلفة، لكي يتلذذ بها الرجال، لخلق آدم ومعه إناث كثر، وليس حواء فقط لتكون له شريكًا في الأرض وسكنًا له، ورفيقًا قد استوحش الجنة بدونه!

هذه هي الطبيعة البشرية، أن خلق الله من كل نفس زوجها، ليتراحموا. وليس لكل رجل ما يشتهي من نساء، كما الجاهلية التي ورثها شيوخنا أكثر من الدين نفسه!

يعتقد الشرقيون أنه لأن كلمة جنس مذكّرة فهي منهم ولهم، وبأنهم يحتكرونه بالطبيعة، ولم يستوعبوا أن الشهوة أنثى، والنشوة أنثى، واللذة أنثى!..

يعتقد الرجل الشرقي أن الجنس حكر عليه، يتعجب عندما يجد أنثى في مثل وقاحته، بل ويتعجب إن انتبه لمجرد تلميح أنثى يثبت أنها تفهم مثل تلك الأمور، حتى وإن كانت متزوجة، وكأنه مقتنع بأن الفهم ملكه وحده، وعلى الإناث دائمًا أن يكنَّ أغبياء، أو على الأقل يجب أن يتصنعن ذلك من أجل إرضاء غروره، أو على حد قولهم من أجل الحياء. لا ينتبه أحد أن مطالبة الدين مثلًا بالحياء، يقع على الذكور والإناث معًا.

كيف لهم أن يتوقعوا إناثًا يستحين في مجتمع وقح هن الجزء الأكبر منه، وواقعهن الذي يفرضه عليهن الذكور أوقح؟ يتربين على أنهن سلع جنسية تغطى وتباع لمن يدفع أكثر. لا يستطعن الخروج من المنزل، وإلا سمعن كلامًا خادشًا للإنسانية كلها وليس الحياء فقط. ثم يتزوجن من يستغل أجسادهن لمتعته فقط، ظنًّا منه، واستكمالًا لفكرة مجتمع أحمق أن ليس لها منه في شيء! تتعجبون من حديث أنثى عن الجنس، ولا تتعجبون من اغتصاب حيوان بشري لطفلة في طريق عودتها من المدرسة. تتعجبون من ضياع حياء الإناث، إن هن أعربن عن مشاعرهن أو أفكارهن، بينما لا تستحون أنتم أن تغمضوا أعينكم عن مجتمع بأكمله، لا يملك من الحياء شيئًا! أليست هي جزء من هذا المجتمع؟ أليست بشرًا مثلها مثل أخيها مثلًا تسمع

وتتربى على مثل ما سمعه هو وتربى عليه، ثم تريدونها أن تستحي بينما أخوها يحق له ذلك؟!

الجنس ليس عيبًا ولا حرامًا، ولكن شغفكم ووسوستكم بحرمته جعلت منكم أشباه بشر، لا تستحون من الدماء ومن الموت، بل ومن الله، وتستحون من الحب، وأي شيء يحدث خلف أبواب غرف النوم، ومن النساء إن بيَّنَّ لكم أنهن يفهمن كل شيء...

إن كان بالفعل المطلوب من وجود الأنثى على الأرض، هو فقط أن يتمتع الرجل بجسدها، وإنجابها أطفالًا لذلك الرجل، وأن لا تخرج من بيتها أو تعمل من أجل المجتمع، وألا ترث مثلها مثل الرجل، فبطبيعة الحال هو أمر منطقي عندما نتحدث عن أنصاف بشر، وأن تقدس زوجها وتطيعه طاعة عمياء، كأنه رب بحد ذاته، وهو الأمر الطبيعي أيضًا عندما نضع حدود التعامل بين أنصاف البشر، وأنصاف الآلهة، فلماذا إذن خلق طبيعتي منافية لكل ذلك؟

ألم يكن من الأسهل لو خلق طبيعتي قابلة لكل هذه المهانة، قابلة لأن أعبد بشرًا مثلي، وأشجِّع اضطهاده الواقع على نوعي لأنني أقل منه، كما هو الفرق بين الإنسان والحيوان . الحيوان أقل بالفعل من بني آدم، وطبيعته لا تتعارض مع ذلك، فلن

تجد كلبًا يطالب أبدًا بالمساواة مع البشر، ولن تجد حصانًا يبكي من شعوره بالمهانة، لأنه خُلق فقط من أجل أن يستخدمه البشر في التنقلات...

ولو أنني ولدت أنثى وسط ذلك الفكر الأزلي، الذي لم ينتمِ إليه دين، بل العالم أجمع على مر العصور، ولو كانوا على كفر بيِّن، لأنه تفكير ذكوري عقيم، يحاول العالم المتحضر في عصرنا هذا أن يتغلبوا عليه، لأنه مغروز فيهم منذ العصور الوسطى، ولا زال فينا نحن حتى الآن من يقدسونه، لا أعرف الحقيقة بشكل مطلق، ولكن لي عقل يتدبر فيقتنع ويرفض، ولا يُساق أبدًا.

مختلفون نحن الرجال والنساء بشكل جذري، ولكن لنكمل بعضنا البعض، لا ليحتكر نوع واحد منا الأمر والنهي والتصرف، والحق في الحياة...

أنتم يا من تخاطبون النساء على أنهن أقل، بنفس أسلوب أن الله جعلنا فوق بعضنا البعض درجات. نفس مبدأ معاملة كل من هو أقل منِّي ماديًّا أو اجتماعيًّا أو ثقافيًّا، كأنه أقل مني آدمية، غير مبالية بأنه بشر، لديه مشاعر مثلي، وحياة واختيارات، فقط لأني رأيت من هم أكبر منّي مرتضين لذلك النهج،

فسأتبعه، حتى وإن كان يقلل من آدميتي ومعاملاتي الإنسانية وفكري.

خلقنا الله إنسانًا كاملًا، بنفس مشاعرك، التي تُجرح حين يحتقرك أحد ما لأنك ولدت - لظروف - أقل منه ماديًّا؛ فتحتقرنا أنت لأنك ولدت ذكرًا، وكأن اختلاف أعضائنا الفسيولوجية عن بعضنا البعض، وضعتني بطبيعة الحال في خانة أقل منك آدمية، غير مبالٍ بمشاعر داخلي تصرخ من كثرة الظلم!..

إن كنت مصدقًا أن الله سيخلقني مثلك في كل شيء، ومختلفة في أشياء أخرى، لتكملني وأكملك، سيرضى بقهري، لكان من الأسهل أن يخلقني ناقصة عنك بشيء لو أراد، حتى وإن كانت في مشاعر لا تُجرح حين يُحط من شأن صاحبها إلى هذا الحد. ولكنه أعطاني كل ما تملك، وما يزيد من أشياء لن تستطيع أنت حتى تصورها، ولكنه أنقص من العقول الكثير من الرجال والنساء، لكي يرتضوا ذلك الفكر مسلكًا في الحياة، فقط لأن هذا ما تعلموه في صغرهم، بدون تدبر منهم أو بحث أو تفكير. التخلف وانحطاط الفكر لا دين لهما. فكلٌّ يفسِّر ويفهم نفس الآيات بما له راحة على نفسه . كلٌّ عقل يتَّبع ما نشأ عليه، مغمضًا عينه عن قصد، عن كل ما هو مختلف، لكي لا يكفر بملة آبائه وأجداده، وإن كانت عين الخطأ. التفكير هو أصعب

الطرق التي من الممكن أن يسلكها الإنسان، ولكنه بذات الوقت تقديس لنعمة لدى الإنسان، فضّله خالقه بها عن سائر خلقه، ومع ذلك يرفض كل الرفض، بأن يستخدمها ولو قليلًا، قبل أن يريح باله ونفسه ويتجنب عناء البحث والتفكير بتقبل فقط ما يعرفه وما تربى عليه.

لكل أنثى تتحدث بلهجة المتعصبين من الرجال، تدافع عن حقوقهم وتسلب حقها في الحياة، لاقتناعها التام بممارساتهم الظالمة عليها، وآرائهم التي لا تمت لأي دين، أو إنسانية، وليست إلا عنصرية بحتة ضدها، أوئدي نفسكِ، لا تبالي، فالعالم ليس بحاجة لمثل هذا النوع من البشر على أية حال.

دخلت جدتي إلى غرفتي لتدعوني إلى تناول الطعام . عندما سألتني عن سر انشغالي بالحاسوب كثيرًا، قلت لها إنني أتحدث مع أمي.. تعجبت قليلًا ثم سألتني:

- لماذا إذن لا تتحدثين معها بجانب أبيك، كي تتحسن حالته قليلًا، مثلك؟

- عرضت عليه ذلك من قبل لكنه رفض . وأنا لا أتحدث معه كثيرًا كي أعلمه متى تبعث لي أمي بالرسائل وأرد عليها . أنتِ تعرفين كيف يفضِّل أن يعيش تلك الأيام..

- حسنًا! تعالي إذن كي تتناولي غداءك.

- سأكون خلفك، فقط أحتاج لأن أعتذر لأمي، وأقول لها إنني سأعاود بعد قليل..

- لا تتأخري.

بعد يومين فقط، مات أبي، بعد فترة لم تتخطَّ خمسة أشهر من ذهاب أمي.. مضت عليَّ أسوأ أيام حياتي هذا الأسبوع، بعدما استيقظت على صوت صرخات جدتي وهي تحاول إيقاظ أبي ولم تستطع. ذهبت حيث صوتها، فوجدتها قد وضعت رأسها ويديها فوقه، وشعرها ينسدل فوق السرير، وقد ابتلت ملابس أبي من دموعها. لم تلاحظ وجودي كعادتها، ولم تقحمني في حزنها. فقط ظلت صرخاتها العالية تخرق أذني .. ظللت في حالة ثبات، وكأنني لست حية. لا أفهم كيف ولماذا!... هل حزنه على بقائه بدون أمي لعدة أشهر كفيل بقتله، وهو يعرف أنها تنتظره، ولا تستطيع العيش بدونه؟!

لم أشعر بتلك المشاعر المتخبطة من قبل.. ذهب أبي، ذهب ملكي. كانت دومًا أمي تقول بأنه ملكي، وأنا أميرته.. لم أعرف من قبل كيف يكون انكسار الظهر، عندما يشعر الإنسان بأنه لا يستطيع الوقوف، لأنه ليس هناك ما يساعده على البقاء مستقيمًا.. لم أعرف كيف تشعر الابنة عند وفاة أبيها، وكأنها أصبحت عارية فجأة، في وسط الزحام، إلا بعد ذهابك يا أبي ..

لم أعرف مدى حبِّي لك. أتمنى لو أنني لم أضيع لحظة في غرفتي منفردة، وأنت وحدك في غرفتك حزينًا .. آسفة؛ لأنني لم أستطع التصرف معك، بحق كونك ملكًا .. آسفة لأنني لم أستطع أن أكون لك أميرة، لا تعرف الراحة وملكها حزين، وحاميها تعب، وساندها منكسر...

لم أتحدث مع أمي لأيام، والغريب أنها لم تسألني عن سر اختفائي.. كيف لم تشعر به! كانت دومًا تقول إن قلبها يخبرها، عندما يكون أبي تعيسًا، أو أن هناك ما يقلقه، حتى وإن كانت بعيدة، أو لم يرد هو أن يعترف بما يعتريه .. كيف لم تشعر بفاجعة كهذه، كيف لم تقلق علينا، أم نست هي مرار العيش بدوننا، واعتادت عدم وجودها في حياتنا؟ !! بعثت لها عدة رسائل، أخبرها بأنني أحتاج إليها، ولكنها لم ترد .. توسلتها أن تأتي لتدفن أبي، ولكنها لم تهتم! كم أتمنى أن تعود يا أبي، وأن تعود أمي، وأن يعود البيت كما كان، ويعود الحب، وتعود البهجة!.. لماذا كل هذا الألم، الذي قرر اقتحام حياتي فجأة؟ ! لماذا مات أبي شابًّا صغيراً، وتركني في هذا العالم وحدي؟!...

هذه أول مرة أشعر فيها بالخوف. ولم أكن أعرف أنه يمكن لكلمة أن تكون معروفة بالنسبة لنا جيداً، ونعتقد بأننا نفهمها، ولكننا لم نكن نعرف عن معناها أي شيء، حتى تسكننا حقًّا!

دخلت جدتي إلى غرفتي ذات ليلة، تشبه كثيرًا كل الليالي التي سبقتها، وهي تحمل الهاتف بيدها. قالت لي إن خالتي أرادت أن تتحدث معي.. هذا يعني أن أمي قد وصلها الخبر، ولكنها لم تحدثني؟!! أخذت الهاتف بلهفة وبدأت بالتحدث..

- أريد أن أتحدث مع أمي..

- كيف حالك يا حبيبتي؟

- أريد أن أتحدث مع أمي..

- أنا قادمة مساء الغد إليكِ، وسآخذكِ معي في طريق العودة. جهزت لكِ كل الأوراق المطلوبة لتعيشي هنا، ولدخول الامتحانات في مدرسة بقرب بيتي...

- ليلى، أرجوكِ، أريد أن أتحدث مع أمي. قلت وقد غصت في البكاء تمامًا. لا أعرف إن كان هذا لأنني فرحة بالسفر لأمي أخيرًا، أم لأنني لا أستطيع التحدث معها، بدون فهم سبب واضح لهذا!

- لن أتأخر عليك يا حبيبتي..

أغلقت ليلى الخط بسرعة دون اكتراث لبكائي أو مواساتي! هل أمي محتجزة في مشفى ولا تستطيع أن تتحدث، أم أنهم أخفوا خبر وفاة أبي عنها كي لا تسوء صحتها؟! على كل حال سأعرف بعد يومين، فأنا أخيرًا سأذهب لأجتمع بها بعد طول

انتظار، لكن من دون أبي، لن تعود الحياة جميلة مرة أخرى أبدًا!

أعترف بأن سعادتي و أنا جالسة على كرسي في طائرة متجهة إلى القارة الأمريكية بجانب ليلى كانت لا تضاهى . لأول مرة سأزور دولة خارج الشرق. لأول مرة من شهور عدة، سأرى أمي وأحتضنها وأشم رائحتها الجميلة! لا أعرف إن كان شكلها قد اختلف قليلًا، أم أنها أصبحت بصحة جيدة! على كل حال، أنا أعرف أنها ستكون مفاجأة، وأنه ليس لديها أية معلومة عن قدومي، وبالتالي عن وفاة أبي، ولذلك منعتها ليلى عن محادثتي.. هكذا شرحت لي ليلى وجدتي عندما أتت لتأخذني معها...

جدتي لم تعد تحتمل وجودي بجانبها منذ وفاة أبي، ولم تتحدث معي مطلقًا. ربما لم تتحدث مطلقًا، لذلك أسرعت بمجيء ليلى، لأنها لم تتمكن من مواساتي وهي من تحتاج للمواساة ! وكان كل هذا مضرًّا جدًّا على مستقبلي، وخاصةً أنني اقتربت من موعد الامتحان، الذي سيحدد دخولي الجامعة من عدمه، لأن الالتحاق بجامعة عريقة بأمريكا صعب جدًّا ، ويتم الاختيار على أسس عدة، وبدقة متناهية، بعد التعرض لمقابلات يجب

أن أكون معدَّة لها جيدًا، فليست نتيجة الامتحان وحدها بكافية، رغم أهميتها البالغة!

أريد أن أعمل بجد من الآن فصاعدًا، لأجعل أمي فخورة بي، وأيضًا أبي في قبره.. أوقن بأنني أستطيع الوصول لأحلامي، والنجاح في المجال الذي اخترته منذ نعومة أظافري .. وسيساعد وجودي هناك على إبقاء معنويات أمي مرتفعة، فهذه هي الخطوة الأولى في التغلب على المرض، ومن المؤكد أن بُعدي عنها كان مضنيًا، ولا يسمح لها بالتحلي بالشجاعة الكافية، وامتلاك روح متفائلة بشكل كافٍ . لذلك قررت أنا أيضًا، أن لا أقول لها عن وفاة أبي أي شيء، حتى تتماثل للشفاء!!

دخلت أنا وليلى إلى منزلها. كان زوجها وابناها في انتظارنا . رحبوا بي ترحيبًا هائلًا، واحتضنوني . كانوا قد أعدوا المائدة، لتناول وجبة الغداء.. ولكنني أمضيت ساعات طويلة جدًّا جالسة على كرسي في طائرة، ولم أرد سوى رؤية وجه أمي، وأن تحتضني حتى أغطَّ في نوم عميق..

- أين أمي؟ سألتهم.

- هيا نصعد إلى طابق الغرف.. قالت ليلى وهي تأخذ بيدي باتجاه السلم الخشبي. توقعت أنني سأدخل إلى غرفة أمي،

ولكني وجدتها غرفة فارغة .. ظلت ليلى ممسكة بيدي حتى أجلستني على السرير..

- أين أمي يا ليلى؟

- حياة.. لي صديق مقرب، يعمل كطبيب نفسي . سألته عن حالتك، وطمأنني بأنها حالة طبيعية جدًّا وبأنها تنتهي وحدها في غضون شهور قلائل. لكنني أرى أنها قد طالت معك بشدة، وأصبحت مزمنة .. هل يمكنكِ موافقتي على زيارة صديقي الطبيب في عيادته الخاصة ليراكِ فقط؟

- لا أفهم يا ليلى! أنا لست مريضة.

- هل تعرفين أن أمكِ ماتت منذ خمسة أشهر؟

- ماذا تقولين؟! أمي سافرت معكِ منذ خمسة أشهر . كانت تتحادث معي عبد الإنترنت دائمًا!!

- لا يا حبيبتي.. أنتِ من كنتِ تتحدثين مع نفسك طيلة هذه الفترة، وتقنعين نفسك بأن أمكِ هي من تراسلك.. عانى أبوكِ من حالتك أكثر من معاناته بوفاتها، ولكنه لم يستطع مساعدتك. أنا طمأنته بأنها ستنتهي وستكونين بخير .. لكن كان يجب أن أعرِّضكِ لصدمة الآن، وخاصةً أنك وصلتِ لنهاية الخيط الذي تعلقتِ به، ليوصلك لأمك، ولم تجديها!

- لا أفهم شيئًا يا ليلى، كيف لم أرَها؟ !! قلت لها، بحروف متقطعة من شدة البكاء، الذي حال بين حنجرتي وكلماتي أن تخرج بشكل منتظم ومفهوم..

- تُوفيت رغد وهي بين أحضانك أول هذا العام، عندما خرجتِ لمدرستك، وحاولت أنا إيقاظها عرفت ما حدث .. عاد أبوكِ مسرعًا من مدرستك بعد أن هاتفته .. عندما عدتِ مع جدتك إلى بيتها عصر ذلك اليوم، قالت لك ما حدث، لكنك كنتِ تردِّين على نحو غريب. حتى أن الجميع اندهش من برود مشاعرك، وعدم تأثرك في عزاء أمك، الذي حضرتِه بنفسك بعدها بيومين. كنت قد سافرت أنا بعد دفن أمك مباشرةً، ولكنهم هاتفوني وحكوا لي ما يحدث معك من كلام عن سفر أمك معي، وكأنك لم تأخذي عزاءها بنفسك! عندما أعلمت جدتك أن تلك تعتبر ردة فعل طبيعية في علم النفس، لمشاعر الفجيعة والفقد، ظنت أنها عندما تقول لكِ بأنكِ على حق، وبأن أمك سافرت بالفعل لتتعالج، كان خيرًا لك. لكن هذا صعب عليك جدًّا الخروج من تلك المرحلة، كما يحدث عادةً. عقلك اللاوعي ساعدك على الاحتفاظ بنكرانك لما حدث، وعبَّر عن حزنه متأخرًا بأعراض ذهانية، جعلتك تتخيلين أن أمك تراسلك، وتتحدث إليك، في الإطار الظرفي الذي وضعتِه لها، بأنها تعيش

في بلد أخرى. صدقتِ هذا بشدة، حتى أنك لم تدخلي في مراحل الغضب والاكتئاب، التي تسبق التقبُّل الكامل، كمراحل طبيعية لاضطرابات ما بعد الصدمة التي تحدث عند الفجيعة على شخص لم تتخيلي أنه سيتركك أبدًا!

- كيف لا أذكر أي شيء مما تقولين؟!

- أنتِ تعرفين علم النفس أكثر منِّي . أتوقع منك استيعاب ما أقول بشكل أبسط، وأن تدركيه بشكل أعمق.

- ظننت أنني في قمة قواي العقلية، وبأن أبي هو الذي اضطرب نفسيًّا.. كان يعاني من آلام فقدها ولم أعرف ذلك . تركته وحده حتى مات حزنًا عليها، ولم أشاركه آلامه ! فقدته بسبب غبائي في الحزن على فقدانها!

عرفت في لحظة واحدة، أنني، وبدون سابق إنذار، أصبحت بدون أب وبدون أم. أصبحت يتيمة تمامًا في ثانية واحدة، رغم مرور وقت، لعدم استيعابي للأمور في وقتها..

- هل أنا مريضة؟ سألتها.

- ليس إذا قررتِ أن لا تكوني!

- لماذا أقرر شيئًا كهذا؟ أنا أريد أن أكون معهم .. ما معنى الحياة بدونهما؟ ! لماذا أعاني من أي شيء حتى لو عناء

خروجي من أزمة نفسية مزمنة، إذ إنني لا أريد الآن سوى الموت..

- ليس هذا ما قالته أمك عنك في أحاديثنا الأخيرة.

- ماذا قالت؟

- كانت تقول لي بأنك قوية جدًّا، وبأنها أعدَّتك جيدًا كي تكوني ميراثها للأرض، وبأنك وُلدتِ لتكوني شيئًا عظيمًا ولتساعدي الناس ولتضيفي ما يمكن إضافته للعالم، وبأنها تؤمن بك وستشعر دائمًا، أنها على قيد الحياة، طالما أنك تتنفسين، فحياتها تكون من خلالك يا حياة...

- أعيش من دونها؟!

- إذا مِتِّ، ستموت أمك حقًّا.. لكن إذا عشتِ، فستجعلينها بذلك على قيد الحياة. كل نجاح تصلين إليه سيجعلها تشعر بالفخر . كل شخص تقدمين على مساعدته، سيجعلها تشعر وكأنها قدَّمت قبل موتها شيئًا نافعًا للبشرية، وهو أنت، كما كان كل أملها في الدنيا أن تترك بصمة خلفها، وعندما فشلت، عرفت أنك ستكونين بصمتها، فلا تخذليها إذا كنتِ تحبينها حقًّا .. تذكرت كلمات لجلال الدين الرومي تقول "الوداع لا يقع إلا لمن يعشق بعينيه، أما من يعشق بروحه، وقلبه، فلا يوجد ثمة انفصال أبدًا.." فهمتِ؟

- ستعيش أمي من خلالي؟

سألتها وأنا ما زلت في حالة ذهول. كنت أجلس وكأنني شخص مبهم لا يملك ملامح، ولا يفهم ما يجري حوله.. كأنني من كوكب آخر وأتيت لتوِّي لأرى كائنًا غريبًا أمامي يحدثني، ولا أفهم كلامه، لكنني أردده في تعجب وإعجاب، من هذا الشيء الذي لم أرَ شيئًا مثله من قبل!...

- نعم يا صغيرتي، ستعيش بك . لن تتركك أبدًا كما وعدتك دائمًا. فقط عليكِ أن تساعديها على الحياة، وتجعليها فخورة بكِ. ولهذا أنتِ هنا!

❁❁

(٢٠٦٥)

خرجت حياة إلى حديقة منزلها، وفي يدها فنجان قهوة وكتاب. كانت عادتها كل صباح، أن تخرج لتجلس على الطاولة في الحديقة بعد تناول الفطور والاستحمام والتحدث مع أمها قليلًا، لتتابع عملها وأبحاثها، أو حتى قراءة كتب كنوع من الترفيه، الذي لم يكن له مكان كبير في عالمها.

بينما هي تسير تجاه الطاولة، ورأتها إيما التي كانت قد أنجزت الكتاب كله لتوِّها، وظلت سارحة قليلًا في أوراق الأشجار المتناثرة، صاحت لأمها حالما رأتها أن تنتظر. وقفت حياة تنتظر ابنتها وهي تقوم من كرسيها وتتجه نحوها. تابعة المشي تجاه طاولة حياة. بادرتها إيما بالسؤال أثناء ذلك، في هدوء تام ينبعث منه الاحترام والتعجب في آن واحد، بشكل ملحوظ..

- حياة، هل تعرفين أن أمك ماتت؟

- ههه، ماذا كنت تظنين. أنني عالمة في مجال علم النفس وأنا مريضة تمامًا؟!

- لم أكن أعلم أنك تعي ما تفعلين! لماذا إذن خصصتِ لشخص ميت غرفة في منزلنا؟ كيف تتعاملين دائمًا وكأنها معنا وبأنها تحدثك وتعطيكِ النصائح وتطلب منك أشياء، حتى أنني في طفولتي صدّقت أنها حقيقية. دائمًا ما كنت أقول إن أمي تمتلك صديقًا خياليًّا. عندما كبرت أحسست بأنك تحتاجين مساعدة، وبأن صديقك الخيالي عندك أهم من ابنتك الحقيقية، لأنك أعطيتها اهتمامًا أكبر مني بكثير!

- كلنا مرضى نفسيون يا صغيرتي. إن كانت أمي قد اهتمت بي بشكل مبالغ فيه قليلًا؛ ظنًّا منها أن هذا سيحميني من قسوة العالم، وسيعطيني مناعة ضد الأمراض النفسية، اختار العالم أن يأخذ درعي الواقي مني، لأعلم أنه لا وجود لشيء مثل حياة بدون معاناة وألم. رغم أن أمي ظنت دومًا أن بإمكانها توفير ذلك لي، لكن الزمان سُنَّته أعند منها، وكان لابد له أن ينتصر. استطاع ملئي أنا أيضًا بآلام بشرية، كي لا أكون أفضل من أحد.. كما قرأتِ في الكتاب، كل شخص ينشأ على طريقة، إما يقلدها بتفاصيلها مع أبنائه دون وعي، أو أنه يفعل عكسها بالضبط لتعويض نقائصه دون وعي أيضًا، لما سيخلف هذا من ضرر.. أنا لست أمًّا عظيمة مثلها كي أقاوم أمراضي من أجل أن أنشئك بشكل صحيح، لأنني أعرف أن الزمن سيفعل ما يتوجب

عليه فعله في كل الأحوال. لم أرد أن تتعلقي بي بشدة، مثلما حدث معي، كي لا تعاني من نفس آلامي. لم يكن عندي متسع من الوقت، والقدرة الذهنية، كي أقاوم تلك المشاعر الحمقاء، التي هي بمثابة ردة فعل ليس أكثر من أجلك . فقد كنت في صراع آخر، حرب أعظم، وهي أن أجعل أمي تعيش، وأن أجعلها تفتخر بي كما أرادت. هذا أيضًا تطلب مجهودًا ذهنيًّا ونفسيًّا لا يمكنك تخيله.. آسفة، لأنني لم أتمكن من أن أكون أمًّا، لأنني انشغلت تمامًا بكوني ابنة!

- وأنا أيضًا آسفة؛ لأنني لم أحاول من قبل أن أسألك أو أتحدث معك عما يدور بداخلك، وما بداخلي أيضًا .. يكفيني أن أمي عالمة عظيمة، ولو لم تريدي لعب هذا الدور، فلنكن أصدقاء .. الآن فقط أريد أن أعرف سر وجود جدتي إلى الآن بيننا!!

- وصولي لأمريكا، وتلك الجلسة مع خالتي، وصدمتي في نفسي، وبأنني ظننت في نفسي يومًا، أنني أعقل العقلاء، بينما كنت ضحية لنفسي البشرية الضعيفة، وعقلي اللاوعي الذي تلاعب بي وخدعني، كل هذا جعلني أفتح صفحة جديدة تمامًا مع العالم. كنت قد اقتربت على إتمام عامي الثامن عشر. قلت لنفسي إنني لم أعد تلك الطفلة الساذجة التي تسأل فقط، بل أصبحت من يحتاج لأن يجد الإجابات. أدركت كم أنني أرث أمي،

وبأنها ستعيش طالما أنا على قيد الحياة ! فهمت أن عقلي يمكنه خداعي مرة أخرى، وتدميري بمرض الاكتئاب المصاحب لاضطرابات ما بعد الصدمة، والذي هو وقته الآن بالتحديد . عزمت تلك المرة على أن لا أقع ضحية عقلي مرة أخرى، وبأن أقاوم أنا المرض لأول مرة في حياتي، بعد أن حاولت جعل أمي تفعل نفس الشيء . لأول مرة أصبح عليَّ أنا أيضًا أن أعاني ما بين ما ينفجر بداخلي من غضب ونفسية مدمرة، وبين عقلي الواعي تمامًا بأن لا أصبح فريسة سهلة لهذا "المورستان" أن يبتلعني. بل عليَّ أنا أن أبتلعه وأخبئه بداخلي بإحكام، ثم أكون في الخارج شخصًا نافعًا، صحيحًا، معافى، لا يملك في حياته أي مشاكل، إذا ما خرجت سيظن الناس أنني مجنونة تمامًا، وعليهم احتجازي في غرف مخصصة للمجانين .. قررت أن أحذو حذو أمي، وأتذكر عندما قالت لي بأنها ستجعلني خليفتها في بادئ الأمر. عندها قررت فتح عيني على التساؤل، وعلى عالمها الخاص جدًّا، الذي فتحت لي أبوابه بهدوء كي لا أصدم إذا ما رأيت كل شيء في الداخل دفعة واحدة. قررت أن أحتجز أنا جنوني بداخلي، وأحبسه، وكأن جسدي بيمارستان، ولكن من الخارج أكون مشفى عظيمًا، يعالجني ويعالج العالم من حوله. فبمجرد إدراك المرء لمشكلته، لا تعد تلك المشكلة

موجودة، وإن كان عليه دائمًا أن يسعى لتحقيق ذلك، لأنه لا ينفك اللاوعي باستخراج هذا الشيء ليزعجنا به، ولكن طالما الوعي يعمل بشكل صحيح، فسيعرف دائمًا كيف يمسك بزمام الأمور.. هكذا أنا عملت على خداع عقلي اللاواعي، وأذقته من نفس الكأس الذي أذاقني إياه من قبل . بصراحة، لأن طعمه أعجبني. فلماذا أقاوم ما أعجبني، ولماذا أكون ساذجة كي أترك هذا الشيء يتحكم بي كدمية حمقاء بلا عقل؟ ! فذاك عقلي الذي هو أعظم معجزة في الكون، استخدمته كي أقمع النفس البشرية الساذجة. قررت أن تكون أمي معي إلى الأبد، كما وعدتني، لأنها أصبحت وكانت منذ ولادتي جزءًا لا يتجزأ منِّي، بدلًا من أن أترك حزني عليها يقتلني كما قتل أبي، أو يُذهب عقلي كما كاد يحدث لي وأنا في مثل سنك...

- فهمت الآن... أتعرفين يا أمي، أشعر برغبة قوية ومفاجئة بتعلم علم النفس.. كل ما تحدثتِ فيه لتوِّك وقرأته عنك وعن جدتي جعلني أشعر بمدى غموضنا نحن البشر، وبأن بداخل كل منَّا ظلمات تفوق ظلمات محيطنا.. أريد أن أعرف كيف نعمل . ألا تقرضيني كتابًا من كتبك الأكاديمية؟

- بالطبع يا صغيرتي. إذا أحببتِ هذا النوع من الكتب، فسأعطيكِ كل أسبوع واحدًا جديدًا وأناقشك فيه، وأعلمك كل شيء تعلمته، لعلك تكونين يومًا أعظم منِّي...

- ولكنني أحب الرقص!

- أمي كانت رسَّامة وأمًّا فيلسوفة . وأنا عزفت البيانو منذ طفولتي وحتى الآن، وها أنا أدرِّس علم النفس في الجامعات، وأساعد الناس على تخطي ما من الممكن أن يحطمهم ومستقبلهم للأبد، وأعمل على مشروع علمي لتغيير طريقة التعليم في كل المراحل الدراسية؛ الأمر الذي إذا تمت الموافقة عليه بشكل نهائي، سيغير شكل هذا البلد وربما العالم بعد جيلين فقط من الآن.. هل تستطيعين أنتِ أيضًا، أن تظل روح الفن بداخلك موجودة لتساعدك على مواجهة العالم، والتعبير عن مكنونك، بينما تقدِّمين بجانبه شيئًا قيمًا للبشرية، لتتركي أثرًا حقيقيًّا بعد موتك؟

- هل تعتقدين أن بإمكاني أن أصبح مثلك؟

- ربما، ستكونين ابنتي..

- أولم أكن ابنتك من قبل؟

- لتكوني خليفتي إذن...

❁❁

تمّت